

الرحيل

(التجديد بين التساهل والتشديد)

من وحى التاريخ

رواية

سامح عبد القادر

اسم الكتاب: الرحيل (التجديد بين التساهل والتشديد)

اسم الكاتب : سامح عبد القادر

تدقيق وتنسيق: محمد عبد النبي

تصميم الغلاف: مي مجدي

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٣٣٥٤٢ م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٩١-٧٠-٩

كافة الحقوق محفوظة للناسر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناسر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقاً لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

الرحيل

(التجديد بين التساهل والتشديد)

من وحى التاريخ



مؤسسة
الكاتب
الحريري
The Writer Operation

إشارة

الصفحات والفقرات المكتوبة بهذا الخط المائل هي أحداث

مُعاصرة ومناقشات الراوي أحمد مالك زهير

أثناء وبعد نشر كتابه الأول

(أجدادي والدول)..

لا أدري إلى متى سيستمر هذا الرفض...!؟

تلك هي المرة العاشرة التي أرسل فيها نسخة كتابي الأول (أجدادي والدول) إلى دار نشر لمراجعتها وتقييمه، أملاً في الموافقة على نشره وتوزيعه، ولقد سئمت تلك الطريقة من الرفض التي باتت تقتصر على تلك الجملة المتكررة:

- العمل لا يتوافق مع سياسة الدار في تلك الفترة !.

لا أعرف ما المقصود بأن العمل لا يتوافق مع سياسة الدار في تلك الفترة، فأنا لست خبيراً في تلك الأمور، ولهذا قررت الاستعانة بأحد تلامذتي الذين سلكوا مسلك الأدب والكتابة، وسبق له أن خاض تجربة النشر من قبل، وله أعمال مشهورة للغاية، كما أنّ اسمه بات معروفاً بين الأوساط الأدبية، فأرسلت له نص الرسالة المُرسلة من دور النشر

تلك، فهو من رشح لي تلك الدور، وخاض معهم تجربة النشر في خمسة روايات من قبل، وحققت رواياته مبيعات جيدة للغاية، ولكنه أجاب بأقتضاب:

- بلا أدنى شك، الكتاب مرفوض أستاذي العزيز!.

ونصحنى قائلاً:

- القراء يميلون فقط لقراءة روايات الرعب والرومانسية والفانتازيا ولكن ما تكتبه أنت مغامرة كبيرة يجعل أى دار نشر ترفض كتابك، دور النشر في النهاية مشروع يهدف إلي تحقيق الربح، وكتابات حضرتك ليس لها جمهور في وقتنا الحالي!.

لا أنكر أن هذا الصنف من الكتابات يجيدها تلميذي النجيب الكاتب (أحمد عادل) بشكلٍ جيد جداً، كما أنّ القراء

يُفضلون طريقته السهلة في الكتابة دون تعقيد، ويتابع أعماله شريحة كبيرة جدًا من القراء (الجُدد) الذين يفضلون هذه الألوان من الأعمال، كما أنه لا يغيب عنهم كثيرًا، فلقد أصدر خمسة روايات كبيرة في أربع سنوات فقط، في حين أنني بدأت أكتب كتابي هذا منذ أن فكّر هو في إصدار روايته الأولى (عشق الكفار) التي قرأتها بدقة، ولم أفهم علاقة عنوان الرواية بمضمونها، وعندما سألته عن ذلك قال ضاحكًا:

- هذا ما يطلبه السوق أستاذي الفيلسوف!.

لم أفهم بداية ما يرمي إليه تحديدًا، ومع ذلك قررت أن أختار عنوانًا لكتابي يتناسب مع مضمونه..

لم أقتنع بما أفصح عنه أحمد عادل، وفكرت كثيرًا في أسباب الرفض الحقيقية، فلم أجد ما يقنعني..

هل اللغة العربية المُستخدمة لا ترقى (مثلاً) لمكانة وقدر دار النشر؟ مع أنني وإن كنت لا أجيد اللغة العربية تمامًا، إلا أنّ كتابي راجعه ثلاثة من أساتذة اللغة العربية الأكفاء في وقتٍ طويل، كما أنّ بعض تلك الدور تقبل الأعمال باللهجة العامية المصرية الدارجة، ولهذا كنت أرى أنه لا مشكلة لدي في اللغة إطلاقًا..

لقد شغلني هذا الرفض كثيرًا، حتى أصبحت أفكر في تلك الرسالة طيلة الوقت، حتى إنني أصبحت أصلي الفريضة ولا أدري عدد الركعات التي صليتها، وتساءلت:

- هل طريقة السرد لا ترقى إلى المستوى المطلوب؟!..!

ما زلت على حالتي تلك أضربُ كَفًّا على الآخر، ولا أدري كيف المخرج.. ويبدو أنّ كتابي لن يرى النور أبدًا، فحزنت

على هذا الجهد وتلك السنين التي ضاعت هباءً، حتى
نصحتني تلميذي النجيب، والروائي الكبير (أحمد عادل)،
صاحب الثلاثين عامًا، بأن أقوم بطباعة كتابي ونشره على
نفقتي الخاصة، فأنا لا أنتظر من نشره عائدًا ماليًا صغيرًا
أو كبيرًا، أو أن أقتات مما سأجنيه منه كما يرجو هو من
كتاباتة، فأنا أعيش كضيف على تلك الحياة، أعيش وحيدًا
فقط مع خادمي وصديقي الأمين المخلص -المُتمرد دائمًا-
الشيخ دردير، في بيتي الأنيق الواسع بتلك القرية الصغيرة
بمدينة قنا في صعيد مصر.

فماذا يريد رجل مثلي تخطى الخامسة والستين من عمره؟
لقد فارقت زوجتي الحياة منذ أربع سنوات، وأبنائي يعيشون
مع زوجاتهم وأبنائهم مستقلين تمامًا عني، لا يزورونني إلا

مرة واحدة في كل أسبوع -لرغبتني في ذلك- فتلك الزيارة
الواحدة كافية تمامًا، ومناسبة مع انغماسي في القراءة
والبحث وانشغالي بالكتابة، وحتى لا يُرهقون (بزياراتهم)
الشيخ دردير، الذي يكره تلك الزيارات لِمَا تسبب له من
مشقة وتعب، حيث تقديم واجب الضيافة والالتزام بزي
مناسب لمقابلتهم، والتنمق في استخدام الكلمات، وإضاعة
بعض الطقوس اليومية كالترريض، وقراءة جزء من القرآن
الكريم، والصلاة في مواعيدها بمسجد القرية الصغير مع
بعض الأنكار، وسماع الموسيقى بهدوءٍ مع فنجان القهوة
التركية عشقه الأول، ومشاهدة حلقة من مسلسل قديم أو
فيلم أجنبي يحبه.

وتلك الطقوس تمثل أهم شيء في حياته، وما زال يحافظ

عليها بشدة، وضياح أي من تلك الطقوس (المقدسة) يغضبه كثيرًا، بل وتسبب له الضيق والضجر الشديد الذي يستمر ليومين كاملين على الأقل من الثثرة؛ حيث اللوم والعتاب، بل السب والشتم لكل شيء حتى للهواء، والتلفظ بألفاظ لا أطيق سماعها.

هذا بالإضافة لتقيده الشديد عند حضورهم، فهو يجب الطبخ والخدمة بالمنزل بحرية تامة، بلا تكلف وفي هدوء تام، فأنا تقريبًا أقيم في مكنتي طيلة الوقت، ولا أخرج منه إلا للصلاة، أو لتناول الطعام، أو النوم، حتى التلفاز لم أكن أشاركة فيه، فلقد قمت بشراء شاشة تلفزيون كبيرة وضعتها على أحد جدران غرفة المكتب، ذلك الجدار المواجه لي في جلستي تمامًا..

يعيش الشيخ دردير في بيتي مسؤولاً عن كل شيء، فهو من يرتب وينظم كل شيء بالمنزل، يسدد فواتير الكهرباء والماء، ويقوم بشراء كافة طلبات المنزل، حتى إن راتبي أصبحت لا أعرف عنه شيئاً، فلقد سلمته بطاقتي البنكية لاستلام راتبي منذ أن شرعت في كتابة كتابي، ومع ذلك كان الشيخ دردير لديه كشف شهري يُسجل فيه كافة مصروفات المنزل، فأنا ليس لي مصاريف خاصة، لا أدخن وأكره التدخين، وكل مُستلزماتي الشخصية باتت أساسيات بالنسبة إليه، بل بات يعرفها أكثر مني لانشغالي الشديد بالكتاب.

يعتبر الشيخ دردير أقرب أصدقائي فهو بنفس عمرى، تلازمنا منذ الصغر، منذ أن كنا معاً بمدرسة الروضة المباركة الابتدائية، ولقد حصل على الابتدائية ولم يكمل دراسته، وعمل فرائشاً بوزارة الزراعة، والآن على المعاش،

انتقل للعيش معي منذ أن ماتت زوجتي، فكان له قدر كبير
ومكانة خاصة بقلبي، حتى أصبحت أغضب لغضبه، وأكره
ما يكرهه، لقد ترك العيش في بيته (وحيداً) بعدما انشغل
عنه أبنائه بعد موت زوجته، وقرر الانتقال للعيش معي
لأنس به ويأنس بي، يفعل كل شيء لإرضائي... ولأنَّ
أبنائي يعملون في وظائف مرموقة بالدولة، فابني الأكبر
(مالك) يعمل قاضياً بالمحكمة الابتدائية بمدينة كوم أمبو
بمحافظة أسوان، وابني (علي) سلك نفس مسلكي فأحبَّ
الفلسفة والتحق بكلية الآداب قسم الفلسفة، ولكنه تفوق عني
كثيراً، وبدلاً من أن يعمل مُدرِّساً لمادة الفلسفة في مدرسة
التراث الثانوية المُشتركة بمدينة قنا كأبيه، أصبح مدرِّساً
بكلية الآداب قسم الفلسفة بجامعة أسيوط، فكان لزاماً على
الشيخ دردير مقابلتهم بشكلٍ رسمي مناسب جداً ولائق وهذا
لم يكن يُطيقه...!

لهذا كان لجوئي للكتابة لهدفٍ مُختلفٍ تمامًا لما يرجوه تلميذي الكاتب (الكبير) أحمد عادل، فأنا أمتلك ما يكفيني ويسد كافة احتياجاتي، إلا أنني قررت أن أنشر تاريخ أجدادي في كتابٍ واحدٍ من وجهة نظر فلسفية إلى حدِّ ما...!.

ذات يوم وبعد أن قرأت مذكرات أحد أجدادي القدامى التي ورثها الأجداد والآباء والأبناء، وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل، وحافظوا عليها حتى وصلت بين يدي الآن، دونَ بها جدي حياته وحياة والده، وتاريخ أجداده كاملاً منذ تاريخ قديم بدقة شديدة للغاية، فوجدت أنّ تاريخ الأفراد يتأثر بشكلٍ بالغٍ بطريقة الحكم والأساليب المتبعة فيه، ووجدت أنّ لها تأثيراً شديداً في حياتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فالأفراد عندما تعيش في مكانٍ ما تتأثر

-لا شك- طريقة عيشهم وحياتهم بشكل كبير بالأساليب المتبعة في الحكم وتحولاته، بل وقواعده الأساسية التي قام عليها، وهذا ما وجدته في حياة أجدادي، فلقد وجدت حياة أجدادي تأثرت بشكل غريب، واختلفت في مرحلة عن الأخرى اختلافًا جذريًا لافتًا للغاية؛ ولهذا قررت أن أكتب تلك المذكرات وأنشرها؛ ليس كتاريخ وسيرة لأجدادي فحسب، بل كتاريخ للنظم والأساليب التي اتبعتها أجدادي في حياتهم، ولهذا قمت بقراءة تلك المذكرات بدقة وتأنٍ بالغ، كما قمت بالاطلاع على العديد من الكتب والدراسات التي ناقشت وحللت تاريخ الفترة التي عاش بها أجدادي في مراحلهم المختلفة.

كانت رحلتي مع كتابي الأول تجربة مثيرة للغاية، استمرت قرابة أربع سنوات مُتصلة منذ أن خطرت على بالي تلك

الفكرة بعد وفاة زوجتي بأيامٍ قليلة، بُتُّ فيها عاكِّمًا على الكتب والمراجع دون إضاعة للوقت، قرأت عشرات الكتب ومئات المقالات، وشاهدت عشرات الأفلام الوثائقية والمناقشات الفكرية، أدوّن كل معلومة أستقيها في أوراقٍ خارجيّة، فتأكدت لي الكثير من المعلومات الموثقة بشهادة من عاشوا تلك الحقبة التاريخية الهامة.

وما إن طبعت الكتاب ونشرته (على نفقتي الخاصّة) وأعلنت عنه وعن أماكن بيعه في بعض المكتبات الكبيرة بمصر، وساعدني في ذلك المهندس جمال توفيق لخبرته الكبيرة في مجال الميديا والإعلان على منصات التواصل الاجتماعي الذي أثر بشكلٍ كبير في نسبة توزيع الكتاب، حتى لاقى رواجًا لم أكن أتوقعه، فلقد بيع منه في شهرٍ واحد منذ تاريخ صدوره في مارس عام (٢٠١٨م) ما يقرب

من خمسمائة نسخة، وهذا رقم لم أكن أبدًا أتخيله يومًا، ولكنني تفاجأت أن من اشتراه (فقط) المثقفون من أبناء عمومتي من قبيلة زهير بمصر، وبعض أصدقائهم المقربين بعد إلحاحهم الشديد عليهم، هذا لأنه يمس تاريخ أجدادهم الذين يفخرون به في المقام الأول، وإكرامًا وتشجيعًا لي في المقام الثاني.

لقد عكّر هذا الكتاب صفو حياة الشيخ دردير تمامًا، ليس لشيءٍ إلا بسبب توافد الزيارات المستمرة من أبناء العمومة وأصدقائهم من كل حدب وصوب، بشكلٍ جعله يعيش على غير طبيعته طيلة الوقت، وبات لا يُمارس طقوسه اليومية كالعادة، وهذا ما جعله يستشيط غضبًا مني ومن الزائرين على حدٍ سواء، وأصبح غارقًا في عصبية طيلة الأسبوع...!

لهذا السبب وإكرامًا له حددتُ -بعد موافقته- موعدًا للزيارات في يومٍ، ووقتًا لا يتغير إلا لظروف طارئة، فحددتُ يوم الخميس (فقط) من كل أسبوعٍ موعدَ التقائي بالزوار من الأقارب والأصدقاء والقُراء، من بعد صلاة العشاء حتى الساعة العاشرة مساءً، وباتت تلك الساعات وكأنها أمسية ثقافية غير تقليدية، لما يسودها من أجواء الحب والألفة غير العادية، وفي تلك الأثناء كتب الكاتب الصحفي (محمود سراج) - أحد أصدقاء ابني مالك المقربين - مقالًا طويلًا بعنوان كتبه بالبنط العريض تصدّر عناوين الصحيفة المحلية التي يعمل بها جاء فيه.. **بيت الكاتب أحمد مالك مُلتقى ثقافي في صعيد مصر..** وذيل العنوان بمقالٍ طويل، وخبر تفصيلي كتب فيه ما أحدثه كتاب (أجدادي والدول) من أثرٍ بين شيوخ ومتقفي قبيلة زهير

حيث الترحيب الشديد بالكتاب وما جاء فيه، كما شَرَحَ بعض موضوعاته الأساسية، وعلق على بعض ما جاء بالكتاب من أحداثٍ وشخصياتٍ تاريخية هامة، بطريقة لا تخلو من الإثارة والتشويق، وأشار في آخر مقاله إلى أنه بات يزور منزل الكاتب أحمد مالك الكثير من أبناء العمومة والأصدقاء والقراء، يسألون عما جاء بالكتاب، ويستوضحون عن بعض النقاط، ويطلبون شرح بعض الفقرات التي احتوى عليها الكتاب، وهذا ما رفع نسبة المبيعات بشكلٍ كبير، وحقق الكتاب مبيعات مضاعفة في شهور قليلة، ومع زيادة نسبة المبيعات زادت نسبة الزيارات التي باتت لا تقتصر على أبناء قبيلة زهير وأصدقائهم فحسب، بل أصبح يزورني مثقفون من كل مكان في صعيد مصر؛ لأنهم رأوا أنَّ الكتاب يمس تاريخ أجدادهم وتاريخ دولتهم أيضًا.

تلك التطورات جعلتني أقوم بطباعة كل الكتب والمراجع والدراسات والمقالات التي كنت قد قرأتها عندما شرعت في كتابة كتابي، وجهزتُ غرفة كبيرة لاستقبال الزوار، نقلتُ فيها مكتبتي العامرة، وبها نسخة كاملة مصورة من مذكرات جدي الأكبر، كما أنني أحضرتُ خادمًا آخر شابًا مُطيعًا يُساعد الشيخ دردير في عمله وقت حضور الزائرين (فقط)، يحضر قبل حضورهم بساعةٍ كاملةٍ يُرتب كل شيء، ينظف المكان ويجهز المشروبات وواجب الضيافة، ثم ينصرف بعد انصرافهم بأقل من الساعة بعد ترتيب الغرفة وإعدادتها لحالتها الأولى، نظير راتب شهري بسيط.

اختار الشيخ دردير هذا العامل بنفسه، اسمه عبود عبد السلام، في العشرين من عمره، يعيش وحيدًا مع أمه (أم عبود) في بيتهم المتواضع بعد موت والده، فقد حصل على

الدبلوم الفني الزراعي، ويعمل أجيلاً باليومية عند الأعيان من أصحاب الأراضي الزراعية الواسعة في قريتنا، ويعمل بجهد كبير ليتزوج ويحقق حلم أمه (الوحيد)؛ حيث زواجه وإنجاب أحفاد تراهم قبل أن تفارق الحياة، قصير القامة، خمري اللون، فاقد تماماً لحاسة الشم نتيجة تعرضه لحادث سيارة كاد أن يودي بحياته، وبه عرجة خفيفة بساقه اليسرى نتيجة هذا الحادث، وله طريقة خاصّة عفوية جدًّا في كلامه، دائماً ما ترسم الابتسامة والضحك على وجوه الحاضرين.

ومع أنه كان يضحك دائماً -وأحياناً كثيرة بلا سبب- ويبدو للناظر من الوهلة الأولى أنه غبي وعديم الفهم، إلا أنّ الغريب واللافت أنّ لديه قدرًا عجيبيًا من الفهم، ويجب الاستماع للمناقشات كالحضور تمامًا، بل وأكثر انتباهًا

أحيانًا أخرى، ويعمل على ألا تفوته دقيقة واحدة من تلك المناقشات، حيث كان لعبود مكانا معروفا لا يُغيره في كل الأمسيات، جهزه لنفسه خصيصًا لذلك، كان يجلس على الأرض واضعًا وسادة صغيرة أمام مقاعد الضيوف، وكان يرفض الجلوس على كرسي كباقي الحُضور، تراه جالسًا مُتربّعًا رافعًا رأسه لأعلى مُنتبهاً، وحتى لا يضطر لترك المناقشة لأي سبب، كان يُجهز كل الاحتياجات التي قد تُطلب منه أثناء المناقشة قبل موعدها، لذا كان يحضر للمنزل قبل موعد الأمسية بساعاتٍ حتى لا يفوته من المناقشة لحظة واحدة.

مع هدوء عبود عبد السلام الشديد وضحكاته غير المبررة، وطريقته الغربية في معالجته للأمور، وعفويته الشديدة والتي يقابلها في الوقت ذاته عصبية الشيخ دردير وجديته المفرطة

وتنظيمه الذي يصل إلى حد الرتابة، كثيرًا ما كانا يختلفان على أسبابٍ لا توصف إلا كونها (تافهة)، وكنت كثيرًا ما أضطر للتدخل لحل تلك التفاهات التي باتت تخلق حالة خاصة لدي من الضحك الهيستيري أصبحت أدمنها، كما كان للشيخ دردير وعبود مساهمة (خفيفة الظل) تخلق نوعًا من الكوميديا التلقائية، التي تخفف من جدية المناقشات لما جاء بالكتاب من أحداث، وكثيرًا ما كانت مُداخلتهما سببًا رئيسًا في فتح باب النقاش في موضوعات أراها خطيرة وهامة للغاية والآن أترككم مع كتابي الأول (أجدادي والدول).

أحداثي والدول

تأليف

أحمد مالك زهير

نعيش في بلادٍ و نرتبط بها ارتباطًا مُبهمًا غير مفهوم، فقد تكون أسوأ بلاد العالم، أخذت منا أكثر مما أعطتنا بكثير، كسرتنا وسحقت أحلامنا ووأدتها دون اكرات، ولكن ومع ذلك ثمة علاقة قوية تجذبك إليها، فتخلع قلبك وتختلج مشاعرك بقوة، رابطة جيّاشة وحنين موصول لا ينقطع، ذكريات جميلة وأخرى خلاف ذلك، اتحدتا معًا فكوّنتا حياتنا وشخصيتنا بتعقيداتها النفسية وبراءتها وعفويتها على حدّ سواء، أحداث هادئة وأخرى مُضطربة، بكاء وضحكات، أفراح واتراح، غضب وسكينة، ألم ولذة، حسرة وابتهاج، عويل وإنشاد، انتحاب وابتسام، مشاعر عايشتها لا تبرح مُخيلتك، ولظروفٍ قهرية خارجة عن إرادتك قد يُكتب عليك أن تترك تلك البلاد.. فلا يكون أمامك من سبيلٍ إلا الرحيل، ووجب عليك لهذا أن تختار البديل.. بديل لتلك الذكريات، بديل لتلك المشاعر، بديل يمتد لتراب أرضها وشوارعها وطرقاتها، بديل لأشخاصها، وتلك هي المُعضلة.. وتلك هي عاتقة الرحيل!.

كان الشريف بكري يرى أنّ لمصر مكانة خاصّة في قلوب كل العرب والمسلمين، كما كان يراها حلمًا جميلًا لكل من

يطمح إلى العيش في استقرار وطمأنينة، ولكن هناك جدار وحاجز يمنع الشريف بكري من الهجرة إلى مصر، فلقد كان له في مصر تجربة قاسية، يسترجعها على الدوام بكل تفاصيلها بمجرد أن يأتي ذكر مصر...!

تمتد أصول الشريف بكري إلى شبه الجزيرة العربية من منطقة نجد تحديداً، حيث قرر الهجرة منها وتركها نهائياً بعدما أعيته حياتها الخشنة، والصراعات القبلية التي لا تنتهي، وذلك بعدما قرر الإمام سعود الثاني -المُلقب بسعود الكبير- بن عبد العزيز بن محمد بن سعود - ثالث أمراء الدولة السعودية - ضمّ بلاده تحت حكمه، وهذا ما كان يرفضه الشريف بكري بشدة، فلم يجد بُدّاً من الهجرة، وأصبح أمر الهجرة وترك بلاده أمراً حتمياً، ولكنه ظل لأيامٍ يفكر ويتشاور مع أفراد قبيلته على أمرٍ واحدٍ إلى أي البلاد يتجهون؟.

لم يكن أمام الشريف بكري إلا الفرار من هذا الواقع المُعتم، والهروب من المستقبل المُلبد بالسواد، فحمل أسرته ومن وافق معه من أفراد القبيلة علي الهجرة، وفروا جميعاً من بلادهم والحزن يملأ قلوبهم، فلقد أجبرتهم الظروف على

الهجرة وترك بلادهم، وانطلقوا تاركين خلفهم تاريخهم وذكرياتهم، وأحباءهم في مشهدٍ لن ينسوه أبدًا، سيظل محفورًا في وجدانهم وأعماقهم..

وفي طريقهم للهجرة طلب الشريف بكري من شيخ قبيلة ليث (أحد القبائل المجاورة لهم) الشيخ زيد بن عبد الله الليثي استضافته ومن معه من أبناء القبيلة، فاستضافه ومن معه وأكرم نُزله، وكان قد قرر شيوخ قبيلة ليث الهجرة من بلاد نجد أيضًا خوفًا من عدم استقرار الأوضاع بتلك المنطقة التي تمر بتطورات في غاية الخطورة، ولعدم قبولهم الشديد ورفضهم القاطع للأفكار المُتشددة - حسب وصفهم- التي قامت عليها الدولة السعودية، وحروبها التي لا ولن تنتهي، ولكنهم لم يحددوا حتى الآن وجهتهم...!

ما زال الجميع في حيرة حتى وصل رسول يطلب لقاء الشريف بكري ابن الشريف علي شيخ قبيلة زهير وكبيرها، وما إن رآه الشريف بكري حتى رحَّبَ به كثيرًا واستقبله بحفاوة، إنه العبد الأسمر الأمين ذو البأس الشديد، صاحب الثلاثين عامًا ياسر سعدون، جاء تعبًا مُنهكًا بعدما أعياه البحث الطويل عن الشريف بكري لعدة أيام، لقد جاء مُرسلاً

من قبل أبناء عمومتهم أبناء قبيلة زهير التي تعيش في صعيد مصر، وهم فرع لقبيلة زهير استوطنت صعيد مصر، حيث هاجر عمُّ لهم يُدعى (أبو القاسم) أحد أبناء جدهم الشريف (زهير الكبير) إلى مصر منذ زمنٍ بعيد رافضاً حياة البادية متمرداً عليها رغباً الاستقرار في مصر، كما تزوج فتاة من أهل مصر وأقام هناك، ثم ما لبث أن انتقل هو وزوجته وأبناؤه للعيش في صعيد مصر، وكون أحفاده من بعده عائلة قوية متماسكة ومتراطة، لها عاداتها وتقاليدها وأعرافها الخاصة التي تمسَّكوا بها حتى الآن، والتي ترجع بكل تفاصيلها للحياة القبلية بشبه الجزيرة العربية، وما زالوا متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم القبلية بفخر، ولرغبتهم في المحافظة على صلّاتهم بأبناء عمومتهم بنجد، أطلقوا على اسم قبيلتهم نفس اسم القبيلة بشبه الجزيرة العربية، فعرفت باسم قبيلة زهير، ولكنها معروفة بين القبيلتين كونها فرع صعيد مصر..

وعلى الرغم من استقرارهم الكامل في مصر، إلا أنهم ما زالوا متمسكين بقراباتهم، والعمل الجاد على توطيد صلّاتهم بأبناء عمومتهم بشبه الجزيرة العربية، وما زالوا يتزاورون

بين الحين والآخر، قاطعين مسافات كبيرة جدًّا جفاظًا على صلة الرحم، وبينهم علاقات تسودها المودة والمحبة والاحترام الشديد المتبادل، مع الحرص على إنشاء علاقات مصاهرة بينهم لتوطيد علاقاتهم وزيادة تماسكها.

بالرغم من عدم استقرار الأوضاع بشكلٍ كامل بالقاهرة والدلتا وبعض مديريات الصعيد، حيث اندلاع ثورة شعبية كبيرة ضد حكم خورشيد باشا - والي مصر في الفترة من ١٨٠٤م حتى ١٨٠٥م- بالقاهرة أدت إلى عزله وتعيين والٍ جديد للبلاد -القائد الألباني محمد علي باشا- بإرادة شعبية مُنفردة، حيث يخوض الآن معركة متشعبة الاتجاهات لتثبيت حكمه في البلاد المصرية، إلا أنَّ ذلك لم يمنع أبناء عمومة الشريف بكري في صعيد مصر من أن يرسلوا في طلبه منذ عدة أيام، فصعيد مصر - خاصة المنطقة التي استقرت بها قبيلة زهير- منطقة بعيدة عن تلك الأحداث المتوترة هناك، فتشاوروا في أمره سريعًا، وقرروا إحضاره إلى بلادهم، ورفضوا مجرد إرسال رسالة عادية له، وقرروا أن يرسلوا شخصًا أمينًا وثقة يعرض عليه ما اتفقوا عليه، فترددوا فيمن توكل له تلك المهمة الوعرة،

حتى وقع اختيارهم في النهاية على ذلك الشاب القوي المُخلص العبد ياسر سعدون، فهو يعرف الشريف بكري جيداً، وله بقلبه مكانة خاصّة تختلف عن مكانة كل سادته من أفراد قبيلة زهير بشبه الجزيرة العربية وصعيد مصر، كما أنه صاحب حجة ورأي وحيلة، وسينجح بالتأكيد في التخلص من أي صعاب أو عوائق قد تواجهه في مهمته الخطيرة، كما أنه سيستطيع أن يقنع الشريف بكري بالهجرة إلى مصر إن تردد في ذلك، فأرسلوه وأكدوا عليه عدم العودة إليهم مرة أخرى إلا بعد ما يأتي لهم بخبر يقين عن الشريف بكري وعن أحواله، أو أن يحمله إليهم طواعيةً، فمصر بلاد غنية وفيرة الماء والزرع، وتنعم بالأمن والرخاء والاستقرار التام.

وعلى الفور تحرك العبد ياسر سعدون في مهمته دون خوفٍ أو تردد، قاطعاً مسافة طويلة للقاء الشريف بكري، وتقديم عرض أبناء عمومته له.

لقد كان أبناء قبيلة زهير في مصر يوقرون الشريف بكري ويقدرونه أعظم تقدير، ويبالغون في ذلك، ففي نجد له مكانة

خاصّة بين أبناء القبيلة، فهو أعلمهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ كما أنه من شيوخ مذهبهم الأفاضل، وأعظمهم مقامًا وأعلاهم قدرًا، وهو قائدهم الأول، وزعيمهم الأغرُّ بلا منازع، وله مكانته المعروفة بين أبناء القبيلة، وما إن علم أبناء قبيلة زهير في صعيد مصر بأخباره من بعض أبناء القبيلة -الفارين أخيرًا- حتى قرروا أن يرسلوا في طلبه للمجيء إليهم، فهم على يقينٍ بأنه يُعاني بشدّة، خاصّة بعد ما حلَّ به وبقبيلتهم ما حلَّ، وبعد هزيمتهم النكراء بتلك المعركة الأخيرة التي قادتها قبيلتهم، فلقد فرَّ بعض أبناء قبيلة زهير قاصدين أبناء عموماتهم بصعيد مصر، فاستقبلوهم أحسن استقبال، وبالغوا في ضيافتهم، وساعدوهم في استقرارهم هناك، فسألوا عنه وتوقعوا ما قد يكون حلَّ به وبأهله، فبادروا بإرسال العبد ياسر سعدون لإقناعه بالهجرة إليهم، مع إعطائه الوعود اللازمة بتنفيذ كل مطالبه لتسهيل إقامته في مصر، وذلك حُبًّا وتقديرًا له ولمكانته، ولعظيم شأنه بينهم..

في ظل غياب تامٍ للدولة العثمانية عن منطقة نجد، ومجرد وجود اسمي فقط على بلاد الحجاز، حيث سيطرتها على المناطق المقدسة للمسلمين كضرورة حتمية، كونها راعية مصالح المسلمين حول العالم، كانت بلاد نجد تعيش في غيابات من الجهل المطبق منغمسين في الملذات والملاهي حيث الاستعانة بما لا يضر ولا ينفع من التمسح بالأشجار والقباب والأحجار والاعتقاد فيها للتوسل لقضاء الحوائج، وانتشار البدع والخرافات، والاستعانة بالجن والذبح والنذر لهم.. فلا وجود لفنون الطب في بلاد نجد، حيث يُترك الطعام للجن في زوايا البيوت لشفاء المرضى، فإذا مرض أحدهم ويأسوا من علاجه ذهبوا به إلى طبيب البادية، يسألونه علاجًا فعالًا لمريضهم، فيصف لهم دبح تيس أصمع أو خروف أسود في مكان يُعيّنه لهم بدايةً، ويأمرهم ألا يذكروا عليه اسم الله! فيعطوا المريض جزءًا منه، كما يأمرهم بأن يتركوا (في هذا المكان) جزءًا آخر تقرّبًا به للجن، وربما يشفي الله لهم مريضهم استدراجًا لهم...!

وإذا تأخر زواج فتاة لأي ظرف كان، لم يكن عليها إلا أن تتوجه إلى بلدة الفدا - غرب الدرعية بنجد- يتوجهون إلى

ذكر نخل عرف بينهم بالفحال، يقدمون إليه فيندرون له النذور، ويذبحون له الذبائح، وتأتيه الفتاة فتضمه بيدها وتقول:

- يا فحل الفحول، أريد زوجًا قبل الحول...!

وإذا تزوج الرجل وأكرمه الله بالولد، كان يذهب إلى شجرة الطرفية -نوع من أنواع الشجر قريبة من فحل الفحول- فيذبح الذبائح، ويُعلق الخرقَة على الشجرة حتى يسلم ابنه من الأذى...!

وفي طرف الدرعية الجنوبي، غارٌ كبيرٌ اسمه غار الغاشمية، يزعمون أنّ الله تعالى خلقه في الجبل لامرأة تسمى "بنت الأمير" أراد أحد الفسقة أن يظلمها، فصاحت ودعت الله، فانفلق لها الغار بإذنه تعالى، ونجاها الله منه، وكان الناس يذبحون عنده الذبائح تبركًا به، ويندرون له النذور، وكان يسكنه أحد المشعوذين، وعندما يأتيه طالب الحاجة، ويبدأ في ذكر حاجته، يقوم المشعوذ بإصدار همهمة مُعينة، يفهم منها الجهلة أنّ الغار يُجيبهم!، فيضعون له النذور والهدايا والعطايا، وبعد انصرافهم يخرج هذا المشعوذ ليأخذها لنفسه...!



وفي ظل هذه البيئة المُلبدة بكل ما هو بعيد عن الدين والمعتقد السليم للدين الإسلامي القويم غرق المُجتمع الإسلامي في هرطقة المذاهب الصوفية (الفلسفية المُتطرفة) تلك التي نتجت عن مزيج من الأديان الوضعية في آسيا الوسطى والبلقان، مع مزجها بأفكار بعض أعلام التصوف الفلسفي من أصحاب عقيدة الحلول والاتحاد، وعقيدة وحدة الوجود الإلحادية، حتى باتت بهذا الشكل قوة مُنظمة في المجتمع الإسلامي، تحمل أفكارًا وعقائد وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فانتشرت بين الأقطار، وانتشرت البدع والخرافات بمعرفة أدعياء الولاية والمجازيب الذين اعتبرهم العامة أولياء وأصحاب مقاماتٍ عليّة..

ولقد بالغ المُتصوفة المتطرفون في الزهد حتى حببوا المسلمين في الفقر، فجاؤوا بنزعة رجعية كالتى كان عليها العرب قبل الإسلام، حملت هذه النزعة الرجعية بعض أولئك على الاشتغال ببعض العلوم التي لا طائل منها ولا فائدة؛ كالسحر وضرب الرمال وغيرها، بل وصل بهم الحال في الرجعية إلى أبعد حدودها، وأدخلوا في تصوفهم



كثيرًا من الخرافات السحرية التي أبعدهم عن العلوم النافعة، كما ظهرت مؤلفات في الروحانيات من سحر وطلاسم وضرب للرمل وتنجيم، وكان هناك إقبال شديد من الناس عليها، فانتشرت المُتصوفة المُتطرفة في البلاد بشكلٍ مخيف، وأصبح بالدولة العثمانيَّة وكل أقطارها ما يزيد على ثلاثمائة طائفة صوفية (القليل منها) من تمسك بالعقيدة السليمة والمنهج القويم بالدين الحنيف، والكثير منها خرج عن تعاليم الدين الإسلامي الصحيح، وبات له شطحاتٌ وأقوالٌ وأفعالٌ تخرُج عن الدين والمِلَّة، ولقد انتشرت تلك الطوائف في الدولة العثمانيَّة في كل ولاياتها، والغريب أن السلاطين العثمانيون- في تلك الفترة- شاركوا بقوة في نشر بدع وخرافات المُتصوفة المتطرفة، وأوقفوا لها أوقافاً عظيمة، خاصَّةً لبناء الأضرحة والمزارات والقباب وتجديدها وكسوتها، وكانت تدار بمعرفة (دائرة الأوقاف العثمانيَّة)، التي لم تفرق بين طائفة وأخرى، فلم يكن يتأخر عن تلك الطوائف صرف أي أموال حتى ولو كانت الدولة في حالة حرب، وفي أشد الحاجة لتلك الأموال.

ومن عجائب الأمور عند تلك السلاطين أنه عند الأزمات والشدائد أو عند حالات الحرب كان السلطان العثماني يرسل أموالاً للعلماء ليقرؤوا له صحيح البخاري، وذلك قبل تجهيز الجيوش ووضع الخطط، وإعلان حالة الجهاد في الدولة الإسلاميّة، حيث كان يرسل أموالاً باهظة (تكفي لتسليح فرقة من الجند) يتم توزيعها على طلبة الأزهر ليقرؤوا له صحيح البخاري، ويتبركوا به ويدعوا له ببركته بالنصر، كما كان مشايخ الصوفية من فقراء الأحمدية، والرفاعية، والبراهمية، والقادرية، والسعدية، وغيرهم، يجتمعون جميعاً في مجالس مخصوصة لهم بالأزهر الشريف ليذكروا اسم الله "اللطيف"، وغيره من الأسماء لينصرهم علي عدوهم الغاشم...!.

لم يتوقف دور أولئك السلاطين العثمانيين لهذا الحد فحسب، بل أقرّوا مراسيم وشرعوا قوانين خاصّة شجّعت العامّة لاعتناق تلك الطرق والانضمام إليها، كإعفاء المنتمين لبعض الطرق الصوفية من الخدمة العسكرية مثلاً.

وفي الوقت الذي كانت تحل بالعامّة الأزمات الاقتصاديّة الطاحنة، ويتصوّر الفقراء والفلاحون جوعاً، كانت تلك

الطوائف تتعم بالعيش في رغدٍ وترفٍ في زواياهم اتكالاً على الأوقاف والعطايا والهبات التي تنهالُ عليهم بين الحين والآخر من الأعيان ومن قادة الدولة وسلاطينها، وهذا ما كان يدفع الفقراء إلى البقاء في زوايا تلك الطرق والعيش فيها، هرباً من الفقر والجوع.

والأكثر من ذلك، أنه في الوقت الذي كان يتفاقم فيه ظلم الولاة والحكام بإرهاق كاهل الفلاحين والتجار والعامّة بالضرائب، كان هؤلاء بمنأى عن هذا تماماً، فنظراً للحماية التي يتمتعون بها في ظل تلك الدولة (العريقة) لم يكن ظلم الحكام يطولهم، كما أنّ الضرائب لم تكن تلحق بهم، بل كان الحكام يعفونهم من الضرائب، بل زاد الحد عن ذلك، حتى ساد بين الولاة والحكام أنّ فرض الضرائب على هؤلاء شيءٌ من الكبائر...!

الأكثر خطراً من ذلك أن اكتفت الدولة العثمانية بالعلم الصوفي (المعتدل منه والمتطرف على حدٍ سواء) وبعض العلوم الدينية الأخرى، ونبذ العلوم الدنيوية النافعة كالكيمياء والفيزياء والبصريات والأحياء وعلم النبات والهندسة والرياضيات والجغرافيا وعلم الاجتماع والسياسة والطب

والصيدلة والفلك والفلسفة وغيرها من العلوم كونها لهواً لا يفيد، وأهملت تماماً مؤلفات وكتب وتجارب علماء الأمة الإسلامية (الذين كانوا سبباً أساسياً للنهضة الغربية) أمثال ابن سينا والرازي وابن النفيس والخوارزمي وابن خلدون والإدريسي والبيروني والحسن بن الهيثم وابن الخطيب والفارابي وجابر بن حيان وغيرهم .

وأمام تلك التصرفات والمتغيرات التي طرأت على المجتمع، حاول بعض العلماء الراسخين أعمالَ عقولهم، والتصدي لتلك الممارسات الشاذة البعيدة عن الدين، وقرروا أن يتصدوا لتلك البدع والخرافات، ويفندوا لها ردوداً تُناسب ما استجد في هذا العصر، فإن كان العلماء الأوائل قد تصدوا من قبل لتلك البدع وأنكروها، إلا أن هناك المُستحدث منها، فحاولوا التصدي لها من واقع فهمهم لصحيح الدين والعقيدة المُحمدية الشريفة، واستنباط أحكام جديدة لا تُناسب تلك البدع فحسب، بل تُناسب تطوُّر المُجتمع نفسه، وذلك ليعملوا على إعادة العالمة عن انحرافهم، ففي (حلب) ما إن أعد بعض العلماء عدتهم لنشر أفكارهم وجهزوا الردود المُناسبة لذلك حتى تمت الوشاية بهم، وقُدِّموا للمحاكمة جميعاً، وكانت التهمة الموجهة إليهم

تهمة (خطيرة جداً) بالدولة العثمانية آنذاك، وهي تهمة فتح باب الاجتهاد...! نعم فتح باب الاجتهاد...!، تلك التهمة الخطيرة عند السلاطين العثمانيين في تلك الفترة، حيث كان إعمال العقل ورفض الجمود والتقليد الأعمى وفتح باب الاجتهاد تهمة تصل إلى حد الكبيرة العظيمة، بل إن بعض العلماء وصل بهم الأمر لتكفير من يُعمل عقله ويجتهد في الدين، وذلك بدعوة أن باب الاجتهاد قد أُغلق منذ بداية القرن الخامس الهجري..

كما انتشر التعصب المذهبي بين العلماء والعمامة على حدٍ سواء، حيث التشديد بين المذاهب الفقهية المختلفة، تلك الفتنة التي مرّت بها الأمة الإسلامية بدايةً من القرن الرابع الهجري، بعد انتشار المذاهب الفقهية بين أقطارها حيث كان التعصب المذهبي قوياً راسخاً حتى وصل نهايته.

ولقد كان لوقوف ولاية الدولة العثمانية خلف تلك الممارسات دون التدخّل الحكيم أثره الشديد في تردّي أحوال الأمة الإسلامية بهذا الشكل، كما كان تشجيع الدولة وسلاطينها ووقوفهم خلف تلك الشركيات والبدع والخرافات أن بات بعض مُدعي العلم لا يرفضون تلك الممارسات الشاذة، ولا

يقفون بوجه تلك البدع والشركيات، وبات البعض الآخر يرفضها دون أن يجهر بها، إلا لمن كان يراه يرفضها من الأصل ليؤكد له صدق عبادته وطهرها، حتى أصبحت تلك الممارسات عند الكثير من العامة هي صحيح الدين.

ومع هذا وذاك كان هناك بعض العلماء -أصحاب العقول- يرفضون تلك الممارسات، بل عدوها من كبائر الذنوب، ورفضوا أن يعيشوا تحت وطأة سلطان الجمود والتقليد، فتمردوا عليها، وخرجوا عليها يرفضونها بقوة ويتصدون لها بكل عزم وثبات، ولنا في الشيخ منذر بن رشيد الحنبلي أسوة حسنة في ذلك وخير مثال له.

كان الشيخ الشاب منذر بن رشيد الحنبلي، من عسير بشبه الجزيرة العربية، في الثلاثين من عمره، نشأ في طاعة الله، فأحب الدين وعاش في معة الله وحفظه، تعلم الفقه على المذهب الحنبلي، وما إن شاهد تلك الممارسات الشاذة والانحرافات العقدية التي تخالف حقيقة الدين والعقيدة الصحيحة حتى وقف أمامها ونبذها، وتحدث مع العلماء وناقشهم وحاججهم ونجح في ذلك، وبدأ في دعوة العامة لنبذ معالم الشرك وترك البدع والخرافات والشعوذة، وعكف

على دعوتهم لرفض تلك الممارسات التي أخّلت بصحيح عقيدة الدين الحنيف. وانحاز له عدد من العامة الذين اقتنعوا برأيه وعلمه، فرفض بعض العلماء الحاقدين له استمراره في الدعوة، حتى لا يكون له عليهم سلطان ومكانة، فأخذوا يُؤلّبون عليه العامة، وما لبث حتى ثار عليه عدد كبير من العامة والجهلاء، وأذوه وضربوه وكادوا أن يفتكوا به، ونبذوه هو ودعوته، ورفضوا ما جاء به، وهدّدوه بالقتل إن عاد لمثلها، فما كان منه إلا أن تظاهر أمامهم بأنه انصاع لدعوتهم، وخشي تهديدهم قائلاً:

- اللهم إني بلغت اللهم فاشهد... اللهم إني بريء مما تصنعون...

وانطوى على نفسه مدةً طويلة، رافضاً تلك العادات والممارسات الشِّرْكيّة في صمتٍ، تلك العادات والممارسات التي تفسّنت بين الناس، وخلقت لنفسها مكانةً من الصعب زحزحتها، خاصّةً أنها باتت محميّةً بأمر الحاكم نفسه، بل وخليفة المسلمين في ذلك الوقت، ولكنه بعد مضي وقت معين، شعر بأنه مُقصرٌ في جنب الله، فعاد يدعو لمنهجه من جديد، ولكن بطريقة جديدة، عاد يدعو الناس دون أن يخرج

للعمامة على الملأ، فيعادي بذلك العلماء متحجري الفكر الذين كانوا سبباً رئيساً في تأليب العامة ضده، وأخذ على عاتقه أن يبين صحيح الدين للناس على مهل، واستمر في ذلك طيلة سنوات، وجعل جُل تركيزه منصباً على أطفال المسلمين يوضح لهم حقيقة الدين والعقيدة السليمة، حتى أخذته الدعوة إلى الله فلم يتزوّج، وعاش معه خادمه عياش السعيد -عبد حبشي اشتراه الشيخ منذر رشيد لخدمته وترتيب أمور بيته- في بيته المتواضع، يدعو فقط لدين الله سبحانه وتعالى بالرفق واللين، يُنفق على الفقراء والمحتاجين، عاش بين الدعوة إلى الله وتأليف بعض الكُتبيات الصغيرة التي وضّح فيها صحيح الدين وعقيدة التوحيد، فانصرف له عدد كبير من الناس، ومع مرور الوقت أصبح لديه أتباعٌ كُثُر يؤمنون بدعوته ومنهجه في العقيدة، علّمهم صحيح الدين، ولكنه اقتصر في دعوته على منطقة عسير بشبه الجزيرة العربية، ولم يحاول نشر منهجه في باقي الأقطار الأخرى، تاركاً أمرها لعلمائها، وما زال يدعو الناس إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأعدادهم في ازدياد يوماً من بعد يوم.

كانت نجد تنقسم إلى قسمين رئيسين: حَضْرٍ وِبدَوٍ، غير أنه توجد مرحلة انتقالية معيّنة يمرُّ بها بعض السكان، وهذه المرحلة من الصعب إلحاق مجتازيها بأيِّ من القسمين السابقين، فلا هي بدوية خالصة، ولا حضرية بالكامل..

كان الحضر ليس كحضر القاهرة أو دمشق أو بغداد، بل أقلَّ نسبيًّا في درجة تحضره من تلك المدن، وفي أهم حواضر نجد، بل وأقوى إمارة بها في تلك الفترة كانت العيينة، تحكّمها أسرة من أهمِّ وأقوى أسر نجد هي أسرة آل معمر، وفي تلك الإمارة ولد محمد بن عبد الوهاب.

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي آل مشرف التميمي، يعود نسبه إلى آل مشرف من قبيلة تميم عريقة النسب والشرف، كان جدُّه سليمان بن علي بن مشرف، من أشهر العلماء في عصره على الإطلاق، كان من أكابر العلماء في الجزيرة العربية، وصاحب سمعة طيبة، وكان أكبر عالم ظهر بالمنطقة في حياته، وكان علماء نجد يقصدونه فيما اختلفوا فيه من مسائل فقهية.

أما والده فلقد كان عالمًا فقيهاً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وكان من علماء نجد المشهورين وقضاتها

المعروفين، ولكنه كان أقلَّ علمًا من والده الشيخ سليمان بن علي، كان صاحبَ خُلُقٍ ودين، فقيهاً وورعاً، وكان القضاة -بشكل عام- في نجد لهم مكانة خاصة بين الناس، ينظر لهم الناس بتقدير واحترام، حيث كان في كل إمارة عدّة قضاة، يفصلون بين الناس فيما اختلفوا فيه، وكان لهم عدة مصادر للدخل، منها أوقاف حُددت خصيصاً لهم، وكان آخرون يأخذون أجوراً من المتخاصمين، وكان بعضهم يعمل بالتجارة أو الزراعة بجوار عمله، وكانت طريقة تنفيذ عملهم بسيطة للغاية، فكثير من المشكلات كانت تُحلُّ دون كتابة وثيقة حولها، كما كان القاضي ينظر في القضية في أي مكان، في بيته، أو في بيت غيره، أو في المسجد، أو حتى بالشارع.

وكان عمه الشيخ إبراهيم بن سليمان من مشاهير العلماء في تلك البلاد، وفي هذه الأسرة العريقة وُلِدَ محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة شمالي الرياض في عام ١٧٠٣م، وكان له أخ أكبر منه هو سليمان بن عبد الوهاب، وكان والده قاضياً في بلدة العيينة آنذاك، فتعلم القرآن الكريم وحفظه قبل بلوغه عشر سنين، واجتهد في دراسة الفقه على

أبيه، وكان رغم حداثة سنه كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام، وكان متفرغاً للدراسة وتحصيل العلم، وكان سريع الكتابة صبوراً عليها، وكان أخوه سليمان وابن عمه عبد الرحمن يدرسون مثله، إلا أنه كان مُختلفاً عنهما في نضجه المبكر وتصرفه، فلم يكن يمارس ما كان يمارسه الأطفال في مثل سنه من لهو وألعاب، فشرح الله صدره لمعرفة التوحيد وتحقيقه، حتى إنَّ أباه كان يتعجب من فهمه ويقول:

- لقد استفدْتُ من ولدي محمد فوائدَ في الأحكام.

وبعد بلوغه الخُلم في سن الثانية عشرة، ارتحل محمد بن عبد الوهاب قاصداً حج بيت الله الحرام، وبعد أدائه الفريضة اتجه إلى المدينة المنورة وأقام هناك مدة شهرين، تعرف فيها على الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي، الذي سيصبح أستاذه في المستقبل، وعاد مرة أخرى إلى العيينة، فزوجه والده في هذه السن المبكرة، كما كان يؤم الناس في الصلاة ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره، وقد واصل مسيرته العلمية فدرس الفقه الحنبلي على أبيه، وأخذ يقرأ في كتب التفسير والحديث والتوحيد، حتى

رأى أن بقاءه في العيينة لا يناسب طموحه، وعلى هذا الأساس بدأ يبحث عن ضالته، وقرّر أن يستزيد من العلم والمعرفة، ويرتحل لتحصيل العلوم، فبدأ رحلته العلمية قبل أن يكمل عامه العشرين.

بدأ رحلته العلميّة بالتوجّه إلى مكة، فحج فيها للمرة الثانية، وأقام فيها مدةً قصيرةً، وحضر فيها بعض حلقات العلم، وبعدها توجّه إلى المدينة المنورة، وفيها وجد ضالته؛ إذ كانت آنذاك مليئةً بالعلماء، أمثال الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي، الذي أخذ عنه الكثير من العلم، وأحبّه الشيخ الجليل، وبذل جهداً كبيراً في تثقيفه وتعليمه، فتوثقت روابط المحبّة بينهما، ومن علماء المدينة الذين كان لهم فضلٌ كبير في تعليمه الشيخ محمد حياة السندي، وكان لهذين الشيخين أثرهما الكبير ليس في حياته العلمية فحسب بل في اتجاهه الدعوي أيضاً..

كان ابن سيف عالماً بالفقه الحنبلي والحديث، وكان مُتَمَيِّماً بالشيخ ابن تيمية، فشجّع تلميذه على قراءة كتب هذا العالم (الجليل) التي أثّرت في دعوته بشكل كبير.

أما الشيخ محمد حياة السندي فكان حُجَّةً في الحديث وعلومه، وصاحب مؤلفات مشهورة في هذا الحقل، وكان من المعارضين بشدة لفكرة التعصُّب المذهبي بين المذاهب الفقهيَّة، ومن الداعين للاجتهاد في ميدان الشريعة، وكان من أشد المحاربين للبدع والخرافات التي تؤدِّي للشرك..

أما نفقةُ ابن عبد الوهاب فكانت على الأوقاف التي كانت موقوفة لطلبة العلم بالمدينة، ولقد استفاد بها كغيره من طلبة العلم، كما كان ضيفاً على شيخه عبد الله بن إبراهيم بن سيف (النجدي) حيث كان نجدياً مثله، وكان من المُتبع عُرْفاً أن ينزل طلاب العلم على مَنْ تربطهم بهم أي صلات كالصلة الإقليمية مثلاً.

ومن المواقف التي أثرت بشدة في محمد بن عبد الوهاب تأثيراً كبيراً، وكانت سبباً مباشراً لدعوته ما شاهده عند قبر رسول الله ﷺ ففي أحد الأيام كان واقفاً عند الحجرة النبوية، فإذا به يرى أناساً يدعون ويستغيثون بقبر النبي ﷺ حينذاك فرآه الشيخ السندي فأقبل عليه، وسأله قائلاً:

- ما تقول في هؤلاء؟

قال له بحدةٍ شديدة :

- { إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَّبَرِّ ما هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ ما كانوا يَعْمَلُونَ } .

فأيقن عندها الشيخ السندي أنّ تلميذه قد بلغ مرحلة علميةً مُتقدمة.

أراد ابن عبد الوهاب أن يستزيد من العلوم، وأن يتعرف على جديدها، وعلى العلماء الراسخين في العلم في بقية البلدان الإسلامية الأخرى، فقرر أن يترك المدينة المنورة، فعاد إلى مسقط رأسه العيينة، وعكف على كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم رحمهما الله، وظل في العيينة مدة سنة واحدة، وبدأ في مرحلة إنكار البِدَع والخرافات ومظاهر الشرك، إلا أنه لم يكن قد تأهل تأهلاً مُناسباً لذلك، ولهذا قرر استكمال مسيرته العلمية، فغادر نجدًا مُتجهًا إلى البصرة قاصدًا الشام، ولكنه وجد في البصرة ما يبحث عنه، فدرس الفقه والحديث على عدد من أساتذتها، كما قرر أن يدرُس على أكابر علمائها الراسخين كالشيخ العلامة محمد المجموعي، الذي أثر في حياته تأثيرًا كبيرًا، حيث قرأ محمد بن عبد الوهاب على يديه الكثير من كتب النحو واللغة العربية حتى أتقنها، كما قرأ العديد من كتب الحديث والفقه.

وفي البصرة بدأت مرحلة جديدة في حياته، إنها مرحلة الجهر بما يؤمن ويعتقد، فالبصرة ميناء تجاري هام، تختلف عاداتها كثيرًا عن نجد (المُحافظة) آنذاك، كما أنّ البصرة كان فيها الكثير ممن ينتسبون إلى المذهب الشيعي، ولم تكن بعيدة عن المراكز الشيعية المقدسة كالنجف وكربلاء، فبدأ محمد بن عبد الوهاب ينكر ما يراه مُخالفًا للحق، ولقد رأى في البصرة أمورًا أطمّ وأعظم مما رآه سابقًا في المدينة المنورة، فقرر من توّه أن يُحدّث الناس عن خطورة البِدَع والخرافات، مُستشهدًا بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح، فتحول من طالب علم إلى داعية يستمع إليه الناس، وكانت بينه وبين خصومه مناقشات حادة ومثيرة، إلا أنّ أكثرها حدة المناقشات المتعلقة بالعقيدة.

فلم تجد دعوة الشيخ أثرًا مع أقوام أنسوا تلك البِدَع والضلالات، ومن ثم قوبِل بالكذب والوعيد، فاتهموه بأشد التهم وحرصوا عليه الناس، فثار عليه الناس بدعوة علماء السوء، ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحد، بل تعرض للضرب والسب، حتى أُخرج من البصرة قسرًا بعدما أمضى بها أربع سنوات كاملة، ولم يكتفِ أهل البصرة بما فعلوه، بل

أنزلوا بشيخه المجموعي البلاء والضيم، فأراد ابن عبد الوهاب أن يستكمل مسيرته العلمية والعملية، فقصد بلدة الزبير..

كان ابن عبد الوهاب يمشي على رجليه وحدَه دون أنيس في الطريق، يذكر الله ويستغفره طيلة الوقت، ولما بلغ نصف الطريق أدركه العطش وأشرف على الهلاك، وكاد أن يموت من شدة العطش لولا أن وافاه صاحب حمار مكاري يُقال له: أبو حميدان من أهل الزبير، فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الزبير، وبعد عناء الوصول استطاع أن يأخذ منها حاجته، واجتمع مع علمائها وتحدث معهم، وعاد مرة أخرى ليُحَدِّث الناس عن خطورة البدع والخرافات، وجالس علماءهم، إلا أنهم رفضوا دعوته وأنكروها، فناظرهم بما جاء بكتاب الله وسنة نبيه، وما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من حقيقة التوحيد، فأفحمهم وكاد بعضهم يميلون إليه، ولكن ذهب قائل منهم يقول:

- إن قلنا ما يقول فسيقول العامة: "ما بكم لم تنكروا علينا هذا الشيء من قبل؟! ولما جاء ابن عبد الوهاب صار هو على الحق، وأنتم علماء ولم تنكروا هذا الباطل"!.

فوافقوا على رأي الرجل، وأنكروا دعوته خَجلاً من العامّة.
وقد فكر جدياً في التوجه ناحية الشام لاستكمال رحلته في
طلب العلم، غير أنّ نفقته قد أوشكت على النفاد، فاضطر
إلى الرجوع إلى بلده العيينة.

وفي طريق عودته إلى العيينة أتى الأحساء، فنزل بها عند
الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي، وقرأ عنده بعض
الكتب الشرعية، وجالس علماءها وتحدث معهم كالعلامة
عبد الله بن فيروز، وذاكرهم في أشياء من أصول الدين
والعقيدة، ثم توجه إلى العيينة، ولكنه وجد والده قد تركها
لنزاع دبّ بينه وبين أميرها، وكان قد انتقل منها إلى
حريملاء، وأقام فيها مع عام ١٧٢٨م، فجاء ابن عبد
الوهاب إلى حريملاء بعد عام واحد من انتقال والده إليها،
واشتغل في علم التفسير والحديث..

بعدما جاء إلى حريملاء -حيث يقيم والده وأخوه سليمان-
اعتكف ابن عبد الوهاب في داره مدة ثمانية أشهر، ودخل
مع والده في سجالاتٍ ومناقشاتٍ كثيرة خاصة في أسلوب
الدعوة الذي كان يريد أن يسلكه، حيث رفض والده طريقته
بشدة لما بها من حدة وشدة، ومنعه من السير في طريقه،

كما دار بينهما سجال آخر خاص بمسألة تقاضي القضاة
أجورًا من الخصوم مقابل الفصل بين المتخاصمين، حيث
اعتبرها محمد بن عبد الوهاب في مقام الرشوة، وعلى
الرغم من أنّ والده لم يكن يأخذ من الخصوم أجرًا، إلا أنه
اختلف معه على المسألة في ذاتها.

كما اختلف بشدة مع أخيه سليمان بن عبد الوهاب في طريقة
الدعوة، وكان سليمان أحد علماء نجد الفضلاء، وفي عام
١٧٣١م مات والده، وما لبث أن بدأ في نشر الدعوة في
حريملاء، حيث أصبح وقتها أكبر عالم في حريملاء، ولا
يوجد من يضاهيه في مكانته العلمية، فانتشرت سمعته ولفت
له الأنظار، وبدأ رحلته في الدعوة إلى الله، فأجلى لهم حقيقة
التوحيد الخالص لله عز وجل، إذ لا يُدعى إلا الله وحده لا
شريك له، ولا يُذبح ولا يُنذر إلا لله، وأنّ عقيدتهم في تلك
القبور والأحجار والأشجار -من الاستغاثة بها وصرف
النذور إليها واعتقاد النفع والضرر منها- ضلالٌ وبهتان
وشرك أكبر، فأمن بدعوته عدد ليس بالقليل، وبدأ الناس
يفدون إليه ليستمعوا لما يقول ولما يدعو إليه، وبدأ ينال
قبولًا عند العامة في البلدان الأخرى.

كان محمد بن عبد الوهاب حادَّ الطِّباع، وكان يطلب من العلماء مُناصرته في الدعوة إلى الله، ولكن لأنَّ الخرافات والبدع ومعالم الشرك كانت قد استفحلت، خاف بعض أذعياء العلم مُناصرته، خوفاً من غضب وبتش العامَّة والجُهلاء، كما أنَّ بعض العلماء كانوا لقلَّة علم عندهم يُدافعون عن تلك البدع والخرافات، والبعض الآخر من العلماء رفضوا مناصرته حسداً وعناداً، إلا أنَّ ابن عبد الوهاب لم يعبأ بذلك، فشجعه من العلماء من شجعه، ورفض دعوته من رفضها، وخذله من خذله، ولكنه استمر بعزيمة من حديد وبصبر لا يفتر.

رأى ابن عبد الوهاب أنَّ ما عليه العامَّة بل والعلماء في عصره من المسلمين شركٌ وضلالٌ!، وبالغ بشدة في أمر التكفير المُخرج عن ملة الإسلام حتى وصل حدَّ الانحراف الشديد بدعوته، فلم يكن يرضى بما رضى به علماء نجد حيث اتخاذ سبيل الدعوة إلى الله باللين والمهادنة واتباع سبيل الموعدة الحسنة، حيث الإقتضاء بسنة النبي محمد صلي الله عليه وسلم في دعوته، فأثَّر ذلك كثيراً على دعوته.

لا ينكر ان ابن عبد الوهاب كان صاحبَ همةٍ وعزيمةٍ تدفع الجبال، وبسبب حماسته المُفرطة أصيب برودة فعل عنيفةٍ وحادّةٍ نتيجة انتشار البِدَع والخرافات في عهده، وزاد من ردة فعله تلك ما رآه من برود بعض علماء وقته في النهي عنها، بل وتجويز البعض لها، فلقد أَلِف البعض ما فيها من بدع، وأخذوها على أنها من أصول الدين وأركانها، وكان نتيجة ذلك توسعه المُبالغ فيما يخص تكفير المسلمين المرتكبين لتلك الأفعال تكفيرًا مُخرَجًا عن الملة، وبالتالي إباحة دمائهم وأموالهم وتلك كانت الفاجعة.

والمُقلق جدًّا في الأمر أنّ ابن عبد الوهاب أصبح لا يقبل بأنصاف الحلول، ولا بالاعتذارات المُقنعة له، فدفعه هذا للاستعجال في رؤية النتيجة السريعة، فاندفع للدعوة بحماس مفرط ومجازفات وإصرار، وعلى الرغم من أنه كان عالمًا من أهم علماء نجد في تلك الفترة، إلا أنه لم يكن مُدققًا في تحصيل العلوم، كما أنّ ثقافته كانت ثقافة محدودة؛ لأنه لم يتجاوز البلاد العربية في رحلته العلمية، والأشد خطرًا بكثير من ذلك كله (أنه حذر أتباعه من العلماء في عصره لسكوتهم عن الشرك) فالعلماء - كما أخبر أتباعه- قد خانوا الأمانة التي حمّلها لهم الله سبحانه وتعالى، فانطلق أتباعه لا

يلتفتون إلى غيره ولو كان صائياً، وهذا ما كان سبباً في دخوله مع أخيه سليمان بن عبد الوهاب، في خلافات شديدة ومتكررة، فلقد اعترض سليمان على طريقته في الدعوة، وكان يعترض على تكفيره السريع للمسلمين على أمور لها تأويلات وعليها خلاف بين علماء المسلمين، ونهاه عن المبالغة في تكفير المسلمين والعلماء، إلا أنه لم ينته وأصر على طريقته في الدعوة.

كان أهل حريملاء قبيلتين، أصلهما قبيلة واحدة، كل منهما يدعي لنفسه القوة والغلبة والكلمة العليا، ولم يكن لهما رئيس واحد يجمعهم تحت كلمته، وكان فيها عبيد لإحدى القبيلتين، كثر تعديهم وفسقهم، فأراد ابن عبد الوهاب أن يمنعهم من الفساد، ويقم عليهم الحدود وينفذ ما أنزله الله عز وجل في كتابه، فألب عليهم الأمراء لزرهم، فهم العبيد أن يفتكوا به، ويقتلوه سرّاً بالليل، ولما تسوّروا الجدار، علم بهم الناس فصاحوا بهم فهربوا، ومع ذلك ظلت عزمته كما هي، ولم يتأثر بذلك، بل مكث في حريملاء يدعو الناس إلى الله بطريقته، وألف فيها كتابه الشهير (التوحيد)، وكان المحور الأساسي الذي دارت حوله كتابات ابن عبد الوهاب وأتباعه في هذا الموضوع.

كان دائماً يذكر أنّ دعوته مُستمدة فقط من آراء أهل السنة والجماعة، وأنّ دعوته ما هي إلا كشف وتبصير بما جاء به السلف الصالح. وما لبث أن دخل ابن عبد الوهاب في سِجالات متكررة ليعلي فكره ورأيه، حتى اقتنع بدعوته أمير العيينة - بلده الأصلي- فدعاه للحضور إليها..

قرر ابن عبد الوهاب أن ينتقل إلى العيينة حينما أيقن أنّ بقاءه في حريملاء لم يعد يُجدي نفعاً، كما أنها مسقط رأسه ولأسرته فيها مكانة رفيعة فانتقل إليها، وقرر السير في الدعوة، فتلقاه حاكمها وقتئذٍ عثمان بن حمد بن معمر بكل إجلال وإكرام، وكان ابن عبد الوهاب يرى أنّ أحد الأسباب القوية لنجاح الدعوة، يكمن في توحيد بلاد نجد تحت قيادة واحدة، وهذا خلط لم يكن مفهوم، ولظروف البيئة التي كان يعيش فيها حيث انتشار معالم الشرك والبدع والخرافات تسرّع جداً في رؤية النتائج، حيث كان يعلم أنّ دعوته لن تنتشر في مدة قصيرة إلا بحماية أمير ذي قوة ونفوذ، لذا كان دائماً ما يعرض دعوته على الأمراء أولاً، ويعمل كل الأساليب لإقناع الأمراء بدعوته، وذلك لأنّ دعوته لم تكن دعوة سلمية محضة، بحيث يقصد منها دعوة مخالفيها إليها

بالموعظة الحسنة، وإدخال الناس فيها بالتالي هي أحسن، بل أعلنت في سبيل تأييدها جهادًا دينيًا لحمل مخالفيها على الدخول فيها، فمن آمن بها سلم، ومن خالف وعاند فقد حلّ دمه وماله، وعلى هذا الأساس كانت دعوته...!

استطاع بذكائه أن يُقنع ابن معمر بدعوته، التي استطاع أن يجعلها (بتأويله وفهمه) لا تخرج على دعائم الكتاب والسنة المُطهرة، وأنَّ غايته من هذه الدعوة تعليم الناس أصول دينهم على دعائم التوحيد، ونبذ الشرك والقضاء على مظاهره، وبشَّره بالسداد والتوفيق وزعامه (نجد) إن نصر كلمة التوحيد وأعلاها، وأغراه بذلك حيث قال له:

- "إني أرجو إن أنت قمتَ بنصر لا إله إلا الله أن يُظهرك الله وتملك نجدًا وأعرابها".

فقَبِلَ عثمان بن معمر دعوة ابن عبد الوهاب، كما قبل أن يكون أحد رجالها فيزود عنها بسلطته وماله.

في العيينة توفر الجو المناسب لمحمد بن عبد الوهاب لما كان له من سمعة وتأهيل، وأصبحت مهمته للدعوة أسهل من ذي قبل، وأصبح في موقف يُمكنه مما يدعو إليه.

بدأت حركة ابن عبد الوهاب الدعوية في العيينة من الليلة الأولى، عندما كان جالساً فوق سطح بيته يدبر أمره ويرتب أفكاره وكيف سيبدأ، وكان هناك رجل قد ضاع منه بغيره، وكان يستغيث بزيد بن الخطاب، فسأله ابن عبد الوهاب أن يستغيث برب زيد، فانتشرت القصة بين السكان، واستغل تلك الحادثة، وبدأ في نشر دعوته لمن لم تكن قد وصلتته بعد، فازداد عدد المنضمين إلى الدعوة في العيينة والبلدان التي حولها.

في تلك الأثناء وفي وقت إقامته بالعيينة تزوج من الجوهرة بنت عبد الله بن معمر، كما عمل على الاستعانة بعثمان بن معمر في نشر دعوته، الذي أعانه في هذا الجانب، وبدأ محمد بن عبد الوهاب في أخذ مجموعة من الإجراءات (العملية الخطيرة) في سبيل نشر الدعوة، فقطع الأشجار التي عظمها الناس، وما لبث أن هدم قبة زيد بن الخطاب وقد كانت مقصداً للعامة يستشفعون بها، ويلجؤون إليها، **فقال لعثمان بن معمر:**

- "دعنا نهدم هذه القبة التي وُضعت على الباطل، وضل بها الناس عن الهدى".

فقال ابن معمر:

- "دونك فاهدمها".

فقال له:

- "أخاف من أهل الجبيلة أن يوقعوا بنا، ولا أستطيع أن أهدمها إلا وأنت معي".

و(الجبيلة) قرية كانت بجوار قبة زيد بن الخطاب رضي الله عنه وكان أهلها يعظمونها أكبر التعظيم، وكانوا كُنُزًا، فخاف الشيخ ابن عبد الوهاب من بطشهم به.. فساعده عثمان بنحو ستمائة رجل، ولما قربوا منها ظهر عليهم أهل الجبيلة يريدون أن يمنعوهم، فلما رآهم عثمان علم ما هموا به، فتأهب لحربهم، وأمر جموعه أن تتأهب للحرب، فلما رأوا ذلك كفوا عنه، فهدمها ابن عبد الوهاب بيده حتى ساواها.. كما قطع شجرة قريوة، وأبو دجانة، والذيب، وذلك بمساعدة عثمان بن معمر، وكلها أشجار كان العامّة والجهلاء يتبركون بها، ويتقربون إليها، وأمر عثمان بن معمر بإحياء الصلوات مع الجماعة، وعُينت عقوبات للمتخلفين، وكان الأمراء يأخذون أنواعًا من الضرائب والرسوم، فرفعها ونفذ الزكاة، وفي العيينة بدأ يؤلف رسائل الدعوة المُتسلسلة





التي استمرت إلى وفاته، كما استمر في دعوة العلماء إلى الدخول في دعوته، والدخول في هذا الميدان لإزالة معالم الشرك والبدع التي انتشرت في بلادهم، وبدأ بنجد، فكاتب أمراءها وعلماءها على السواء، فكاتب أهل الرياض وأميرها دهام بن دواس، وكاتب علماء الخرج وعسير ومنفوحة، وعلماء بلاد الجنوب والقصيم وحائل والوشم وسدير والأحساء والحرمين الشريفين وغيرهم، فكان منهم من يؤيدها ومنهم من يعترض عليها..

والملاحظ في الأمر والشيء اللافت للغاية أنّ الكثير من العلماء في نجد قبل دعوة محمد بن عبد الوهاب ووافق عليها في خطوطها العريضة؛ من نذب البدع والشرك والخرافات واعترفوا بذلك، وأرسلوا له رسائل دعم وتأييد، ولكن ما إن تعرفوا على تفاصيلها رفضوها بشدة، وكان ذلك حال الكثير من علماء نجد، كالشيخ عبد الله بن عيسى، قاضي الدرعية، والشيخ عبد الله المويس، قاضي حرمة، والشيخ سليمان بن سحيم، قاضي الرياض، فلقد أيده أولاً، ثم ما إن تعرفوا على تفاصيل دعوته وما بها من تكفير وقتل وسفك دماء حتي رفضوها، واختلفوا معه ووقفوا ضده، وحاربوا دعوته بكل قوة، وكان لهم نشاط كبير داخل نجد

وخارجها لإيقاف مَدِّها والقضاء عليها، وحاربوه بشتى الوسائل، حتى إنه قال:

- "صَدَّقْتِي مَنْ يَدْعِي مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادَانِ فِي التَّوْحِيدِ وَفِي نَفْيِ الشِّرْكِ، وَرُدُّوْا عَلَيَّ التَّكْفِيرَ وَالْقِتَالَ!"

وما يؤكد منهجه (الذي بالغ في الانحراف) أنه ما إن أعلن هؤلاء العلماء رفضهم لدعوته حتى كَفَّرَهُمْ فِي رِسَائِلِهِ كُفْرًا مُخْرَجًا مِنَ الْمِلَّةِ، بَلِ اسْتَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَمَالَهُمْ، فِي رِسَالَةٍ لَهُ قَالَ فِيهَا:

- "أَقْطَعُ أَنْ كُفِّرَ مَنْ عَبْدِ قَبَةَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَا يَبْلُغُ عَشْرَ الْمَوْبِيسِ وَأَمْثَالِهِ".

يقصد بذلك الشيخ عبدالله المويس قاضي حرمة وغيره من قضاة نجد!.

كان محمد بن عبد الوهاب يحاول أن يُقيم الحجج على دعواه، ويذكر لخصومه ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه (حسب فهمه الناقص) فيُظهِرُ لَهُمْ مَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْبِدْعِ وَالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ وَالْأَكْبَرِ، وَيَجِيزُ قِتْلَ وَسْفِكِ دِمَاءِ مَنْ يَنْكُرُ دَعْوَتَهُ!.

ولقد كان في كل تلك الأقطار علماء أجلاء، وكان منهم من جاهد قبل ابن عبد الوهاب، إلا أنهم لم يُكْتَبْ لدعوتهم الانتشار كابن عبد الوهاب، وذلك لأنَّ دعوتهم لم تجد من يناصرها، ولكن ذكاء ابن عبد الوهاب جعله لم يكتفِ بالحجة والبرهان لنشر دعوته، ولكنه استعان بقوة السلطة والسيف، وهما ما كانا سببًا في نشرها، وأخذ ابن عبد الوهاب يُراسل العلماء جميعًا، وكان لتلك المراسلات الفضل الكبير في أن يصبح له أنصار في الكثير من تلك الأقطار، فكان يُرشدُهم ويُوَجِّههم من العيينة، كما كان لبعض رسائله (أيضًا) الأثر الشديد في عداة البعض الآخر له ولدعوته، فلقد جاء مما أرسله لأحدهم أثناء إقامته بالعيينة:

- من زعم من علماء العارض (العارض هي منطقة الرياض وما حولها كالدرعية والعيينة ومنفوحة وضرما) أنه قد عرف معنى لا إله إلا الله، أو عرف معنى الإسلام، قبل هذا الوقت -يعني ظهور دعوته- أو زعم عن مشائخه أنَّ أحدًا عرف ذلك فقد كذب وافتري...!

بل تمادى في ذلك حتى بلغ مداه، وقال:

- "إنَّ مشائخه أنفسهم ما منهم رجل عرف ذلك...!"

وفي رسالته إلى قاضي الدرعية جاء فيها:

- "أنتم ومشائخكم ومشائخهم لم يفهموا دين الإسلام، ولم

يميزوا بين دين محمد ﷺ ودين عمرو بن لحي...!"

(وعمر بن لحي هذا هو أول من أدخل عبادة الأصنام في الجزيرة العربية).

ولا شك أنَّ رسائل كهذه كان لها أثر سلبي في نفوس من تُرسل إليه أو من يعلم بها، وتزامن ذلك مع انتشار خبر قطع الأشجار المعظمة، وهدم قبة قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه وقطع ما كان فيها من الأشجار (المقدسة) حتى أتت له امرأة واعترفت عنده بالزنا، وبات عنده أنها مُحصنة، وتكرَّر منها الإقرار، واستخبر عن عقلها فإذا هي صحيحة العقل، واعترفت بما يوجب الرجم، فأمر بها فرجمت بأمره كونه قاضي العيينة حينئذٍ.

لم يكن لتلك الأحداث (الغاية في الخطورة) أن تمرَّ بلا

رافض أو مُناهض، فلقد عمل علماء نجد بكل قوة على إيقافها، وأرسل سليمان بن سحيم لكل العلماء خارج نجد بعدما يئسوا من مجابته في نجد، بل إن ابن سحيم خاطب بعض الزعماء السياسيين، وشجعهم على التصدي لدعوة ابن عبد الوهاب، وكان على رأس الرافضين لها سليمان بن محمد بن عريعر الحميدي -حاكم الإحساء وبني خالد- الذي أيدته فريق كبير من رؤساء القبائل، فلقد شعر سليمان بزيادة أعداد أتباع ابن عبد الوهاب، وأنه بات يهدد موازين القوة فيها، وبالتالي سيؤثر على النفوذ الخالدي في المنطقة مستقبلاً، فلقد قيل له:

"إنَّ في بلدة العيينة عالمًا فعل كذا وكذا، ويقول كذا وكذا..".
فانطلقوا يُقاومون الدعوة وصاحبها، وما لبث سليمان الحميدي أن بعث إلى عثمان بن معمر كتابًا على عجل جاء فيه :

"إنَّ المطوع الذي عندك، قد فعل ما فعل وقال ما قال، فإذا واصلك كتابي فاقتله، فإن لم تقتله، قطعنا حَرَاجَكَ الذي عندنا في الإحساء".

وكانت العلاقة السياسية بين زعماء بني خالد وآل معمر قوية للغاية، وكان سليمان بن محمد يدفع معونة مالية إلى عثمان ابن معمر، فكان على عثمان بن معمر أن يختار بين دعوة محمد بن عبد الوهاب وما تعاهدا عليه، وبين الخراج الذي يُقدَّر بألف ومائتي دينار ذهبية، ولم يفكر ابن معمر ملياً فاختار الخراج مُضَحِّياً بالدعوة وقائدها، بل وأرسل إليه يخبره بكتاب سليمان، قائلاً: "لا طاقة لنا بحرب سليمان".

فحاول محمد بن عبد الوهاب جاهداً أن يُثني ابن معمر عن قراره هذا قائلاً له:

- "إنَّ هذا الذي أنا قمتُ به ودعوتُ إليه كلمة لا إله إلا الله، وأركان الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أنت تمسكتَ به ونصرته فإنَّ الله سبحانه وتعالى يُظهرك على أعدائك، فلا يزعجك سليمان ولا يفزعك".

فأعرض عنه عثمان، وأرسل إليه مرة ثانية يخبره قائلاً:

- "سليمان قد أمرنا بقتلك، ولا نستطيع مخالفته، ولا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلدنا، فشانك ونفسك، وخرِّ بلادنا".

من أجل ذلك أُخرج محمد بن عبد الوهاب من العيينة، ولم يزد هذا الأذى إلا صبرًا وعزيمة ومُضياً في أمره، وترك العيينة وهو يُرَدِّد قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.

وحينما بات عليه الخروج من العيينة، كانت الدرعية أنسب مكان له، وهذا الإختيار يظهر نكاء ابن عبد الوهاب، فلقد كانت الدرعية (وقتها) إمارة قوية، وأصبحت قوتها آخذة في ازدياد، والأهم من ذلك أنَّ علاقة أمراء الدرعية ببني خالد سيئة، وكثيراً ما دارت بينهم الصراعات، وطالما أنَّ زعماء بني خالد هم السبب في خروجه من العيينة، إذن سيكون مُشترِكًا مع أمراء الدرعية في خصمٍ واحد.

خرج ابن عبد الوهاب من العيينة قاصداً الدرعية، خرج في أول الصباح، ماشياً على رجليه، ولم يكن معه إلا مروحة من خوص في حر الصحراء المُلهب، فوصل الدرعية في آخر النهار، حيث كان له فيها أتباع وأنصار كباقي الأقطار، وكانت الدرعية وقتها تحت حكم الأمير محمد بن سعود، فنزل ضيفاً على عبد الله بن سويلم، وابن عمه أحمد بن

سويلم، وكانا من تلامذة الشيخ أثناء مقامه في الغيبة، فخاف ابن سويلم على نفسه من الأمير محمد بن سعود، لاعتقاده أنّ الأمير قد يؤذيه، ولكن الشيخ ابن عبد الوهاب بدأ يُطمئنه ويحثه على ضرورة الوثوق بالله عز وجل قائلاً :
- "سيجعل الله لنا ولك فرجًا ومخرجًا".

بدأ اسمه يتردد في الدرعية، وبدأ في نشر دعوته على هوادهٍ ومهملٍ في الكتمان حتى لا ينكشف أمره، وبدأ يتقابل مع تلامذته والمؤمنين بدعوته سرًا، وبدأ يتسلل له عددٌ من الدرعية، وكان للأمير محمد بن سعود أخوان هما ثنيان ومشاري، وزوجة هي موسى بنت أبي وهطان، وكانت سالحة ومتدينة، علموا جميعًا بأمر محمد بن عبدالوهاب فترددوا عليه، واقتنعوا جميعًا بما كان يدعو إليه، حتى طلبت زوجته منه أن يذهب إليه بنفسه، وقالت له:
- "إنّ هذا الرجل داعية، يدعو إلى دين الله وسنة نبيه ﷺ، وأنه غنيمة ساقه الله إليك، فاغتنم ما خصّك الله به".

كما رغبه أخواه في زيارة الشيخ، ولكنه تردّد كثيرًا في ذلك.

كان ابن عبد الوهاب في تلك الفترة له أتباع وأنصار كثير في كل أقطار نجد، وكان ابن سعود يعلم ذلك جيداً، فأراد ابن سعود أن يستفيد من تلك الأعداد الغفيرة، وفكّر ملياً حتى قرر أن يقف بجوار دعوة ابن عبد الوهاب في مقابل توسيع دائرة حكمه له ولأبنائه من بعده.

فما زال ثنيان ومشاري وموضى بنت أبي وهطان يحاولون جميعاً إقناع ابن سعود بالوقوف بجانب دعوة ابن عبد الوهاب حتى اقتنع برأيهم، وأراد أن يُرسل إليه فقالوا له:

- "سر إليه برجلك في مكانه، وأظهر تعظيمه والاحتفال به، لعل الناس أن يُكرّموه ويعظموه".

فقام من فوره مُسرِعاً إليه، وذهب معه أخواه ثنيان ومشاري، فأتاه في بيت أحمد بن سويلم، فسلم عليه، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، كما أخبره ابن سعود أنه يمنع به بما يمنع به نساءه وأولاده، وقال له:

- "أبشر ببلاد خير من بلادك، وأبشر بالعزة والمنعة".

رأى ابن عبد الوهاب في ذلك فرصة سانحة لإغراء ابن سعود، فرد عليه بذكاء قائلاً:

- "وأنا أبشرك بالعزة والتمكين، وهذه كلمة "لا إله إلا الله" من تمسك بها وعمل بها ونصرها، ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وأنت ترى نجدًا وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة، وقتال بعضهم بعضًا، فأرجو أن تكون إمامًا يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك".

وما لبث أن أخبره بدعوته، فاقتنع الأمير محمد بن سعود بما دعاه إليه الشيخ ابن عبد الوهاب، لكن الأمير اشترط قبل المبايعة شرطين:

أولهما: ألا يرجع الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنه إن نصرهم الله ومكنهم.

وثانيهما: ألا يمنع الأمير من الخراج الذي ضربه على أهل الدرعية وقت الثمار.

فرد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رده الشهير قائلاً:

- "أما الأولى: الدم بالدم، والهدم بالهدم، ولن أخرج عن بلدك أبدًا، وأما الثانية: فلعل الله يفتح عليك الفتوحات، فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها".

بايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الشريعة بين الناس، وتم عقد ميثاق الدرعية (الشهير) المُبرم بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي أُسِّسَتْ بناءً عليه الدولة السعودية، ولُقِّبَ بعده الأمير محمد بن سعود بالإمام، واتخذ من إمارة الدرعية عاصمةً له..



- كانت دعوة ابن عبد الوهاب دعوة دينية محضة،
وبالتالي تسقط عنها كونها دعوة إصلاحية شاملة -
كما يصفها البعض- لأنَّ الإصلاح يوصف
إصلاحًا طبقًا لحاجة العصر، ولم يكن الإصلاح
المطلوب للمسلمين في هذا القرن دينيًا فقط، بل
كان المطلوب إصلاحًا سياسيًا واجتماعيًا وعلميًا
وثقافيًا، ليصل المسلمون إلى ما وصلت إليه أوروبا
في هذا القرن، نعم... كان المطلوب فعلاً أن يصل
المسلمون إلى ما وصلت إليه أوروبا في نهضتها،
ولم يكن هدم القباب ومنع التوسل بالأنبياء والأولياء
وابتغاف البدع والخرافات وحده هو ما سيصل
بالمسلمين إلى النهضة المطلوبة، خاصة أنَّ تلك
التصرفات لم تختفِ عن أي حقبة في التاريخ
الإسلامي، إلا في القرون الثلاثة الأولى، والشيء

الوحيد الذي تختلف عنه تلك الممارسات في هذه
الفترة أنها كانت برعاية الدولة العثمانية - خلفاء
المسلمين- فشجعت الناس عليها وتبنتها لانحلال
الدولة العثمانية (العقدي)، الذي وصل منتهاه في
تلك الفترة، كما لم يكن الإصلاح قاصراً على إطالة
اللى وتقصير الثياب، وتحريم شرب الدخان
والتصوير، فالإصلاح المطلوب أكبر من ذلك
بكثير...

وهنا توقف أحمد مالك عن الحديث، فلقد طلب ابنه
الدكتور علي أستاذ الفلسفة بجامعة أسيوط الكلمة، وكان
حاضراً في تلك الأمسية هو وأحد زملائه من الجامعة، وهو
الدكتور سلامة عطية أستاذ مساعد الفلسفة في جامعة
أسيوط، والذي أبدى إعجابه بما جاء بكتاب أجدادي والدول

وقرر حضور أمسية الأستاذ أحمد مالك وتهنئته بنفسه علي صدور الكتاب.. فلقد بات الدكتور علي فخورًا بما أحدثه كتاب والده أجدادي والدول كأخيه المستشار مالك، لذا كثيرًا ما كانا يحضرا تلك الأمسيات بصحبة زملاءهم وأصدقاءهم، فأذن له الأستاذ أحمد مالك فعلق قائلاً:

- يؤخذ على ابن عبد الوهاب في دعوته يا سيادة الفيلسوف -التي أتردد كثيرًا في أن أصفها دعوة إصلاحية كالدعوات الإصلاحية التي أفهمها على الأقل- إغفاله الشديد للفلسفة، ذلك أنّ طابع الدعوة الوهابية هذا في حقيقته حذو دعوة الإمام أحمد بن حنبل، والتي كان لها ظروفها الخاصة، فدعوة الإمام أحمد بن حنبل ظهرت في الوقت الذي ترجمت فيه الفلسفة اليونانية - وهي فلسفة لا دينية، العقل فيها متحرر من النقل- ومع وجود تلك الترجمات أضفت على

الفكر اليوناني عند شريحة من فلاسفة المسلمين هالة قاربت
القداسة، حتي أنهم قدموا أرسطو ليس كالمعلم الأول -
حسب لقبه الشائع- بل المعلم الأول للإنسانية وليس فقط
اليونان، فأزعج لاشك هذا الفكر قادة علماء الإسلام آنذاك،
فولد رد الفعل الذي تمثل في تبلور (السلفية) كفرقة وتيار
فكري اعتصم بالنصوص الدينية ولا شيء غير النصوص،
حيث كان لابد من العودة إلي إسلام السلف، الإسلام الذي
أصبح غريباً في مناخ فكري تقلسف وقدم العقل وبراهينه
على النصوص والمأثورات، وأعمل الرأي والقياس والتأويل
في هذه النصوص وتلك المأثورات، فكان هذا العداء
الشديد من جانب الإمام أحمد بن حنبل - والذي يعتبر
رأس أعلام مؤسسي تلك الحركة السلفية وإمامها الأول
والأبرز- لأنصار فلاسفة علم الكلام، وتاريخه المعروف
في ذلك ومحنته المشهورة في مسألة خلق القرآن، فكان

تقديمه للنص - ولو كان ضعيفًا - على الرأي والعقل والقياس والتأويل وغيرها من سُبُل وآليات النظر العقلي، ووقوفه عند الرواية أكثر من الدراية، واشتغاله بالنص فقط دون غيره، ولا شك أن البيئة التي نشأ فيها ابن عبد الوهاب شجعتَه لسلوك نفس المسلك، فمحاربة البدع والخرافات والشركيات وإجلاء العقيدة الصحيحة كان شغله الشاغل دون غيرها من الأمور، ومع ذلك فإن إغفال الفلسفة في الدعوة الوهابية لهو أمر له أشد الضرر، فلقد كان للفلسفة - في هذا العصر - الدور الأكبر للنهضة في بلاد أوروبا، كما كان لها تأثير خطير جدًا في كل مناحي الحياة، لذا إغفال ابن عبد الوهاب للفلسفة شيء يحسب ضده، وأمر غير مقبول على الإطلاق.

- شكرًا يا دكتور علي.. ولكن في الحقيقة أن ابن

عبد الوهاب كان يمثل رجوعًا للخلف في الدعوة السلفية، نعم هو رجوع للوراء ولا شك في ذلك، صحيح أن هذا الرجوع كان بسبب الإنهيار العقائدي الخطير الذي حل بالدولة العثمانية، والذي وصل إلى مداه حقيقة - كما أشرنا - جعله يعود بالفكر السلفي إلى الوراء، إلى ما أسماه عصر مؤسس هذا الفكر، الإمام العلامة أحمد بن حنبل، وأهمل دون (علم حقيقي) الفترة الذهبية للفكر السلفي، وعليه كان على ابن عبد الوهاب أن يطور هذا الفكر، لا أن يعود به إلى الوراء.

هنا وقف أحد الحضور مُتسائلاً:

- ممكن توضح يا أستاذنا كيف عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالفكر السلفي إلى الوراء؟!.
- في الواقع أن أي دعوة في العالم وأي فكر إنساني له

مراحل تطور يمر بها ولا شك، وهذه ظاهرة طبيعية في تاريخ الأفكار، فالتطور سمة إنسانية في كل العصور، وهو تطور طبيعي بحكم تغير الدوافع والمقاصد والوقائع والملابسات، ولاشك أن الحركة السلفية مرت بهذا التطور كغيرها، ولقد حدث تطور كبير (كفي و نوعي) علي يد أشهر اعلامها أبو الوفاء بن عقيل، ومن أعتبره (فيلسوف الدعوة السلفية) الشيخ العبقري شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والعلامة ابن القيم الجوزية، فبعد أن كان الفقه في السلفية النصوصية هو فقه النصوص فقط، نجد تأكيد ابن القيم على فقه الواقع، الذي هو الطريق إلى فقه الواجب، ولما كان الواقع متغيرًا ومتطورًا أكد ابن القيم على تغير الفتاوي والأحكام واختلافها تبعًا للأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد، وبهذا تحرر العقل المسلم من أحكام

السلف وفتاويهم، وانفتحت أمامه الأفاق لأحكامٍ جديدة
وفتاوي جديدة للواقع الجديد حتى لو خالفت ما قرره السلف
من أحكامٍ وفتاوي، وبهذا لم يعد ثبات النصوص قيدًا على
تطور الفتاوي وتغير الأحكام، فالمفتي من يتوصل لمعرفة
الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله.

ووقف برهة يوميء برأسه إعجابا بقول علماء الأمة
وحزنًا في الوقت ذاته على واقعنا المعاصر قائلاً:

- أحزن بشدة على من يوجه الإتهامات لمثل هؤلاء
العلماء الذين أناروا الدنيا بعلمهم وأفكارهم المستنيرة،
أما فيلسوف السلفية وأبرز مجددتها شيخ الإسلام
ابن تيمية فيقول انتصارًا للعقل والعقلانية: " إن ما
عرف بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه منقول

صحيح قط" .. كما تحدث عن قدرة العقل علي
التحسين والتقييح أي إدراك الحسن والقبح في
الأشياء، حيث قال: " إن جنس الناس يميل إلى
من يتصف بالصفات الجميلة، وينفر عن يتصف
بالقبايح، وإن العقل يحب الحق ويلتذ به، ويجب
الجميل ويلتذ به، وإن للإنسان قوتين: قوة علمية
فهي تحب الحق، وقوة عملية فهي تحب الجميل،
والجميل هو الحسن والتقييح ضده.. وهل أعظم
تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا ؟.. فكيف
يقال أن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن
والتقييح" .. كما أنه اعتبر القياس هو ميزان العدل ،
وفي ذلك قال: " القياس الصحيح هو من العدل
الذي أنزله الله، ولايجوز قط أن يختلف الكتاب

والميزان، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح، ومتمى تعارض في ظن الظان الكتاب والميزان فبأحد أمرين، إما فساد دلالة ما احتج به من النص، أو فساد دلالة ما احتج به من القياس"، وبهذا اعتمد ابن تيمية القياس الصحيح بعد أن نفرت السلفية الأولى، وأمور أخرى كثيرة يطول عنها الحديث، ولكن الخلاصة أننا أصبحنا أمام سلفية جديدة ومتطورة باتت السلفية على يد اعلامها الجدد (العظام) فعلاً وليس رد فعل ، واستوعبت الكثير من عقلانية الإسلام وأبدعت في فقه الواقع وفي السياسة الشرعية، ورفضت التكفير فيمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كما تبنت واعتمدت الكثير من آليات النظر العقلي في فقه

النصوص، والإجتهد فيما لا نص فيه، من الرأى
والقياس والتأويل الصحيح، وبذلك أصبحنا أمام
سلفية جديدة توازى فيها العقل والنقل، وتلك حقيقة
كبيرة يغفل عنها الكثيرون من المنتسبين للسلفية
ومن خصوم هذا التيار، أما الشيخ محمد بن
عبد الوهاب فبسبب فقره الفكري والفلسفى، وبسبب
بداوة البيئة التي نشأ فيها، عمل إلى رد الفعل
السلفى إلى الوراء وكان أقرب من سلفية الإمام
أحمد بن حنبل منه إلى السلفية العقلانية التي كانت
عند شيخ الإسلام وابن القيم وابن عقيل، وهذا -
كما أشرنا من قبل- بسبب ما رآه من ألوان البدع
وانتشار الخرافات، حيث حقق في إسلام العامة
فتأكدت لديه حقيقة أن الإسلام الأول، أو إسلام

السلف أصبح غريبًا، ووجد نفسه في نفس موقف
إمام السلفيين القدماء الإمام أحمد ابن حنبل، عندما
دعا الناس إلى إسلام ما قبل الفتوحات، ذلك
الإسلام الذي يكفي الإنسان منه النصوص، دونما
حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية، وما
أثمرت من قياس ورأي وتأويل .

عاد الدكتور علي مُعلّمًا من جديد قائلًا:

- جميل يا سيادة الفيلسوف والله، بارك الله فيك، وفي
الحقيقة أنا أري أنه لا يصح لدعوة (تزعّم) أنها
إصلاحية أن تنكر الفلسفة وفائدتها أو أن تتجاهلها،
وهذا ما يؤكد أنّ محمد بن عبد الوهاب كان مُقلّدًا،
إلا أنه ظهر وكأنه مُجتهد لظروف البيئّة التي كان

يعيش فيها، كما أنّ ما ساعد بشدة في انتشار دعوة
الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنها خرجت في بيئة
أقرب إلى البداوة منها إلى الحضرية والمدنية، هي
ليست بدوية محضة، ولكنها أقرب إلى البداوة، ولو
أنها ظهرت في بيئة حضرية خالصة لكان سيحكم
عليها بالفشل منذ الوهلة الأولى، فالبادية لديها
الاستعداد الأكبر لقبول تلك الدعوة التي اعتمد في
نشرها بشكل كبير على الغزو والقتل، وتلك أمور
لها جذورها المتأصلة في الحياة البدوية.. أما
الحضر فيرفض بشدة تلك الممارسات.

هنا تسائل أحد الضيوف الذي بات في حيرة قائلاً:

- يعنى يا دكتور علي هل دعوة ابن عبد الوهاب كانت دعوة تجديدية أم لا؟!..

- بالطبع كانت دعوة تجديدية ولا خلاف على ذلك...! قد نختلف على كونها إصلاحية، إلا أننا لا نختلف على أنها تجديدية في مسائل الدين بسبب الظروف التي ظهرت فيها، فلقد أعاد الكثير من الناس في الجزيرة العربية لصحيح عقيدة الإسلام في الحقيقة، وأزال معالم البدع والشركيات التي شابت عقيدة الإسلام الصحيحة في وقت كان البعض من العلماء والعامّة ينظرون إلى الكثير من الأمور الشركية كونها من صحيح الدين، ومع كل هذا أقولها ولا أتردد مثقال ذرة ، ظهور الشيخ محمد ابن عبدالوهاب في تلك الفترة أهم بكثير من عدم ظهوره، فلولا ما كانت جزيرة العرب باتت هكذا، فوجوده ووجود أنصاره هم السبب

الرئيسى فى القضاء على بدع وشركيات وخرافات كانت مع الوقت ستنتهى حتمًا على صحيح التوحيد فى جزيرة العرب، ولكن ما يؤخذ عليه تشدده البالغ فى التجديد...

- جيد يا دكتور علي، ولكنى أختلف معك فى أمر مازلنا نختلف عليه مرارًا وتكرارًا، وقلت لك من قبل ومازلت أقولها، العنف مرفوض قطعًا، فالأرواح التى زهقت فى سبيل تلك الدعوة من سيحاسب عليها؟!.. وهل الدعوة الوهابية بريئة من تلك الأرواح؟.. لا أعتقد هذا أبدًا... ومن ناحية أخرى وهذا هو يقيني الشديد أن تلك الممارسات (مهما عظمت) لا يمكن أن تقضى على صحيح التوحيد، فالأمة الإسلامية بخير، وتلك أمور يرفضها القلب والعقل الفطن، حتى وإن كانت تلك البدعيات والشركيات تلاقي هوا الغالبية العظمى من الناس، فلا يجب علينا أن ننسى حقيقة

أن الإسلام (الأصل فيه) أنه غريب وسيعود غريب، ومن
سيحافظ على عقيدته السليمة أمام تلك الهجمات هم نور
الأمّة ومصابيحها التي لا ولن تنطفئ أبداً!..!

- أنا أوّمن بهذا أستاذي الفيلسوف، ولكن هل معنى ذلك
أن نترك الأمور هكذا، نحن مأمورون بالأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر، وتلك الخيرية التي وصفها بنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم أخذناها لأمرنا بالمعروف والنهي
عن المنكر!..!

- هذا حق ولا أحد ينكره، ولكن قال تعالى "ادع إلى سبيل
ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن
إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"
صدق الله العظيم، وتلك هي سنة النبي محمد صلى الله

عليه وسلم في دعوته وما أمر به من عند الله تعالى، وتلك
الطريقة المُعتمدة لدينا في الدعوة في ديننا، لا أن نبيح
إزهاق الأرواح والقتل بحجة الحفاظ علي دين الله من
التشويه، هذا غير مقبول بل ومخالف شرعاً.. هذا مع
تحفظي أنه من الواجب الآن تنقية هذا الفكر والعدول عن
الكثير مما جاء به، وهذا لن يتم إلا بدعوةٍ عاقلة وفطنة،
مع البعد عن التعصب الأعمى، والوقوف من جميع
المذاهب والدعوات والأفكار على مسافةٍ واحدة، بأن يتم
عمل دعوة يقودها قادة حريصين على الدين حقيقة لتجديد
الخطاب الديني، الذي بات ضرورة لا غنى عنها.. ومع
ذلك... ما المقصود يا دكتور علي بتشدد ابن عبد الوهاب
البالغ في التجديد الذي أشرت إليه في كلامك الآن!؟.

هم الدكتور علي أن يجيب، ولكن الأستاذ أحمد مالك أشار
له قائلاً:

- هذا سؤال تقريبي يا دكتورنا العظيم، أنا أريد أن أوضح
وجهة نظري المخالفة لرأيكم، فتشدد ابن عبد الوهاب البالغ
الخطورة في التجديد، هو أنه لم يقبل أي جديد فرضته
الظروف الاجتماعية وتطور العصر وتطور الإنسان نفسه،
ولو حاول أن يجتهد ويُعمل مصادر التشريع على تلك
المُستحدثات؛ بحيث يجعلها تتماشى مع صحيح الدين لكان
أفضل بكثير من سياسة الرفض التي انتهجها في منهجه
الدعوي..

ثم وقف الدكتور سلامة، صديق الدكتور علي ، وعلق

قائلاً:

- حقًا .. نحن لا ننكر أن محمد بن عبد الوهاب كان حريصًا جدًا على الدعوة، وكان يخشى التحريف، ولهذا شدد في التجديد ورفض كل ما هو مُستحدث وجديد، فطبق قواعد الدين الإسلامي وأحكامه التي جاء بها النبي محمد ﷺ في المجتمع المكي وفي القرن الأول من الهجرة، وطبقه على أناس يعيشون في القرن الثاني عشر الهجري، دون مراعاة لأي ظروف أو مُستجدات أو حتى اختلاف طبائع الناس أنفسهم، وتلك هي المشكلة الكبرى في دعوته التجديدية..

علق الأستاذ أحمد مالك قائلاً:

- محمد بن عبد الوهاب سلك (من وجهة نظري) الطريق

الأسهل والأسرع، فبدلاً من أن يتبنى طريق الإصلاح، لجأ إلى العنف، وأدار ظهره لسنة التدرج في الإصلاح، وتلك هي آفة أصحاب الدعوات، آفة عدم الأخذ بالتدرج، وبدلاً من مشاق التربية والتوعية وتهيئة المجتمعات الإسلامية بإعادة صياغة إنسانها صياغة إسلامية وسطية، وهو الطريق الشاق والطويل - لكنه المضمون في الحقيقة- الذي يمثل حقيقة منهاج الإسلام في التغيير، لجأ ابن عبد الوهاب إلى الطريق الأسهل بالقفز على السلطة والدولة، وتبني خطاب الرفض والغضب والعنف والاحتجاج، فأصبح مذهبه هو مذهب العنف والسيف والذبح لكل المخالفين له..

علق الدكتور سلامة على كلام الأستاذ أحمد مالك مؤكداً على كلامه ومرجحه فقال:

- حقًا، إنَّ مثل هذه المذاهب تنهش الذات الإسلاميَّة، بل وتعمل على زعزعة استقرار المُجتمعات الإسلاميَّة الأمانة، وذلك بتهديد حُكام البلاد المُستقرة في حكمهم، فتخدم بذلك -دون قصد- مخططات أعداء هؤلاء الحُكام وتلك البلاد.

- وفي الحقيقة

قاطع عبود كلام الأستاذ أحمد مالك وأشار طالبًا الاستفسار عن أمر ما لا يفهمه رافعًا يده، فسمح له بالكلام وهو يداعبه قائلاً:

- على الرغم من أنك تعطل الأمسية، إلا أنَّ مداخلتك كثيرًا ما تفيد.. ولكن أعتقد هذه المرة لن تُفيد في شيء، فنحن نتحدث عن الفلسفة ودورها وأمور أكبر من استيعابك، حتى وإن أظهرت أنك تستوعبها، ومع ذلك... نعم يا عبود أفندي...! تفضل!... عايز تسأل عن إيه...!؟!

ضحك عبود ولم يكذب يتوقف عن الضحك؛ لأنه بالفعل لم يكن يفهم ما يعنيه هذا النقاش الأخير، واعترف بذلك حين قال:

- هههه، أنا (وهد ربنا) ما فاهم ولا كلمة من الكلام اللي متقولوه ده.. بس أنا كنت عايز أسأل على حاجة تانية مهمة...!

ضحك الأستاذ أحمد مالك وكل الحضور من كلام عبود، خاصة تلك الجملة المتكررة التي يستخدمها في أي نقاش وبشكل عفوي يثير الضحك (وهد ربنا) - يقصد بها وعهد الله- وداعب أحمد مالك الحضور فقال:

- أجمل حاجة في عبود أنه مش بيتكسف أنه يقول ميعرفش، الأمر بالنسبة له عادي جدًّا، وهو معذور طبعًا، وفي الحقيقة ده مش عيب إطلاقًا، العيب اللي ميكونش

فاهم ويعمل نفسه فاهم، على العموم نستأذنكم ونشوف
عبود (أفندي) عايز يسأل عن إيه...؟!!

- بصراحة كده يا عم الحج أنا أول مرة في حياتي أعرف
انه فيه شيخ اسمه محمد بن عبد الوهاب، وانه عامل القلق
ده كله.. وهد ربنا.. شوف يا عم الحج... وهد ربنا.. أنا
كنت فاكِر الجماعة وهما بيتكلموا من شويه وبيقولوا النهاردة
حنتكلم عن محمد بن عبد الوهاب، كنت فاكِرهم ميتكلموا
عن الأستاذ محمد عبد الوهاب موسيقار الأجيال -رحمة الله
عليه- الأستاذ محمد عبد الوهاب متعرفهوش يا عم الحج
ولا إيه...?!!

ضحك الحضور من عفوية عبود المبالغ فيها، ولم يتعجب
أحمد مالك من سؤاله بل قال في استياءٍ شديد:

- لا طبعًا أعرفه، معرفهوش ازاي، ده عبقرية فنية لا يختلف عليها اثنان... ولكن الجهل بسيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أنا أعتبره يا سادة واحدة من تجليات الغيبوبة الفكرية والعلمية والثقافية في حياتنا المعاصرة، ويا ليتها اقتصرت على العوام، ولكنها للأسف الشديد امتدت لتصل من يُفترض أنهم من أهل المعرفة..

كما أشار أحد الحضور وكان شابًا جامعيًا مهندسًا وأنيقًا، وطلب الكلمة فأذن له فقال:

- وأنا أؤكد لحضراتكم أنّ غالبية الشباب الجامعي في مصر لا يعرف أي شيء عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو عن أفكاره، وأنا واحد من الناس ما عرفت عنه إلا من خلال كتاب "أجدادي والدول"، اللي اشتريته بس عشان

عرفت انه بيتكلم عن أجدادنا من قبيلة زهير اللي أنتمي إليها، غير كده مكنتش هجيبه أو أقرأه، أو حتى أهتم به من قريب أو من بعيد في الحقيقة..!

فعلق الأستاذ أحمد مالك قائلاً:

- ده حقيقة للأسف؛ لأنّ في بلادنا العربية الكثير من الشخصيات التي أثرت بشدة في تاريخ الأمة، وكان لها مواقف وأثر واسع على الأمة العربية، بل والإسلامية سواء بالإيجاب أو بالسلب، ومع ذلك هناك إغفال شديد لسيرتهم، وكذلك بعض المواقف والأحداث المؤثرة لا يتحدثون عنها باستفاضة في مناهجنا التعليمية أو خارجها، كما أنه لا يتاح الحديث عنها، وكأن الحديث عنها سيكون سبب كوارث أو زعزعة أفكار ووثايت راسخة لا يجوز الاقتراب

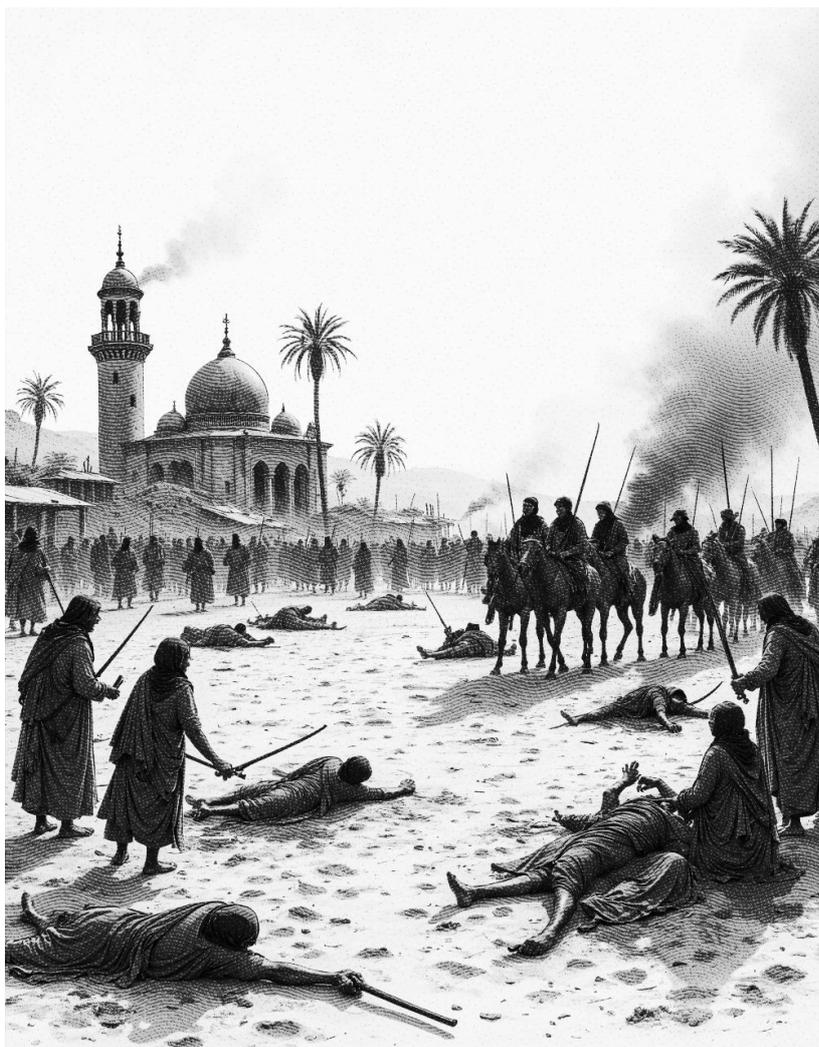
منها، في حين أنّ الشباب الآن مع ما يحدث من تقدّم وعولمة وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي والسوشيال ميديا (الخطيرة جدًّا)، بات يطلّع على أمور كثيرة، وقد يستقي المعلومة من شخصٍ غير أمين، ينقل له أمورًا قاصدًا منها تدليس الأفكار وزعزعة الثوابت، خاصّة وأنّ شبابنا لا يقرأ، فبات فارغًا من الداخل -للأسف الشديد- وبالتالي سيكون فريسة سهلة جدًّا لهؤلاء، وقد سبب هذا التجاهل كوارث حقيقية، فما حدث في انحياز بعض الشباب العربي المسلم لتنظيم القاعدة من قبل ولداعش الآن، هم مجرد شباب فارغ وقعوا في مصيدة المدلسين؛ لأنهم خُدعوا بتزييف تفسيرات لآيات من القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة، لذا يجب علينا أن نتخطى تلك الأسلاك الشائكة التي وُضعت أمامنا عن قصد، ويجب

على القائمين على مناهجنا التعليمية، وعلى الثقافة في
بلادنا العربية، أن يشيروا لتلك الشخصيات المؤثرة في
تاريخنا العربي أو الإسلامي، ولو لمجرد الإشارة، وناقش
أفكارهم، فما المانع من ان تُلقى عن هؤلاء إشارات حتى
ولو بسيطة عن سيرتهم الذاتية، أو بعض أفكارهم للوقوف
عليها، فنأخذ المفيد منها، ونتحاشى أخطاءها، ونمنع شبابتنا
من الوقوع في أفخاخها!!؟

اتحدت السلطة السياسية بزعامة محمد بن سعود مع السلطة الدينية بزعامة محمد بن عبد الوهاب، فكان ابن سعود ما يهيمه هو المُلْك فقط، حيث تكوين مُلْك له ولأبنائه من بعده، وكان ابن عبد الوهاب ما يهيمه نشر دعوته وأفكاره التي يؤمن بها، وترتَّب على اتحاد السلطتين أن نشطت الدعوة، وبات لها أتباعٌ وأنصار في كل مكان بنجد، ووفد المؤيدون للدعوة قاصدين الدرعية من كل حذب وصوب، وذلك لما نشره ابن عبدالوهاب بين أتباعه والمؤمنين بدعوته من ضرورة الهجرة من بلاد (الكفر) حيث أنه أعتبر بلاد المسلمين (خلاف الدرعية) بلاد كفر وضلال، بل وبلاد حرب، وذلك لإنغماس جل أهلها وقبولهم للشرك والبدع التي أنتشرت بها، وسكوت دعاة تلك البلاد عنها، حيث اعتبر حتى من سكت عن تكفير هؤلاء كافر خارج عن الملة مباح ماله ودمه، كما أن الإيمان بدعوته لا يكتمل بدون تلك الهجرة، وذلك أسوة بهجرة النبي محمد صلي الله عليه وسلم، حيث كان يري الدرعية دار الهجرة الحقيقية للمؤمنين الآن، وذلك كما كانت المدينة المنورة دار هجرة النبي وأتباعه صلي الله عليه وسلم مع بداية نشر دين الإسلام!..

زاد عدد (المهاجرون) إلي الدرعية بشكل كبير، وبهم تقوى الدعوة وتتكاثر القوى، حيث يزود هؤلاء عن الدعوة بكل قوتهم، وسوف يقدمون أموالهم ودمائهم فداءً لها، ومع زيادة (المهاجرين) اكتظت الدرعية بالفقراء والأغنياء على حدٍ سواء، فكان منهم من يعمل بالدرعية بالأجر للقوت، وكان منهم من يملك ما يكفيه للعيش بها، ولكثرة الفقراء بالدرعية اضطر ابن عبد الوهاب أن يقترض المال ليعول فقراء الدعوة، وزاد الأمر سوءاً، وكان لا بد من إيجاد سبيل لذلك، فالدرعية بلدة صغيرة لا تقوى على تحمل كل تلك الأعداد المهاجرة، وظروفها الاقتصادية ومواردها لا تتحمل ذلك مطلقاً، فكان لا بد من الغزو...!

لقد بات الغزو مصلحةً ملحةً للدولة وللدعوة وللأفراد على حدٍ سواء، فشرع ابن عبد الوهاب لهؤلاء شرعاً يُحقق لهم مصالحهم باسم الدين، حتى أصبح الغزو فريضة على كل مُسلم مُقيم بالدرعية قادر على الغزو وحمل السلاح وسفك الدماء، وبدأت أول غزوة بسبعة ركائب من الإبل خرجت من الدرعية قاصدة أي قبيلة أو أي بلدة لا تؤمن بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وبالتالي لا تخضع لدولته،



حيث أباح محمد بن عبد الوهاب للغزاة مالَ ودماءً من يقومون بغزوهم، وحققت تلك الغزوة بغيتها، وعادت بالغنيمة، فكانوا يغيرون على كل من يرفض دعوتهم، وقد يغيرون عليهم وقت الصلاة، فيجدونهم يقيمون الصلاة أو يتدارسون الكتاب والسنة، ولكنهم لا يؤمنون بمنهجهم وفكرهم، فيحلون دمهم ومالهم، ويسفكون دماءهم بفهمهم المنحرف للدين وباسم شريعة (الغزو) المُستحدثة التي استحدثتها دولة ابن عبد الوهاب...!

كانت تلك الغنائم تُسلم للشيخ محمد بن عبد الوهاب بنفسه، فيقوم (منفردًا) بتوزيعها أو تقسيمها على الغازيين حسبما يرى، ففتحت تلك الغزوات شهوة الناس إلى الغزو، وأعادتهم لسيرهم الأولى حيث الغزو على القبائل -كما كان من قبل- ولكن بطابع جديد، فأقبل الناس على الغزو والقتال وسفك الدماء إقبالاً شديداً، وذلك بعدما تستر الغزو بغطاء ديني مناسب له..

وبعد عام واحد من ميثاق الدرعية الشهير أصبح في نجد حكومة دينية متوحشة، جعلت دينها شن الغارات وإعلان الحرب على جيرانها (المسلمين) الذين رأوا أنهم انحرفوا

عن الدين القويم بما ابتكروه من البدع والخرافات. وما زال الشيخ محمد بن عبد الوهاب يُكثر من إرسال الرسائل، ومكاتبة البلدان والقرى والقبائل، يدعوهم للإيمان بدعوته...!

وفي تلك الأثناء نصحه بعض أتباعه أن يُرسل الشيخ منذر بن رشيد الحنبلي، عالم وشيخ عسير الجليل، يدعوهُ للوقوف بجانب دعوته ومناصرتها، حيث كان الشيخ منذر في ذلك الوقت قد تجاوز الستين من عمره، ويحضر له عدد كبير جداً من الناس، وأصبح له تلاميذ وأتباع كثر أصبحوا في مقام العلماء، وما زال يُصدر كتيباته في العقيدة وصحيح التوحيد، والعبادات، ولقد استطاع بتلك الكتيبات الصغيرة وبالمثابرة على الدعوة أن يُربي جيلاً نقيّاً، صاحب عقيدة سليمة من التلاميذ والأتباع، أصبحوا ينشرون منهجه القويم في كل الأقطار المجاورة، كما أصبح لكل منهم مكانة وقدر عظيم في كل نجد، وبات لهم أتباع يسировون على نهجهم السليم في الدعوة، وما زال كما عاهده الناس (من قبل) يُحاج من يخالفه بالحكمة والموعظة الحسنة، فيقيم عليهم الحجة ويبهت دعوهم، واستطاع بتلك الطريقة أن يجذب له

عددًا كبيرًا جدًّا من الناس، فنزعوا (جميعًا) عنهم البِدَع
والخرافات والشِّرْكِيَّات التي شوّهت الدين الإسلامي
الحنيف..

ولما وصلت له رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قرأها
وقبل ما جاء بها، وبارك الدعوة وإمامها، ودعا له بالنصر
والتأييد، ولكنه كان قد وصله عن الشيخ ودعوته أمر لم يكن
يقبله، عن طريق مُكاتبات أرسلها له الشيخ سليمان بن سحيم
يدعوه فيها إلى الوقوف ضد دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب،
ولكنه رفض تلك الدعوة تمامًا بحجة أنه لم يسمع شيئًا من
ابن عبد الوهاب حتى الآن يتوافق مع ما يدعيه عليه ابن
سحيم؛ حيث مبالغة الشيخ ابن عبد الوهاب في الشدة
والتكفير والقتال واستحلال دماء المسلمين وأموالهم،
واتهامه كل علماء المسلمين بجهل حقيقة التوحيد، فأرسل
الشيخ منذر إلى الشيخ ابن عبد الوهاب رسالة طويلة
يستوضح منه عما كان قد وصل إليه من قبل عن دعوته،
فرد عليه الشيخ ابن عبد الوهاب برسالة طويلة، وكان مما
لفت انتباه الشيخ منذر بن رشيد في رسالة الشيخ جملة كتبها
الشيخ بنفسه جاء فيها:

- إننا والحمد لله تعالى لا نُكفر إلا مَنْ كفره الله ورسوله،
وحسبنا الله فيما ينقل عنا بُهتانًا وزورًا.

فلقد رأى الشيخ منذر أنّ تلك الجملة فضفاضة وواسعة، وقد
يأتي تحتها العدد الكبير من الخلق حسب فهم قائلها وتأويله،
فقرر زيارة الشيخ ابن عبد الوهاب بالدرعية ومناقشته
والجلوس معه، والتحقق من منهجه بالدعوة.

وبعد شهر واحد من تلك الرسالة، انتقل له الشيخ منذر مع
جمع كبير من أتباعه وتلامذته حيث الدرعية، وقابله الشيخ
محمد بن عبد الوهاب بترحابٍ وبحفاوةٍ شديدة، وتحدث معه
في شأن الدعوة، ودار بينهما نقاشٌ طويل، وفي النهاية لم
يُبدِ الشيخ منذر رفضًا صريحًا لدعوة الشيخ محمد بن عبد
الوهاب ولكنه لم يقبلها أيضًا، وعلق في نهاية حديثه وقال له
قبل أن ينصرف مع تلامذته:

- تلك دعوة في ظاهرها الخير الكثير، ولكن في باطنها
أمور وأشياء أخشى عواقبها...!

رفض الشيخ منذر أن يزيد شيئًا على تلك الكلمات،
وانصرف دون أن يتعاهد مع الشيخ على شيء، ولكنه أمر

من جاؤوا معه من أتباعه وتلامذته، ألا يتبعوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ لما فيها من مُبالغة في التكفير واستحلال أموال المسلمين ودمائهم، واستجلابها عواقب وخيمة وخطرًا شديدًا على الدعوة الإسلاميَّة الوسطية السمحة، كما قال (دون إسهاب) عندما سأله أنصاره عن الخطأ الأكبر في دعوة ابن عبد الوهاب:

- يكفي أنه يتعامل مع النص بشكلٍ سطحي للغاية دون معرفة تعقيدات التعامل مع النص في فقهننا الإسلامي، ودون ضوابطه الشرعية، فهو يستشهد بمُطلقات النصوص الصحيحة دون قيد، وصریحات النصوص الضعيفة دون تدقيق، مع تشدده البالغ في التأويل...!

ظل الشيخ منذر بن رشيد هكذا يرفض دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكنه لا يُظهر عداؤه المُباشر لها حتى يسلم من شرور أتباعه، خاصَّةً أنه لم يكن ذا منعة، كما لم يكن له قبيلة أو عصبية تحميه، كما رأى أنَّ ما قام به علماء نجد يكفي لتوضيح حقيقة الدعوة وخطورتها على الأمة الإسلاميَّة، ولا حاجة لمعارض جديد ينضم لمعارضيهما بعدما زاد عدد المعارضين لها داخل نجد وخارجها،

ولإصراره الشديد الرافض لدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب، ولتحذيره الدائم لتلاميذه من الانضمام لها، دخل أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب (في العسير) مع الشيخ منذر بن رشيد في صدامٍ شديد، وسرعان ما اتهموه بالكفر والخروج عن صحيح عقيدة الإسلام، كما هددوه بالقتل إن لم يكفَّ عن الدعوة وصاحبها، فخاف من بطشهم، وباع بيته وترك العسير وهاجر مع عبده عياش السعيد إلى المدينة المنورة، وأقام هناك ولكنه مرض أثناء الرحلة، خاصةً أنَّ جسمه نحيف لا يقوى على تحمل تبعات السفر، وجاور المسجد النبوي الشريف، واشتغل في التفسير وشرح عقيدة التوحيد، وأصبح له تلاميذ يقدرونه ويوقرونه بالغ التقدير والتوقير، حتى أدركته المنية بعد عام واحد من هجرته إلى المدينة، وفي فراش الموت وصى أقرب تلاميذه إليه بالمدينة بعدم الانضمام لدعوة ابن عبد الوهاب، فلقد تأكد له ما كان يخشاه منها حقاً.. أما العسير فلقد انضمت لدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب بعد انضمام عدد كبير من تلاميذ الشيخ منذر بن رشيد لدعوة ابن عبد الوهاب خوفاً من بطش أتباعه بهم.

بمنطقة (عين الآبار) في صحراء العارض الواسعة، وفي منطقة بعيدة متوغلة بالصحراء، كان يعيش عدد من القبائل حول آبارها، وفي تلك المنطقة كانت (بلاد عين الآبار)، وبأفضل مساحة بتلك البقعة أقيمت تلك البلاد منذ زمنٍ بعيد..

تُعد بلاد عين الآبار في مرحلة وسط ما بين البدو والحضر، أخذوا من الحضر بناء بيوت راسخة ومستقرة، فكان الاستقرار وعدم الترحال أهم ما وصلوا إليه في تطورهم، كما أخذوا من الحضر الاشتغال بالزراعة والتجارة على حدٍ سواء، مع تقليص شديد لدور المرأة في حياتهم العامّة، فتعارضوا بذلك بشدة مع دور المرأة في البداية، فالمرأة البدوية لا يقتصر دورها على إدارة شؤون بيتها من الداخل وتربية الأبناء فقط، فهي شريكة فعّالة في الحياة، حيث تُشارك الرجل في الرعي والزراعة وتربية الحيوانات، واتخاذ القرارات الهامة التي تخص الأسرة، أما في بلاد عين الآبار فلقد اقتصر دور المرأة فيها على إدارة شؤون البيت من الداخل، وتربية الأولاد ورعايتهم، ويكاد أن يكون دورها في اتخاذ قرارات الأسرة معدومًا تمامًا، إلا في حالاتٍ نادرةٍ للغاية، لذا لم يكن لها مشاركة واضحة في الحياة العامّة..

أخذت قبائل بلاد عين الآبار من البدو -وكانت مرحلة من مراحل حياتهم الأولى- العيش بالصحراء قريباً من القبائل البدوية الخالصة، هذا مع تمسكهم الشديد بالعادات والتقاليد وأعراف القبيلة، وتربية الحيوانات والرعي، وخروج الشباب والفرسان في رحلات للصيد بالصحراء لأيام، فيصطادون بعض الحيوانات كالضب والأرانب البرية والغزلان للأكل وللتنشلية في أوقات فراغهم، وصيد الضباع والذئاب البرية لقتلها وتحنيطها ووضعها للزينة وكتحف في بيوتهم، كما تتشابه حياتهم مع الحياة البدوية في نظام الحكم السائد بها، حيث زعامة القبيلة حسب مؤهلات زعيم القبيلة من الكرم والشجاعة وسداد الرأي، مع قوة العلاقة بين زعيم القبيلة وباقي أفرادها، هذا مع صراعاتهم المتكررة في صد غزو القبائل المجاورة.

وبلاد عين الآبار بلاد قوية جداً بمالها وبأس رجالها وكثرة عددهم، لذا رفضت الخضوع لحكام أي إمارة بالعارض منذ أن لفت لها النظر مؤخراً حين أصبحت ذات شأن وقوة، وتصدت لذلك بكل قوة، فاستقلوا بحياتهم فخورين بها، وكونوا معاً جلفاً قوياً (جداً) بينهم، وتواصلوا بينهم بعدة

وصايا اتفق أجدادهم الأوائل عليها، وهم الذين جاؤوا إلى تلك المنطقة واكتشفوا آبارها واستقروا بجوارها، ووضعوا حدودًا لبلادهم؛ بحيث لا يجوز تخطيها أو السماح بالجور عليها، وعملوا على الذود عنها ببأسهم وقوتهم ومالهم، فكانوا -بادئ الأمر- يشترون العبيد الأقوياء للقتال بصفوفهم، كما يستأجرون الفرسان وقُطّاع الطرق من مناطق بعيدة لنفس الغرض، كما تزوج كل منهم بأربع نساء حرائر من القبائل القوية بنجد، دون النظر لأي شيء آخر كجمال أو مال، فأنجبوا العشرات من الأبناء، واشتروا عددًا كبيرًا من العبيد، كما أوصوا بأمر هام سيساعد -فيما بعد- على زيادة عددهم، وساد بين أحفادهم وأبنائهم بقوة، حتى أمسى وكأنه عرف من أعراف تلك القبائل، عُرف بينهم باسم (المئة حد العشرة) ويعني أن يُنجب كل فرد من رجال قبائل بلاد عين الآبار عشرة أبناء من الذكور، وهؤلاء العشرة ينجبون أيضًا عشرة أبناء من الذكور، وهكذا، وذلك ليزداد عدد الرجال في بلاد عين الآبار، ويصبحون عزوة وسندًا وقوة، ولهذا كان عدد الرجال في القبيلة الواحدة من قبائل بلاد عين الآبار كبيرًا جدًا إذا ما قورن بأي قبيلة أخرى خارجها، وكان ذلك سببًا من أسباب قوتهم بين

القبائل، إلا أنّ تلك الوصية باتت في السنوات الأخيرة غير معمول بها، وذلك لأن الحاجة إليها لم تعد ذات أهمية بعدما أصبحت قبائل بلاد عين الآبار ذات قوة ومنعة..

ولخوف مؤسسي بلاد عين الآبار من انحراف أبنائهم أو انفصالهم، فتضعف شوكتهم ويتشتتوا بين القبائل ويضيع بأسهم، زوجوا أبناءهم من بعضهم البعض، بحيث لا تخرج فتاة واحدة خارج بلاد عين الآبار لزيادة ترابطهم فيما بينهم، ووضعوا عددًا كبيرًا من الوصايا حفظوها فيما بينهم، وفي الجيل الذي تلاهم كتبوا تلك الوصايا التي حفظوها عن آبائهم في كتاب واحد من عدة صحف، ونصوا فيه على أنه لا يجوز مخالفة أي بند من بنوده، ووضعوا فيه بعض البنود الأمرة التي لا تقبل نقاشًا أو تغييرًا أو تبديلًا، عُرف هذا العهد بـ (حلف قبائل بلاد عين الآبار)، وكان معروفًا بينهم باسم (الحلف)، حرره أجدادهم من عدة نسخ مُتطابقة، في كل قبيلة منهم نسخة أصلية، يرجعون إليه إن اختلفوا في أي أمر يخص شؤونهم العامّة أو الخاصّة، فلقد اشتمل هذا الحلف على مجموعة من القواعد والقوانين الأمرة التي لا يجوز الخروج عليها أو مخالفتها والتي تُنظّم لهم كل



أمرهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونظام الحكم والقضاء في بلادهم وكل مناحي الحياة..

ما إن بدأ الشيخ ابن عبد الوهاب في مُراسلة القرى والبلاد في نجد وشبه الجزيرة العربية، ومراسلة البدو في الصحراء، راسلهم كغيرهم من القبائل، وطلب منهم الدخول في دعوته، فترددوا كثيرًا في الرد على رسول الشيخ ابن عبد الوهاب، خاصّةً لغياب كبيرهم الشريف فاضل بن زهير في زيارة خارج نجد في صعيد مصر، فلاجؤوا إلى ابنه علي، وكان في الأربعين من عمره، كما كان له عقل راجح وفكر سديد، فأظهر لهذا الرسول -خلافًا لما يُبطن- ترحيبه الشديد بالدعوة، ولكنه طلب قبل انضمام بلاده للدعوة والوقوف بجانبها ومؤازرتها، أن يزورهم الشيخ ابن عبد الوهاب بنفسه في ديارهم، ويعرض عليهم مذهبه وأفكاره، والتعرف على شخصه الكريم، وكان ذلك لرغبة شيوخ وعلماء قبائل بلاد عين الآبار التأكيد مما أشيع عن دعوة ابن عبد الوهاب، كونها دعوة مُتشددة تلجأ إلى السيف في نشر مبادئها.. وحددوا له موعدًا للزيارة بعد مجيء الشريف فاضل من رحلته..

كانت قبائل بلاد عين الآبار تضم أربع بلاد مُتجاورة ومتشابكة، ولا يفصل بينهم إلا مجموعة من الطرق الصغيرة، تعيش بها أربع قبائل عظيمة القدر والشأن، وتسمى تلك البلاد بأسماء القبائل التي تقطنها، ولترابطهم وانصهارهم الشديد عرفوا جميعًا باسم بلاد عين الآبار، فكان أي فرد منهم يُقدم نفسه خارج حدود بلادهم بأنه من بلاد عين الآبار، وهذا ما زاد من قوتهم وتماسكهم في عيون من ينظر إليهم من الخارج، أما عند عودتهم لبلادهم فكان كل منهم يُدعى لقبيلته ودياره..

كانت بلاد عين الآبار ذات شوكة وقوة ومَنَعَة، فترابطهم ووحدتهم وقوتهم كانت أسبابًا كافية في منع دخول أي غريب أو طامع أو معتدٍ على بلادهم، وكثيرًا ما خرجوا جميعًا في حروبهم ضد المعتدين على آبارهم ومراعيهم ومزارعهم، وكان أقرب عدوان صدُّوه عن بلادهم، عدوان قبيلة غافر المُعتدين منذ شهورٍ قليلة، والذين أرادوا الاستيلاء على آبارهم ومزارعهم.

كانت قبيلة غافر قبيلة كبيرة العدد، مشهورة بين كل القبائل

– وفي بلاد نجد قاطبة- بجبروتها وقسوتها وبأس رجالها، زعيمهم وفارسهم الأول رجل شجاع بلغ حد التهور، لا يهاب الموت، صاحب حيلة وقوة وبأس شديد اسمه قاسم بن كفران بن غافر، رجلٌ في الستين من عمره، غليظ فظ وسليط اللسان، قوي البنيان فارط القوة، طويل القامة عريض الأكتاف، يجيد فنون الفروسية حيث امتطاء الإبل والخيل في الكر والفر واستخدام الرمح والسيف للقتال - حيث كانت الأسلحة المشهورة بين القبائل في تلك الفترة هي السيوف والرماح والسهام والخناجر، ونادرًا جدًا ما استخدموا البنادق في حروبهم؛ حيث كانوا يستخدمونها للصيد فقط؛ لندرتهما أولاً ولعدم توفر طلقاتها ثانيًا- وكثيرًا ما غار برجاله الأقوياء وفرسان قبيلته الأفذاذ على القبائل من حولهم، فأوقعوا بهم شر الهزائم، واستولوا على أموالهم ونوقهم وخيولهم وأغنامهم، وغنموا منهم أموالًا كثيرة، فكان الفرسان والرجال يهابونه ويخشون لقاءه، كما كانت القبائل تخشاهم جميعًا وتخشى بأسهم وتحسب لهم ألف حساب، ولما قرروا التعدي على قبائل بلاد عين الأبار وجدوا منهم بأسًا لم يجدوه من قبل..

فلقد قاد الفارس الهمام الذئب بن رافع بن شداد، صاحب الثلاثين عامًا، الذي لم يكن يُجيد شيئاً بحياته كإجادته لفنون القتال والحرب والفروسية والطنع بالسيف والرمح والقتال بالخناجر، فلم يكن يهتم بأي شيء آخر في حياته، ولا يُجيد التجارة أو الزراعة أو حتى تربية الحيوانات، ولم يكن من أصحاب الرأي في قبيلته، كان فارساً بالفطرة، يهوى الصمت ولا يُكثر الحديث أو المشاركة في المناقشات الجدلية، اعتبرته بلاد عين الآبار المسؤول الأول عن الدفاع عن بلادهم منذ أن اكتشف الشريف فاضل بن زهير موهبته وفروسيته التي تخطت كل فرسان بلاد عين الآبار منذ سن مبكرة، فلقد كان كثيرًا ما يُثير المشكلات مع والده الشيخ رافع بن شداد، وكان يراه والده دائمًا أنه عبءٌ عليه وعلى إخوته، لعدم مشاركته في أمور الزراعة أو الرعي أو التجارة أو تربية الحيوانات، فلقد قال والده -ذات مرة- شاكياً حاله للشريف فاضل وبعض شيوخ قبائل بلاد عين الآبار:

- ولدي الذئب لا يريد أن يعيش إلا بين السيف والرمح والخناجر والبنادق، وكأنَّ الحياة وقفت عند تلك الأمور

فقط، أنتم تعرفون كيف أنه يجيد تلك الفنون وكأنه فارس من فرسان العرب القدامى، لا يُجيد أي شيء آخر، لا أدري متى سيتغير حاله.. فنحن -والحمد لله- بلادنا بلاد سلم ولا نعتدي على أحد، ومن يعتدي علينا نستطيع أن نصده إما بأنفسنا أو بمن نستأجرهم من خارج بلادنا للقتال معنا..

ففكر الشريف فاضل في أن يستفيد من حماس الذئب بن شداد وإجادته لفنون القتال والفروسية، وليعتمد فقط على شباب بلاد عين الأبار في الدفاع عنها، ولما كانت بلاد عين الأبار -كغيرها من القبائل- في حاجة ماسة للفرسان التي تحمي تجارتها وتزود عن بلادها، استحدث الشريف فاضل أمرًا جديدًا، بأن يكون هناك مسؤول عن تدريب شباب قبائل بلاد عين الأبار كلها، وإعداد فرسان قوية ذات بأس وحنكة في الحروب، ولا يقتصر الأمر على مجرد الفرسان الذين يظهرون في كل قبيلة كصدفة محضة...! بحيث يتم تعليم من لا يجيد فنون القتال والفروسية ويتم تدريبه عليها بشكلٍ سليم، فالأمر ليس فطريًا فقط، فقد يتغير حال شخص من حال إلى حال بالتدريب الجاد المستمر السليم، ولم يجد الشريف فاضل أفضل من الذئب بن شداد لتلك المهمة،

لتطوير طريقة بلاد عين الأبار في صنع فرسانها في المقام الأول، ولحل مشكلة الشيخ رافع بن شداد مع ابنه الذئب في المقام الثاني.

كانت سعادة الذئب بهذا القرار لا توصف، ولقد أثبت كفاءة منقطعة النظير، وفي غضون شهور قليلة خرج من تحت يده فرسان لم يكونوا يعرفون عن فنون القتال إلا أقل القليل، فبُهر شيوخ قبائل بلاد عين الأبار بتلك النتيجة، وأصبح الذئب بن شداد قائداً لقوات بلاد عين الأبار، ومسؤولاً تماماً عن تدريب شباب بلاد عين الأبار على فنون القتال وركوب الخيل والإبل للمشاركة في الحروب..

كان الذئب يقوم بتدريب الفرسان بشكل يومي على كل الأسلحة المتاحة في بلاد عين الأبار التي يستخدمونها في حروبهم وفي الصيد أيضاً، فقام بتقسيمهم إلى مجموعات كبيرة، في كل يوم يقوم بتدريب مجموعة منهم مع تقديم بعض العروض التي تُبرز كفاءتهم في القتال، وذلك بساحة الفرسان خلف مزارع بلاد عين الأبار الكبيرة، حتى لا يخور عزم الفرسان، فأصبح مُتفرغاً لذلك تماماً، يُدربهم وكأنهم في حربٍ مُستمرة ودائمة، ولقد حدد له الشريف

فاضل بن زهير راتبًا (كبيرًا) لذلك يدفعه له شيوخ بلاد عين الآبار مع طليعة كل شهر عربي، فلم يكن يؤدي أي أعمال أخرى سوى تدريب الفرسان.. كان جادًا جدًّا في عمله، ذا همة من حديد لا تفتر، عاشقًا لبلاد عين الآبار ويحبها حبًّا جمًّا، حريصًا على أن يكون فرسان بلاد عين الآبار من أقوى الفرسان وأشجعهم، ولأنه كان فارسًا من طراز فريد، أصبح فرسان بلاد عين الآبار على شاكلته..

كان الذئب قوي البنية طويل القامة مُتناسق القوام، حاد الملامح، ذا بأس وقوة مُفرطة، هو أقوى فرسان القبائل في نجد قاطبة، إلا أنَّ شهرته لم تتعد بلاد عين الآبار، وذلك لعدم مشاركة بلاده في الحروب خارج حدودها كثيرًا، ولم يكن ذا علم وفير، ولا يعرف من تاريخ العرب إلا القليل، ولكنه كان مُغرماً ومُتيمًا ببعض فرسان العرب المشاهير، وكثيرًا ما كان يذكرهم للفرسان ويذكر نواذرهم وبطولاتهم ليحثهم على الصبر على التدريبات القاسية ويشجعهم على القتال، وفي جلسة خاصَّة مع شيوخ بلاد عين الآبار قال مُخاطبًا الشريف فاضل بن زهير :

- أحلم أن يكون الفارس في بلاد عين الآبار به كل صفات

الفارس الكامل، له قلب كقلب عنتره بن شداد العبيسي، شجاع لا يهاب الموت، وله قوة كقوة سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ ويمتلك عقلاً وتدبيراً في الحرب كعقل سيدنا خالد بن الوليد ﷺ...!

وبتكليف من كبير قبائل بلاد عين الأبار الشيخ الجليل الفاضل الشريف فاضل بن زهير، قاد الذئب بن شداد فرسان قبائل بلاد عين الأبار في حرب طاحنة ضد قبيلة غافر المعتدية، وأوقعوا بها هزيمة ساحقة، بات يدوي صداها في كل الأقطار والقبائل المجاورة، فلقد نحروهم نحراً، وكادوا أن يفتكوا بهم ويقطعوا نسلهم عن بكرة أبيهم، فلم يكتفوا بمحاربتهم على حدود بلادهم، بل هزموهم وتتبعوهم وغزوهم في ديارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، نحروا فيها الرجال والفرسان نحراً.. وقَتَلَ الذئبُ بن شداد فارسَهم قاسم بن كفران بعد قتالٍ عنيفٍ دار بينهم استهان فيه قاسم بن غافر بقوة الذئب بن شداد، فلم يكن يعرفه أو سمع عنه من قبل، حتى أثبت الذئب بن شداد في هذا اللقاء (بالغ الشراسة) أنه من أذكى وأقوى فرسان القبائل في بلاد نجد، وهجموا بقوة على قبيلة غافر حتى تركوا القبيلة خاوية

من الفرسان تمامًا، إلا ممن هرب منهم، وبات لا يسكنها إلا النساء والأطفال وشيوخ بالية لا تقوى على حمل السلاح، وانتهى خطر قبيلة غافر في كل الأرجاء، ولم تقم لهم قائمة مرة أخرى، واشتهر الذئب بن شداد وذاع اسمه بين القبائل كونه قاتل قاسم بن غافر، الذي عجز الفرسان عن مواجهته أو الوقوف أمامه، ولولا تلك الحادثة ما كان تردد اسم الذئب بن شداد بين قبائل نجد.

ولأنها بلادٌ غنية (حقًا) كثيرًا ما طمِع فيها الطامعون، من لصوصٍ وقُطاع طرق وقبائل غازية، ولكنهم تمكنوا من صدِّهم جميعًا، كما أنَّ قوافلهم التجارية المتجهة إلى حواضر نجد والأحساء والحجاز، يخرج لحمايتها فرسان ورجال تخشاهم السباع والأسود الضواري، كان اتحادهم حائط الصد المنيع لكل مُعتدٍ ومُغتصب، قوتهم وبأسهم الشديد وتماسكهم جعلهم يتصدون بقوة لأي طامع، فيوقعون بأعدائهم هزائم لا مثيل لها، وهذا ما جعل القبائل المجاورة لهم تخشاهم وتخشى الدخول معهم في أي حروبٍ أو صراعاتٍ أو حتى مجرد خلافات، كما أنَّ حُكام الإمارات بالعارض كانوا لا يُحبذون الدخول معهم في حروب

وضمهم لإماراتهم؛ لتوغلهم الشديد في الصحراء وُبعد مسافاتهم الشديد عن مقر إماراتهم، فهم في هذا أقرب للبدو منهم إلى الحضر.

كان فرسان بلاد عين الآبار يشعرون بقوتهم وبأسهم، ولولا وجود شيخ مؤمن بالله حق الإيمان، عادل ومُنصف وحكيم يحكمهم ويأتمرون بأمره لطغوا في البلاد، وما استطاعت قبيلة أيًا كانت قوتها صدّهم أو منعهم، ولكن مع قوتهم تلك، وبأسهم الشديد كانوا لا يغيرون على أحد، ولا يعتدون على قوي أو ضعيف، ولا يغزون كعادة القبائل الأخرى، ويكتفون بمزارعهم وأغنامهم وإبلهم وخيولهم ومراعيهم الواسعة وآبارهم وتجارتهم العظيمة.. والأكثر من ذلك أنّ بلاد عين الآبار لم يكونوا يفرضون على القوافل التجارية التي تمر على بلادهم أي مقابل؛ كعادة غيرهم من القبائل والبلاد المجاورة، وكانت القوافل تفضل المرور من ناحية بلادهم لما تتمتع به من أمن مقيم، كما كانت بعض القوافل من الحضر تقصدهم خاصّة لبيع بضاعتهم لهم وشراء بضائع منهم.

كان للقبائل الأربعة شيخ لكل قبيلة، صاحب الكلمة الأولى داخل قبيلته، هو حاكمها وقاضيا ومسيرا شؤونها، يدير شؤون القبيلة من خلال مجلس -مضيعة- تمّ إنشاؤه في وسط القبيلة لهذا الغرض، مفتوح دائما ولا يوضع عليه باب في الغالب، يتم فيه اجتماع أفراد القبيلة بشكل دائم لبحث مشاكلهم العامة والخاصة وحل خلافاتهم، وحضور احتفالاتهم وأعيادهم وكل مناسباتهم في الأفراح والأتراح، ومقابلة ضيوف القبيلة، ويعد مجلس القبيلة ملكية مشتركة لكل أفراد القبيلة، وعادة ما يتوسط القبيلة من حيث المكان، ويتم إقامته في أحسن مكان بالقبيلة، ويلتحق به مسجد القبيلة، وله عبيد وخدم مخصصون للعمل به حيث تنظيفه وتنظيمه كل يوم لاستقبال الوافدين، وله مكانة خاصة عند أفراد القبيلة، فمجلس القبيلة لا بد أن يكون واسعاً ومفروشاً بأثاث قد يكون أفضل بكثير من فرش بيوتهم الخاص، لظهورهم بشكل لائق أمام أي زائر أو غريب، يقدمون فيه الأطعمة والقهوة العربية والتمر والفاكهة، ويتفننون في أن يظهر مجلسهم دائما بشكل لائق، فمجلس القبيلة يظهر مكانة القبيلة وكرم أهلها وحالتهم الاقتصادية.

وفي وقت إرسال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رسالته إلى قبائل بلاد عين الآبار مع بداية عام ١٧٤٦م كان شيوخ القبائل الأربع من أقوى شيوخ قبائل بلاد عين الآبار في كل عصورها، وأول تلك القبائل الأربع من ناحية الدرعية بلاد قبيلة شداد، شيخها وزعيمها هو الشيخ نواف بن حازم بن نواف بن شداد، وصولاً إلى جدهم التاسع عشر (شداد بن أكتم) وهو أول من حط أقدامه في بلاد عين الآبار من قبيلة شداد، كان ذا قوة وبأس شديد، حاد الطباع وعنيفاً، طويل القامة، ضخم الجثة كبير الأنف، أسمر اللون، جهور الصوت، ولقد أخذ منه أبناؤه من بعده بعض صفاته، فكانوا ذوي قوة وبأس شديد، وحدة في الطباع.

وثاني تلك القبائل قبيلة مالك؛ وهي الأقرب لقبيلة شداد من ناحية الجوار، شيخها وكبيرها هو الشيخ عقرب بن أحمد بن عبد بن صخر المالكي، وصولاً إلى جدهم التاسع عشر (مالك بن الأسود) وهو أول من حط أقدامه في بلاد عين الآبار من قبيلة مالك، صاحب حيلة، تاجر من طراز فريد، يستطيع تحويل التراب ذهباً -كما يقولون- صاحب عقلية تجارية فذة، وله باع طويل في التجارة والأعمال، طويل

القامة نحيف الجسم، خمري اللون، بعينين غائرتين، ضاحك بسام دائماً، ولقد أخذ منه أبناؤه من بعده بعض صفاته، فكانوا أصحاب تجارة كبيرة ويمتلكون أموالاً طائلة.

ثم قبيلة فهر، أبعد قبائل بلاد عين الآبار عن الدرعية، شيخها وقائدها هو الشيخ عثمان بن صاخب بن حكم الفهري، وصولاً إلى جدهم التاسع عشر (فهر بن لؤي) وهو أول من حط أقدامه في بلاد عين الآبار من قبيلة فهر، رجل معتدل في كل شيء، حريص جداً في تعاملاته مع الناس، ذو بأس وعزم، قوي البنیان، طويل القامة عريض الأكتاف، جميل الملامح جذاب، أنيق ومنمق، يحب العطر والطيب، تاجر ذكي، ويجيد تربية الحيوانات كالأغنام والإبل، ولقد أخذ منه أبناؤه من بعده بعض صفاته، فكانوا معتدلين ومنمقين.

وأخيراً أهم قبيلة من القبائل الأربع قبيلة زهير، تقع في الوسط بين القبائل الثلاث، شيخها وقائدها هو الشريف فاضل بن محمد بن علي بن زهير، وصولاً إلى جدهم التاسع عشر الشريف (زهير الكبير بن عبد الله) ويمتد نسبهم إلي علي بن الحسين المعروف بزین العابدين الملقب

(السجاد) ابن سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام،
والشريف (زهير الكبير) هو أول من حط أقدامه في بلاد
عين الآبار من قبيلة زهير، ورفض أن يعيش في الحجاز
بجوار أبناء عمومته -أشراف الحجاز- لخلاف قديم بين جده
وأحد أشراف الحجاز في تلك الفترة، ولأنه كان إنساناً ليئلاً
وهادئاً ويكره الدخول في الصراعات، ترك الحجاز وهاجر
بعيداً إلى العراق، وكان الشريف زهير الكبير رجلاً صادق
العهد أميناً، قلبه متعلق بالله، يحب الخير للناس، له هيبة
ووقار يجعلك تقف أمامه خجلاً، جميل الملامح، أكل
العينين، حلو اللسان، رقيق القلب، بشوش الطلة، أبيض
اللون وبوجهه نور وضاء، نكياً وحكيماً، وله رأي راجح
وعقل مستنير، وهم أوسط القبائل قوة ومالاً، وقد أخذ منه
بعض أبنائه من بعده بعض صفاته، فكانوا أذكى أصحاب
رأي وفكر سديد.

وقبيلة زهير أهم تلك القبائل وأعزها شرقاً ونسباً، لامتداد
نسبها إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان لتلك القبائل
مجتمعة بجوار هيبتهم وبأسهم وقوتهم الاقتصادية مكانة بين
القبائل المجاورة، بسبب نسب أحدهم الممتد لبيت النبوة،

فصاروا أشرف القبائل وأعزها، كما كانت قبيلة زهير تمتاز بوحدتها القوية جداً من الداخل وتماسكها، وكانوا ينسبون أنفسهم دائماً لآخر أجدادهم فيقولون بعد اسم الأب مباشرة (ابن زهير) نسبة لزهير الكبير، وهذا ما دفع باقي قبائل بلاد عين الآبار أن يسلكوا نفس مسلكهم، فينسبون أنفسهم كذلك فتجدهم يقولون: فلان ابن فلان (ابن شداد، أو المالكي، أو الفهري).

كانت القبائل الأربع تعيش متجاورة في تلك البلاد الغنية بمائها ومزارعها ومراعيتها الواسعة وتجارتها العظيمة، حيث ضمت منطقة عين الآبار، أربعة آبار كبيرة وشهيرة من الماء العذب، توزعوا جميعاً بتلك المنطقة، متخذةً شكلاً مُستطيلاً تماماً، حُدد لكل قبيلة -منذ زمنٍ بعيد- بئر خاص بها، ولا يجوز لأي قبيلة من تلك القبائل الأربع أن تستخدم بئر قبيلة أخرى إلا بعد توقيع المواثيق وإبرام اتفاق يبيح لها ذلك، وموافقة باقي القبائل الثلاث الأخرى، وذلك عهد قديم اتفق عليه أجدادهم وأبرموه معاً، وتحتفظ كل قبيلة من القبائل الأربع بنسخة مخطوطة منه، عُرف هذا العهد بينهم بعهد الآبار، ولتلك الآبار الأربعة أسماء تميزها عن بعضها

وهي :

بئر (ماء عدن) مملوك لقبيلة زهير..

والأقرب إليه مباشرة بئر (روضة الخير) لقبيلة مالك، وهو أكبر تلك الآبار وأنقاهم ماءً..

ثم يليه بئر (ماء الفردوس) لقبيلة فهر..

والأقرب إليه مباشرة بئر (نهروان) لقبيلة شداد، وهو أصغر الآبار الأربعة وأقلهم نقاءً..

اختار تلك الأسماء أجدادهم منذ استقرارهم ببلاد عين الآبار..

تعيش قبيلة زهير مع باقي قبائل بلاد عين الآبار متحابين ومتآخين وبانسجامٍ شديدٍ بينهم، كما تربطهم جميعاً أوامر الأخوة والمحبة والصدقات القوية، وبينهم علاقات عمل وتجارة ومصاهرة متشابكة ومتعددة، كَوَّنوا جميعاً قوة واحدة بتكتلهم معاً..

كانت قبيلة مالك أغنى قبائل بلاد عين الآبار مألًا بمزارعها وتجارتها العظيمة ومراعيها الواسعة وأغنامها وكثرة عبيدها الأقوياء.

وقبيلة شداد أكثر قبائل بلاد عين الآبار قوةً بعدد رجالها وشجاعتهم وبسالتهم في الحروب، وأكثرهم تملكًا للسلاح من حراب وسيوف وبنادق، ولكنها أقل القبائل مآلاً وتجارة. وقبيلة فهر تأتي بعد قبيلة مالك في المال والتجارة، ولكنها أكثر قبائل بلاد عين الآبار تملكًا للإبل والنوق.

أما قبيلة زهير فهي أوسطهم قوة ومآلاً، تأتي بعد قبيلة شداد في القوة وعدد الرجال والشجاعة في الحروب، وفي مستوى واحد من قبيلة فهر في المال والتجارة بعد قبيلة مالك، وهي أكثر قبائل بلاد عين الآبار تملكًا للخيل العربي الأصيل، ولكنها تزيد عن باقي قبائل بلاد عين الآبار شرفاً ومكانة ونسباً، وهم الأقدر على القيادة، والأذكى عقلاً، والأفصح بياناً، والأكثر حكمة، فكان لقبيلة زهير بين القبائل الثلاث مكانة خاصة تميزها عن غيرها، كما أنها محتفظة بقدرها ومكانتها وشرفها عند باقي القبائل الأخرى خارج بلاد عين الآبار.

تلك المكانة التي كانت تتمتع بها قبيلة زهير تجعلها في المقدمة دائماً، وهذا ما جعل الشريف فاضل هو كبير ممثلي القبائل الأربع لبلاد عين الآبار، وصاحب الرأي والكلمة

الأولى، والمتفاوض الأول باسمهم عند إبرام أي عهود أو اتفاقيات خارجية في التجارة أو غيرها، بل ولا يحل محله أحدهم عند غيابه، فغيابه قد تتعطل كل أمور القبائل الأربع (العامة) منها، وذلك لأنهم كانوا لا يرون في أحدهم ما يساوي قدره ومكانته وفطنته وحكمته أو إنصافه مع صرامته وعدله، وكثيراً ما كان ذلك يسبب لهم خللاً في بعض الأوقات، ولكن وجود ابنه علي أزال تلك الإشكالية مؤخرًا، فأصبحوا يلجؤون إليه عند غياب والده لأي أمر عظيم، فأصبح له مكانة خاصة بينهم.

لم يكن الشريف فاضل يحب أن يرشح أو أن يجبر شيوخ أو أهالي بلاد عين الأبار على أي بديل يحل محله في غيابه، وترك الأمر كاملاً لهم، فإن قبلوه (هو) فقد لا يقبلون من يُرشحه لذلك، وقد يفقد بينهم قدره ومكانته إن انحاز لأحدهم، لذا جعل هذا الأمر لرغبتهم، ولكنهم سرعان ما اختاروا علياً ابنه دون تردد ودون أن يُختار بشكلٍ رسمي بديلاً لأبيه كما يرون.

تعمل قبائل بلاد عين الأبار الأربع في الزراعة، فكان لكل

قبيلة مزرعة كبيرة من النخيل بجوار آبارهم، كما يعملون بالرعي وتربية الإبل والخيول والأغنام والماعز، والتجارة في بلاد نجد والأحساء والحجاز، فكانوا يُصَدِّرون الحيوانات خاصّة الإبل، ثم الخيل والأغنام والماعز، كما يُصَدِّرون أيضاً تمر مزارعهم الفائض عنهم، وكانوا يستوردون بعض الأطعمة والخضراوات والفاكهة والسلاح، فكان لتجارهم مكانة عظيمة معروفة بين كل البلاد والقبائل المجاورة.

أما الناحية التعليمية فلقد كان لها شأن مختلف في بلاد عين الآبار مقارنة بغيرهم من كل ربوع نجد، فلقد عكف شيوخ القبائل على التعليم، فلا يوجد ببلاد عين الآبار من لم يتعلم ويقرأ القرآن الكريم، حيث أنشأ الأجداد الأوائل كتاتيب في كل قبيلة، يقوم المدرسون بالقبيلة الواحدة بتعليم كل أبناء القبيلة - بلا استثناء أحد منهم- بأمر شيخ القبيلة، قواعد اللغة العربية والقرآن الكريم وأداء الشعائر وبعض مسائل الحساب البسيطة: كالجمع والطرح والضرب والقسمة، حيث يقوم المدرسون بذلك مقابل أجر يحدده لهم شيخ القبيلة مع بداية كل عام، يُدفع لهم من وقف خاص لذلك الغرض.

وبعدما يُنهي الطالب تعليمه بالكتاتيب ويتم حفظ القرآن الكريم، لا مانع من أن ينتقل إلى المدرسة الحنفية ببلاد عين الآبار حسب رغبته أو رغبة ولي أمره، تلك التي تقع بديار قبيلة زهير، والتي دعا لتأسيسها أحد شيوخ قبيلة زهير الأوائل، حيث كانت تقوم بتدريس علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، وعلوم الشريعة الإسلامية من تفسير وسيرة وحديث وفقه على المذهب الحنفي فقط، وكان معلمو تلك المدرسة هم علماء وشيوخ المذهب الحنفي بقبائل بلاد عين الآبار الأربع، وكانت المدرسة الحنفية قاصرة على أبناء زعماء قبائل بلاد عين الآبار وبعض أبناء أغنياء القبائل الأربع، وأبناء العلماء وشيوخ المذهب الحنفي ببلاد عين الآبار، حيث يتقاضى العلماء في المدرسة الحنفية أجورًا من أولياء أمور الطلاب.

لا خلاف مُطلقًا على زعامة قبيلة زهير للقبائل الأربع، لذا كانوا يعيشون جميعهم في تفاهم تام، أمرهم جميعًا يقف في النهاية عند شخص واحد، عادل ومنصف، دائمًا ما يقف على أعتاب الحق، كما يقف دائمًا على مسافة واحدة بين الخصوم، وكل ما يشغله هو مصلحة القبائل الأربع

مجتمعة، لا ينحاز إلا للرأي الذي سيحقق مصلحة القبائل الأربعة معاً، صاحب خبرة وذكاء وفطنة، ومع ذلك لم يجعله هذا الأمر يستأثر بقرار يخص شؤونهم العامة مُنفرداً، فكثيراً ما كان يأخذ برأي أحدهم إن كان صائباً فكان حكيمًا وعادلاً ومنصفًا..

أما عن مذهبهم الفقهي، فقد كان المذهب الحنفي هو المذهب المُعتمد والمُطبق على كل تعاملاتهم الدينية والحياتية ويحتكمون إليه فيها، كما كان علمائها أهل علم ودراية بكل أمور الدين، وعلى علم بنصوص القرآن الكريم وبعلم التفسير وعلم الحديث والسيرة النبوية والفقه وعلم التوحيد واللغة العربية وغيرها من العلوم الدينية، يقيمون دين الله على الوجه الأكمل، وأصحاب عقيدة سليمة وصحيحة، وكانوا متعصبين بشدة لمذهبهم، ولا يرتضون غيره من المذاهب.

بعد عودة الشريف فاضل من صعيد مصر، أخبروه بما حدث بينهم وبين رسول الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأرسلوا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يخبرونه بعودة

كبيرهم الشريف فاضل، وما إن وصل لمقر بلاد عين الآبار مع وفد من أتباعه حتى استقبلوه في ديار قبيلة زهير - مركز إدارة بلاد عين الآبار- استقبالا خاصا فأكرموه وقابلوه ومن معه بحفاوةٍ بالغةٍ، وجلس مع شيوخهم وكبارهم يدعوهم للإيمان بدعوته ومناصرته، وقرروا أن يتناقشوا معه في كافة أمور الدعوة وعقيدة التوحيد، وما إن جلس معهم يعرض عليهم دعوته، حتى بدأ بقول الله تعالى في سورة الحديد الآية ٢٥:

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} صدق الله العظيم..

ثم استرسل يخبرهم بأصول دعوته وصحيح عقيدة التوحيد، وأنهى كلامه بقوله:

- لقد أرسل الله الرسل بالبينات، وهي حجج وبراهين ساطعة يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل، وأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البيان والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من

الظالم، ويقوم به الحق وينشر به الهدى، ويعامل الناس على ضوئه بالحق والقسط، كما أنزل الله الحديد، فيه بأس شديد، وقوة وردع وزجر لمن خالف الحق، فالحديد لمن لم تنفع فيه الحجة وتؤثر فيه البينة، فهو الملزم بالحق، وهو القامع للباطل..

وما إن أنهى الشيخ حديثه، حتى وقف أحد أتباعه ممن جاؤوا معه في حشده، وأخذ يُنشد بحماسٍ مفرط شاهرًا سيفه أبياتًا لأبي تمام جاء فيها:

وما هو إلا الوحيُّ أو حدُّ مرهفٍ ثميلٌ ظباهُ أخدعي كلِّ مائلٍ
فهذا دواءُ الداءِ من كلِّ عالمٍ وهذا دواءُ الداءِ من كلِّ جاهلٍ

ثم دار نقاش بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه من جهة، والشريف فاضل وزعماء وعلماء قبائل بلاد عين الآبار من جهة أخرى، وتطوّر الأمر حتى أصبح وكأنه خلاف مذهبي حاد بين الطرفين، كما ظهرت لهم جدت ابن عبد الوهاب وتمسُّكه بالتكفير والقتال، فتمسك كل من الطرفين بمذهبه، وأظهر كل منهم ما يراه عيوبًا بمذهب الآخر وفكره، واحتدم الخلاف بشدة، فلم يرتضِ شيوخ

وعلماء قبائل بلاد عين الآبار مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته، وبجراً شديدة رفضوا الدخول تحت حكم الإمام محمد بن سعود، مؤسس الدولة الجديدة، لاختلاف علمائها (الكبير) على بعض النقاط بالدعوة التي كان يقودها الشيخ محمد بن عبد الوهاب خاصة مسألة التكفير..

ودار بينهم نقاش حاد في تلك المسألة تحديداً -مسألة تكفير المسلمين واتهامهم بالشرك وما يترتب على ذلك من جواز محاربة المسلمين وقتلهم واستحلال أموالهم ودمائهم- ولم يكن أحد يتوقع منهم هذا الهجوم العنيف، وقد وقفوا أمامهم بقوة يحاجونهم بعلم وفهم لأصول الدين، وبدأ الشيخ الفقيه مازن بن داود المالكي الحديث -من قبيلة مالك- وهو أحد شيوخ المذهب الحنفي بقبائل بلاد عين الآبار، مخاطباً الشيخ محمد بن عبد الوهاب وسط جمعه بجراً قائلاً:

- إنك بدعوتك تلك تخرج عن سماحة الإسلام، لأنّ الدعوة الإسلامية سلمية محضة، ولا تلجأ أبداً للعنف والقتال إلا في حالات الضرورة للدفاع عن نفسها فقط، فإن كان الإسلام قد عامل أعداءه بتلك السماحة (وهم من يكفرون

به كفرًا صريحًا بواحدًا) فإنه كان عليك إزامًا أن تعامل مخالفيك بما عامل الإسلامُ به مخالفيه، ومخالفوك ليسوا في الكفر قطعًا، لأنهم يؤمنون بالله ورسوله وأنبيائه، ويؤمنون بالبعث والحساب، وبالجنة والنار، وإن كانوا مع هذا يدعون الموتى ويستعينون بهم ويسألونهم قضاء حوائجهم وتفريج كربهم، وهذا - وإن سلمنا بأنه شرك - فلن يبلغ شرك من لا يؤمن بالله ورسوله، ولا بالبعث، ولا بالجنة ولا بالنار، ويؤذون الرسول ويعادونه جهراً، فكيف لك أن تستحلّ دماء هؤلاء وأموالهم؟!.

ثم قال الشيخ الفقيه عامر بن عمر الفهري أحد شيوخ المذهب الحنفي الأفاضل من قبيلة فهر:

- من كلامك هذا؛ حيث إنك تخالف من يخالفك وتعاديه، وتبالغ فتجعله خارجاً عن المنهج الصحيح بل وتكفره كفراً مخرجاً من الملّة، تخلق لنفسك سلطةً روحيةً لا يجوز الخروج عنها. تلك السلطة الروحية لم يدّعيها حتى النبي ﷺ، فلقد قال لأحدهم: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»، وفي الحرب قال: «إنه الرأي والمشورة»، ولم يفرض رأيه ﷺ

وإن فرض رأيه ما كان خالفه أحدُهم، إلا أنه ومع أنه نبي مرسل من عند الله، كان يُسأل من أصحابه دائماً: "أهو وحي من الله أم أنه الرأي والمشورة؟" .. فأما ما كان من عند الله فلا جدال فيه، وأما ما هو راجع للرأي والمشورة فكان يجوز مخالفته، ولا غضاضة أبداً في ذلك، فلم يتوغّل في شؤون الناس وحياة الأفراد إلا بالشكل الذي يحمي به مقاصد الشريعة الخمسة (الدين، النفس، المال، العرض، العقل) وترك لهم مساحة في ذلك، فلا يمنع أحداً إلا بنص، أما أنتم فتمنعون الناس بفهمكم أنتم لهذا النص وترفضون تأويل غيركم من العلماء ، وتتحاكمون بظاهر النص فقط دون تأويله، وقد يكون فهمكم مُجانِباً للصواب، ومع ذلك بات من يُخالف فهمكم وكأنه يخالف النص، وهذا خلط وخطأ عظيم، فلقد حلّ فهمكم محلّ النص، وبات النص بلا قيمة إن خرج عن مضمون فهمكم، فأصبح لكم سلطة روحية لا يجوز الخروج عليها، ومن خرج عليها يكون قد خرج عن الدين، كون سلطتكم (كما تزعمون) مُستمدّة في الأصل من الدين، وهذا هو مَكمن الخطورة.

ونظر الشيخ أحمد بن جابر بن شداد أحد شيوخ قبيلة شداد - وكان صاحب فكر مستنير ومن أهل الحق- إلى مَنْ حضر مِنْ أنصار الدعوة والشيخ محمد بن عبد الوهاب وكأنه يتفحصهم ثم قال:

- نحن وإن نعتقد بالمذهب الحنفي إلا أننا نراه (فقط) الأفضل من غيره، ولكننا لا نعدُّه وحدَه الرأي الصواب، وهذا هو الفارق بيننا وبينكم، نحن نعتقد بالمذهب الحنفي ونراه الأفضل من المذهب المالكي مثلاً، إلا أنَّ المالكي لا مانع أبداً أن يكون رأيه صحيح حسب فهمه وتأويله، ولكننا لا نعدُّه خارجاً عن الدين، أما أنتم فنراكم تحترمون المذاهب المعتبرة وتقدرونها، وأنا لا أداهنكم، فنحن لا نعرف المداهنة، ولكن هذا ظاهر من كلامكم، إلا أنكم ترون أنفسكم بعد ما حلَّ بالأمة ما حلَّ بها من تشوُّه في العقيدة وانحرافات وبدع، أنكم (الآن) أنتم فقط الصواب، وهذا ما نراه خطأً عظيماً يتعارض بشدة مع منهجنا.

ثم طلب الشريف جعفر بن أكبر بن زهير الكلمة، وهو أحد علماء قبيلة زهير المُعتبرين، صاحب الأخلاق الرفيعة، فأذن له الشريف فاضل، ووقف موجهاً كلامه للشيخ محمد

بن عبد الوهاب وأخذ يقول:

- مع تقديري الشديد لكم ولعزيمتكم وجهدكم العظيم، وإعجابي الشديد بما قمتم به من جهد، فأنا لا أنكر أنّ عزيمتكم وجرأتكم في الحق لا يُنكرها إلا جاحد أو ظالم، وأنتم أهل فضل في الحقيقة، ولكنكم أصحاب دعوة، وأصحاب الدعوات لا بد أن يتحمّلوا النقد، وإلا ما كنت خرجت بدعوتك من صومعتك وقررت عرضها على الناس، وأنا أرى أنكم تفتقدون التدرّج في دعوتكم.. نعم التدرّج، التدرّج فضيلة يغفل عنه الكثير من أصحاب الدعوات، فالتدرّج مطلوب في كل شيء، تدرّج في تشريع الأحكام يتبعه بالضرورة تدرّج في التطبيق، وتلك سنة الله في الكون، وتلك سنة النبي ﷺ في دعوته، ولنا في الخمر أسوة ظاهرة توضح لنا التدرّج الذي أقصده ومفهومه، ومما أقررتموه أمامنا الآن نرى أنكم تفتقدون التدرّج في دعوتكم بشدة، وكان مطلوب منكم (أولاً) أن تُخرجوا الناس من مظاهر الشرك والبدع والخرافات التي تغلغت في حياة الناس حتى وصلت منتهاها، بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد إيمانهم بدعوتكم عليكم

(ثانياً) تربيتههم وإصلاحهم، حتى يقوم هذا الجيل بنفسه (الذي تربى على العقيدة السليمة) بتطبيق الشريعة في حياتهم، ولا تتم هكذا دفعة واحدة كما تفعلون، ولا يُجبر الناس عليها جبراً بالتشديد والتكفير والقتال.. قال تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} صدق الله العظيم، فتلك طريقة مُنفرة، سيقابلها الناس بالرفض والصدِّ عن دعوتك، وهذا أراه خللاً في دعوتكم.

كان الشيخ ابن عبد الوهاب يستمع لتلك الكلمات بضيقٍ شديد وضجر، وعاد مرة أخرى وعلّق على كل تلك الانتقادات وشرح منهجه مرة أخرى، غير مكترث بما أثاره علماء بلاد عين الآبار...! وبهذا الرفض المستتر لدعوته، وبعد جدالٍ طويلٍ ونقاش وإصرار من جانب الشيخ ابن عبد الوهاب على صواب دعوته، وقف أخيراً كبير قبائل بلاد عين الآبار وصاحب الكلمة الأولى الشريف فاضل، ليجزم الأمر قاطعاً رأيه، ومُعلنًا رأيه ورأي قبائل بلاد عين الآبار، فقال بحزم شديد وبدأ متسائلاً :

- من أين جئتم بمذهبكم هذا؟!، فقولكم بأن تلك الأمور الخارجة عن الدين والعقيدة شرك وأنكم أخذتم ذلك من كلام العلماء كابن تيمية وابن القيم، حيث أنهم سموا ذلك شركا.. إلا أنهم لم يقولوا كما تقولون أنه شرك أكبر يخرج من الإسلام، وتجري على كل بلد هذا فيها أحكام أهل الردة، بل من يكفرهم عندكم كافر أيضاً وتجري عليه أحكام أهل الردة، حقيقي أنهم اعتبروه شركاً وشددوا فيه ونهوا عنه ، ولكن ما قالوا كما قلتم ولا عشر معشاره، ولكنكم أخذتم من قولهم ما جاز لكم دون غيره .. كما ذكر أهل العلم في كل مذهب، الأقوال والأفعال التي يكون بها المسلم مرتداً، ولكنهم لم يقولوا من نذر لغير الله فهو مرتد، ولم يقولوا من طلب من غير الله فهو مرتد، ولم يقولوا من ذبح لغير الله فهو مرتد، ولكنكم قلتم من فعل تلك الأفاعيل فهو كافر ومن لم يكفره كافر أيضاً، فأنتم بذلك كفرتم كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن تلك الأمور تحدث من مئات السنين وما رأينا أحداً قال قولتكم، ولهذا فوالله لن ندخل في دعوتكم، وأنتم تعلمون جيداً أن بلادنا بلاد حرب وذات مَنعة وقوة وبأس شديد، بل



سنتصدى لدعوتكم إن أجبرتمونا عليها، أما إن تركتمونا
 وشأننا، نعاهدكم بأننا لن نحاربكم أو نعادكم أو نكيد لكم
 أبداً، وأمركم وأمر جزيرة العرب، إن أجبرتموها على
 مذهبكم فهذا شأنها... ومع هذا فأنا أتعجب منكم! فلقد أنعم
 الله عليكم بتأييد الأمير محمد بن سعود، فلماذا لا
 تُناصحون الناس وتدعون إلى الله بالحكمة والموعظة
 الحسنة...؟ وأنا أزعم إن فعلتم ذلك، سيكون لدعوتكم أكبر
 الأثر في بلاد الإسلام قاطبة، ولقبَلها القاصي والداني، أما
 نحن فلنا مذهبنا الذي نتمسك به ولن نحيد عنه أبداً، ولن
 تجبرونا على مذهبكم ما حيننا.

بعد كلمات الشريف فاضل، انصرف الشيخ محمد بن عبد
 الوهاب هو وأنصار الدعوة وهم في قمة الغضب، وبدؤوا
 يفكرون جدياً في غزو بلاد عين الآبار، وفهم شيوخ قبائل
 بلاد عين الآبار نيَّتهم، وقرروا صدَّ هذا الغزو، بل وإعلان
 الحرب على الدولة السعودية، وبدؤوا في التحرُّك للحشد،
 وتوجَّهوا لبعض القبائل المجاورة يعرضون عليها خوض
 الحرب بجوارهم، وتحت قيادتهم، مقابل جزء من ثمارها
 ونوقها وأغنامها، وحشدوا لذلك حشداً عظيماً، وأبرموا

الاتفاقات والعهود على ذلك، وأبدت بعض القبائل استعدادها التام لذلك بمقابل اتفقوا عليه معهم، وباتوا جميعاً في انتظار الموعد المُحدد للتحرك.

ولأنَّ بلاد عين الآبار كان لها تاريخها في صد غزوات أعدائها، ولها سمعتها المعروفة في كل أقطار بلاد العارض، حيث القوة المالية والعقدية وبسالة شبابها في الحروب... هذا مع كونها بلاداً لها مكانة خاصّة عند البلاد والقبائل المجاورة، وقد يحشدون حشداً عظيماً لمجابهة الدولة السعودية... هذا بالإضافة إلى أمرٍ هامٍ للغاية كان من الأسباب الهامة التي منعت الدولة السعودية من غزو بلاد عين الآبار، وهو أنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود كانا في بداية دعوتهما يعملان على وصل حبل المودّة مع أشراف الحجاز، وإعلانهم الحرب مع قبائل بلاد عين الآبار -التي تنتمي إليهم قبيلة زهير- قد يثير ذلك غضب أشراف الحجاز على دولتهم، وقد يؤثر هذا على بداية انتشار الدعوة... هذا بالإضافة لتوغّل بلاد عين الآبار (الشديد) في الصحراء الذي سيجعل من أمر غزوهم واستقرار الأمر لهم في تلك البلاد صعباً للغاية.. فتبيّن

الشيخ ابن عبد الوهاب واتفق معه الإمام محمد بن سعود، واتفق معهما الكثير من أنصار الدعوة على أنَّ الدخول مع قبائل بلاد عين الآبار في حرب سيوثر على تقدُّم دعوتهم بالتأكيد.

ولكنهم كانوا يأملون في دخولهم تحت حكم الإمام محمد بن سعود، ليس لدعوتهم للإيمان فحسب، ولكن لمناصرتهم والوقوف خلف دعوتهم، وهم المشهورون بين القبائل بقوتهم وبأسهم الشديد.

ولكنَّ الأمر تطور بشكل لم يكن متوقعًا لحماسة بعض شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، ولم يعدلوا عن رأيهم، وقرروا الدخول في حرب مع الدولة السعودية، بل وتجهزوا لذلك، وأعدوا العدة لها، وبات الأمر هكذا دون أن يبدأ أحد الفريقين بشن الهجوم على الآخر، حتى قرر شيوخ بلاد عين الآبار حسم الأمر وغزو الدولة السعودية في الدرعية، ولكن الشريف فاضل أوقف تحركهم، وظلوا هكذا في حالة ركود لعدة أيام.. وفي أثناء هذا الركود ارتفعت حدة التوتر في بلاد عين الآبار بين الفرسان والرجال، وبات الجميع متأهبين ومستعدين لصد غزو الدولة السعودية في أي وقت،

ونشر الذئب بن شداد الفرسان على حدود البلاد الأربع،
يَقْظِينَ مُتَأَهِّبِينَ طوال الوقت، واستمر هذا الأمر لبضعة أيام
مرّت على بلاد عين الآبار وكأنها شهور، حتى إنهم كانوا
يقيمون صلاتهم وكأنهم في حالة حرب، حاملين معهم
سيوفهم ورماحهم وسهامهم، متأهبين للقتال في أي وقت، لا
ينامون في ليلهم ولا يبرحون حدود بلادهم، وتوقفت
أعمالهم تمامًا، وفي ظل هذا الترقب الذي لا ينتهي تقدّم
الشريف علي ابن الشريف فاضل برأي عرضه على كبار
قبائل بلاد عين الآبار للتشاور فيه، كان مُفاده (عقد عهد
وميثاق بين بلاد عين الآبار وإمارة الدرعية، تجعلهم على
الحياد من دعوتهم ومن دولتهم، وتمنعهم في الوقت نفسه
من معاداتهم، حتى يطمئن الإمام محمد بن سعود من
ناحيّتهم، وحتى تنتهي تلك الحالة التي يعيشون فيها).

كان هذا الاقتراح وكأنه المخرج من هذا المأزق للجانبين،
وهو ما سيحرك الماء الراكد ويُنهي تلك الأزمة الناشبة التي
قد تتطور في أي وقت، فوافق شيوخ قبائل بلاد عين الآبار
على هذا الاقتراح، وقرروا زيارة الإمام محمد بن سعود في
مقر حكمه بالدرعية، فذهب شيوخ قبائل بلاد عين الآبار،

وذهب معهم الشريف علي ابن الشريف فاضل لتوضيح بنود العهد الذي يضمن استقلالهم عن الدولة السعودية، وحتى يحرر بنود العهد بنفسه، ومع ما ظهر للإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب من رفضٍ شديدٍ وتمسُّك قبائل بلاد عين الآبار برأيهم، وحشدهم الذي بات ملحوظاً، وللأسباب السابقة، لم يجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ضرورةً كبيرةً في إجبار قبائل بلاد عين الآبار دخولهم تحت حلف الدولة الناشئة، فقد يكون من غير الحكمة الدخول معهم في خلاف والدولة في غنى عنه آنذاك، فالدخول في حرب مع قبائل بلاد عين الآبار في تلك الفترة أمر غير مُجدٍ في الحقيقة، كما أنَّ مغارمه أكثر من مغانمه...

لم يزل الإمام محمد بن سعود في حيرته، حتى فوجيء بزيارة شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، فرحَّب بهم الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب ترحيباً عظيماً، وعرض الشريف فاضل عليهما إبرام عهد يضمن حيادهم عنهم وعن دولتهم، كما يضمن لهم عدم خيانتهم أو التحالف ضد دولتهم، فوافق الشيخ محمد بن عبد الوهاب

على هذا الاقتراح فوراً، واكتفى الإمام محمد بن سعود بإبرام العهد معهم تلاًشياً للحرب، فأبرموا عهداً وميثاقاً معهم، وقرأ الشريف علي بنود العهد الذي سيضمنون من خلاله عدم محاربة دولتهم الناشئة، أو الوقوف ضدهم في تنفيذ مخططهم في إنشاء دولتهم، كما أزموا (طبقاً لبنوده) بعدم موالاتهم لأي قوة خارجية أو داخلية تحاربهم، أو أي عدو يهدد دولتهم، هذا مع استقلالهم التام عن الدولة السعودية وعدم مشاركة (الدولة الناشئة) أو الدخول بجوارها في أي حروب خارجية ستخوضها، خاصة أنه قد تأكد لهم، وبات يقيناً لديهم أنها ستخوض (حتمًا) حروباً متعددة ومتواصلة..

عُرف هذا العهد بعهد (الحياد)، أبرمه الإمام محمد بن سعود في عام ١٧٤٦م لأجل غير مُسمى، وذلك لحين الانتهاء من ترسيخ قواعد دولته وتقوية جيشه، إلا أنه كان مؤمناً بأن ضم بلاد عين الآبار لدولته شيء هام، ولكنه لم يكن يخشى خيانتهم، فهم أهل عزٍ وشرفٍ وخلقٍ ودين، ولا يميلون للبدع والخرافات والشركيات كغيرهم، ومن ثم سيتم في وقت آجل (لا محالة) انضمامهم لتلك الدولة بعد ترسيخ قواعدها.

احتفلت قبائل بلاد عين الآبار بهذا العهد، كما احتفلوا (أيضاً) في الوقت ذاته بمجيء المولود الصغير بكري بن علي، ابن صاحب الفضل الأول في الخروج من هذا المأزق الشريف علي، وحفيد الشريف فاضل، وابن السيدة الفاضلة طيبة القلب (القوية) صمود بنت حمزة بن أحمد المالكي - عمها زعيم قبيلة مالك الشيخ عقرب بن أحمد المالكي - وذلك بعد مدة طويلة من زواجهم وتأخر في الإنجاب وصبر فاق العاده، وكان قدومه قدوم خير على قبائل بلاد عين الآبار، حيث احتفظوا باستقلالهم عن الدولة السعودية وحكم الإمام محمد بن سعود.

بعد إبرام هذا العهد حاولت بعض القبائل والبلدان التي دخلت في صراع مستمر مع الدعوة الوهابية والدولة السعودية استمالة قبائل بلاد عين الآبار للتخلص من تلك الدعوة في بلاد نجد، وراسلهم العديد منهم لعدة مرات، خاصة الشيخ سليمان بن سحيم عدو الدعوة الوهابية الأقوى في تلك الفترة، بل أغراهم البعض الآخر - خاصة دهام بن دواس حاكم الرياض - بدفع أموال كبيرة إن وقفوا معه ودعموه في القضاء على تلك الدعوة، إلا أن الشريف

فاضل، كان له ردود حاسمة وقاطعة لمن كان يحاول الاتصال بهم، وكانت له مواقف صارمة من عدم خيانة هذا العهد، حتى نما إلى الإمام محمد بن سعود موقف قبائل بلاد عين الآبار الشريف منه ومن دولته، فزاد احترامه لهم أكثر من ذي قبل، وقرر حفظ العهد بينهم، وكان يتعامل معهم بتقدير واحترام بالغ.

وفي عام ١٧٦٦م وقع بقبائل بلاد عين الآبار أمر جلل، فلقد مات الشريف فاضل عن عمر ناهز الخامسة والثمانين عامًا، وهذا ما جعل قبائل بلاد عين الآبار يُسارعون في اختيار من يحلُّ محلَّه، وعلى الفور، وقع اختيارهم على ابنه الأكبر الشريف علي، وكان قد بلغ الستين من عمره، وكان كوالده تمامًا، بل كان يزيد عنه ذكاءً وفطنةً وقدرةً على تدبير الأمور، كما كان صاحب الرأي الأول بقبيلة زهير بعد رأي والده، وكان كثيرًا ما يتخذ مواقف مغايرة لتوجُّه شيوخ قبائل بلاد عين الآبار مجتمعين يثبت بعد ذلك صحتها، وذلك فيما يخص شؤون التجارة أو باقي أمورهم الأخرى، وكان صاحب حجة، وكثيرًا ما أفنعمهم برأيه، لذا كان له بينهم مكانةً ومقام.

فكان صاحب فكر راجح مستنير ورأي سديد، فلقد جعل له علاقة بأحد التجار في الأحساء والحجاز وبعض حواضر نجد، يرسلون له عندما يحتاج السوق لصادراتهم من الإبل والخيل والأغنام والتمر، ويدفع لهم نظير ذلك مقابلًا ماليًا بسيطًا، أو يخصصهم ببعض الصادرات بأسعار مُنخفضة، ولهذا وجّه قافلة كبيرة من قوافل بلاد عين الآبار كانت ستتحرك من بلاد عين الآبار متجهة ناحية الحجاز، كان بها كل محصول مزارعهم من التمر لهذا العام، فلقد تأكد له أنّ بلاد الحجاز لا تحتاج للتمر في تلك الفترة، حيث تكدّس السوق بالتمر بشكلٍ غير مسبوق، ولهذا طلب من القافلة التوجه ناحية بلاد الشام، وطلب زيادة عدد الفرسان التي ستخرج لحراسة تلك القافلة، كونها أول قافلة تخرج من بلاد عين الآبار ناحية الشام، وهم يجهلون صعوبة الطريق تمامًا، كما لا يعرفون نسبة المخاطر التي قد تواجههم هناك، بل وأصرّ بشدة على خروج الذئب بن شداد بنفسه في تلك القافلة، ولم يكن الذئب يستطيع أن يخالف رأي الشريف علي كون رأيه دائمًا هو عين الصواب، فقاد الذئب بن شداد حراسة القافلة بنفسه، وما توقعه الشريف علي وجدوه بالفعل، فلقد تعرّضت قافلته لعدوان عدد كبير من

اللصوص وقُطَّاع الطرق قاطني الجبال، قابلهم فرسان بلاد عين الآبار بقيادة الذئب بن شداد بقوة وبأس شديد، ودحروهم وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة، وقتلوا منهم العدد الكبير، ووصلت قافلتهم دون أي خسائر، وتم بيع كل تمر بلاد عين الآبار في الشام، وحققوا من جراء ذلك مكاسب طائلة، أما باقي بلاد نجد التي توجهت بمحصولها من التمر ناحية الحجاز، فلقد خسرت خسائر فادحة، لبيع محصولهم بأسعار زهيدة للغاية.

لقد عُرف الشريف علي بينهم أنه صاحب رأي وصاحب أفكار مستنيرة، ولعل دوره في عهد الحياض وموقف بلاد عين الآبار من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خير دليل على ذلك، إلا أنه - ومع مرور الوقت - ظهر لهم أنه أقلُّ إنصافاً من والده الشريف فاضل... ولذكائه الشديد وفطنته وعقله الراجح سرعان ما أخذ الشريف علي مكانة والده في بلاد عين الآبار، فلم ينفرد برأي واحد حتى لا يتحمَّل وحده عواقب الأمور، خاصَّة أن بلاد نجد في تلك الفترة تمر بتطورات سريعة وفي غاية الخطورة، فجعل أمر بلاد عين الآبار شورى بينهم، ولكن بشكلٍ رسمي، حيث دعا إلى تكوين مجلس للشورى، يتكون من أهم شيوخ وعلماء قبائل

بلاد عين الآبار أصحاب الرأي، فكونت القبائل الأربع
مُجتمعة مجلسًا قبليًّا لتسيير شؤونهم وموازنة مصالحهم،
والحُكم في كل خِلافاتهم، أُطلق عليه مجلس شورى القبائل،
يضم أكبرَ وأهمَّ شيوخ وعلماء القبائل الأربع وأعلامهم قدرًا
ومكانةً بينهم، وأصحاب الرأي السليم والفكر الراجح.

تكوّن مجلس شورى القبائل من ثلاثة عشر شيخًا، مُثلت فيه
كل قبيلة بثلاثة أعضاء، ترأسه الشريف علي وجعل له نظام
عملٍ واضحًا ومحددًا وضعه بنفسه، ثم وافق عليه أعضاء
مجلس شورى القبائل، وجعل الشريف علي لنفسه وضعًا
خاصًا ومكانة خاصةً فيه، وافق عليها كل شيوخ قبائل بلاد
عين الآبار دون تعقيب، حيث كان يأخذ فيه الرأي
بالإجماع، وفي حالة استحالة الوصول لإجماع بينهم، يأخذ
برأي الأغلبية المطلقة، بشرط أن يكون رأي الشريف علي
متوافقًا معهم، وإن تساوت الأصوات عند اتخاذ قرار معين،
يُعاد التصويت مرة أخرى، وإلا أُخذ بالرأي الذي ينحاز له
الشريف علي.. وفي الغالب كانت كل قرارات مجلس
شورى القبائل في بلاد عين الآبار تتم بالإجماع إلا القليل
من الأمور الشائكة.

وينعقد مجلس شورى قبائل بلاد عين الآبار حسب الحاجة، أو بدعوة أي عضو من أعضائه لمناقشة أمر مُعين مُستجد أو طارئ، ولا يحضر اجتماعاته إلا أعضاؤه فقط، إلا في حالات نادرة، حيث أتيح لمن له مظلمة أو من يريد أن يُثير مسألة معيّنة في بلاد عين الآبار أن يطلب انعقاد جلسة خاصّة (طارئة) لمجلس شورى القبائل، تتعقد تلك الجلسة بشكلٍ طارئٍ وخصيصًا لهذا الغرض فقط، ولا يُناقش أي أمر آخر خلاف تلك المظلمة أو هذه المسألة..

كما حدّد لمجلس شورى القبائل موعد ثابت للانعقاد، يكون في نهاية نهار يوم الخميس من كل أسبوع، حتى وإن لم يحدث أمر جديد في القبائل يدعو لانعقاده، ويكون الاجتماع في تلك الظروف (فقط) للحفاظ على تقاربهم، والوقوف على أحوالهم والاطمئنان عليها، ولمعرفة أخبار القبائل الأربع، وكان مقر مجلس شورى القبائل في ديار قبيلة زهير في مساحة واسعة بجوار المدرسة الحنفية تمامًا.

كان أول اجتماع لمجلس شورى قبائل بلاد عين الآبار، بدعوة طارئة من الشريف علي، بسبب تجديد عرض دهام بن دواس (حاكم الرياض) لقبائل بلاد عين الآبار بالوقوف

معه ضد الدولة السعودية، مقابل المبلغ الذي يحددونه بأنفسهم، خاصّة أنّ هناك ثمة تحالفات قوية ضد الدعوة الوهابية والدولة السعودية للقضاء عليها، إلا أنّ الاجتماع أسفر عن رفض عرض دهام بن دواس رفضاً قاطعاً، كما حدث بالمرات السابقة.. ومنذ هذا الرفض الذي بدا قاطعاً ونهائياً، لم يعد يُعرض على قبائل بلاد عين الآبار أي عرض آخر للوقوف ضد الدولة السعودية، وعُرف بين الأقطار موقف قبائل بلاد عين الآبار المُحايد من الدولة السعودية ودعوة ابن عبد الوهاب.

أرادت بعض القبائل اتخاذ نفس موقف قبائل بلاد عين الآبار من الدعوة والسير على دربهم، إلا أنهم فشلوا في ذلك، وأجبروا على الدخول تحت حكم الدولة السعودية واجبارهم علي الإيمان بدعوة ابن عبد الوهاب.

ولقد وجبت الإشارة هنا إلي أنه وعلى الرغم من أن المذهب الحنفي لم يكن موجوداً ببلاد نجد في تلك الحقبة، كما لا يشتهر بشبه الجزيرة العربية، إلا أنّ قبائل بلاد عين الآبار كانت تعمل به وتعتمده مذهباً لها في عباداتهم ومعاملاتهم، وهذا لأنّ أجدادهم (مؤسسي بلاد عين الآبار) كانوا قد

عاشوا ببلاد العراق مدة طويلة - قبل مجيئهم واستقرارهم في تلك المنطقة- فتعلموه وعملوا به، كما اتخذوه مذهباً لهم، وفيما بعد أوصوا به أبناءهم، والأكثر من ذلك أنهم أكدوا عليه وذكروه في مقدمة حلف قبائل بلاد عين الآبار، فتوارثه أبناؤهم جيلاً بعد جيل، وكانوا يعدونه المذهب الأفضل من غيره، كما قَدَموا عليهم من رجالهم من يتعلمه ويحفظه، ولا ننكر ان ذلك الأمر كان من ضمن الأسباب التي دفعتهم بشدة لرفض الدخول تحت حكم دولة محمد بن سعود والإيمان بدعوة ابن عبد الوهاب الذي يخالفهم في المذهب..

أما معركة وادي جرذان أو ملحمة العبيد، فتبدأ من أولاد يعقوب.

بعدما اتسع شأن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانتشرت في ربوع نجد، باتت الدولة السعودية تهدد موازين القوى في بلاد نجد، ولما كان الأمير محمد بن سعود والشيخ ابن عبد الوهاب يُصِرَّان على الدعوة بدأت تنشب بينهم وبين قبائل نجد حروب متكررة، كما دخل

الشيخ ابن عبد الوهاب في مناقشات وسجلات عديدة مع
 الشيوخ والعلماء، ولعل أخطر ما كُتب عن دعوة الشيخ
 محمد بن عبد الوهاب في ذلك الوقت، والذي استغله خصوم
 الدعوة بقوة ضده، كتاب (الصواعق الإلهية في الرد على
 الوهابية) تأليف الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، قاضي
 حريملاء في ذلك الوقت، وأخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب
 نفسه، وذلك كونه أول كتاب يصدر في الرد على دعوة
 الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويفندها ويعمل على إبطالها،
 وكذلك كون مؤلف الكتاب هو أخو الشيخ نفسه، بل كان هذا
 الكتاب سبباً رئيساً في صدِّ البعض عن دعوة الشيخ محمد
 بن عبد الوهاب، بل إنه صاحب الأثر الأكبر في تقليص
 الدعوة وانصراف بعض الأهالي من الدرعية عن الشيخ
 محمد بن عبد الوهاب ودعوته، حيث أورد فيه ما قاله الشيخ
 العلامة أحمد ابن تيمية - الذي طالما تحجج ابن عبد الوهاب
 بأرائه كون دعوته مستمدة منه ومن تلميذه ابن القيم- خاصة
 في مسألة التكفير المخرج من الملة، حيث أثبت بالدليل في
 كتابه أن ابن عبد الوهاب كان مُخطئاً في استدلاله لجهل
 عنده وعدم دراية كاملة منه بأصول الفقه وطرق الفتوى ...
 ولقد تم نسخ عدة نسخ من هذا الكتاب - الذي بات

كالصاعقة على ابن عبد الوهاب وأتباعه- وتم توزيعها جميعاً في كل بلاد نجد، ونجح الشيخ سليمان بن عبد الوهاب أن يُظهر فيه الفرق بين موقف الإمام ابن تيمية وموقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مسألة التكفير وإخراج المُسلم من الإسلام..

ولقد كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب موقف حادّ جداً من هذا الكتاب، بدأه بقتل مَنْ أحضر نسخته إلى الدرعية...!

وعلى الرغم من قوة ما جاء بالكتاب من حجج وبراهين إلا أنّ ذلك لم يصد ابن عبد الوهاب عن استكمال مسيرته ونشر دعوته، واتباع نفس المنهج، فأصدر كتابه الثاني - بعد كتاب التوحيد الذي عرض فيه دعوته وأفكاره من قبل- وهو كتاب كشف الشبهات .. وكان كتاباً جدلياً ناقش فيه ما جاء في كتاب أخيه سليمان، وأورد بعض الآراء التي تؤكد مذهبه في القتل والتكفير، أيده بكلام بعض العلماء.

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود من بداية الدعوة يرون أنه لا بد لإتمام دعوتهم من الاستعانة بالسيف بجانب الدعوة، فقد تعاهدا من قَبْلُ على المعونة والمؤازرة لنشر دعوة التوحيد وطمس معالم الشرك...!

ورغم أنّ الدرعية بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها ألف نسمة، وعدد بيوتها لا يزيد على سبعين بيتًا، إلا أنه من هذه البلدة الصغيرة بدأت الجيوش تُجهز نفسها وتجهز الجيوش لِقِتال من تصدّوا لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو من رفضوا الانضمام لها، وذلك بعد عامين فقط من وصول الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية، فدخلوا في حروب حامية الوطيس مع الأمير دهام بن دواس بالرياض والصمدة، بدأت منذ أن فكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود التوسع في نجد، فرفض دهام بن دواس الدعوة كما رفض توسعها في نجد على حدّ سواء، كما قام ابن سعود ببناء سور كبير لحماية الدرعية من أي هجوم، ونشبت حروب مُتكررة بين الدولة السعودية وأنصار الدعوة من جهة وبين دهام بن دواس وأتباعه بالرياض والصمدة من جهة أخرى، استمرت تلك الحروب لمدة ٢٧ عامًا في ١٧ موقعة، حتى خرج دهام بن دواس من الرياض في ١٧٧٣م، وخضعت الرياض لحكم الدولة السعودية، وتم نشر الدعوة فيها، وخلال تلك الحروب قُتِل من الطرفين ٤٠٠٠ مُقاتل، منهم ٢٣٠٠ من أهل الرياض، و١٧٠٠ من أنصار الدعوة الوهابية.

كما بدأ الإمام محمد بن سعود في التوسُّع بنجد، فضمَّ العيينة وحرملاء وتبعه التوسُّع في إقليم الوشم والسدير والخرج ومنطقة القصيم، ثم التوسع شرق نجد في الأحساء، وجميعها أقاليم رفضت هذا التوسع بشدة، وقاومته بقوة، وكثيراً ما تحالفوا معاً ضد الدولة السعودية لإسقاطها، كما هاجموا الدرعية عاصمة الدولة، فقاوموا الدعوة بقوة لعدة سنوات في مواقع ومعارك طاحنة، كما كانت تلك المناطق في تمرّد دائم -بعد إخضاعها- على الدولة السعودية والدعوة، لذا كانت الدولة السعودية في حالة حرب دائمة ومستمرة ومشتعلة على الدوام.

لم تكن الدولة العثمانية تعلم شيئاً عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو تكوين الإمام محمد بن سعود للدولة السعودية، والتوسعات التي قام بها والحروب التي خاضها في نجد وغيرها من الأقطار، والحروب الطاحنة بين الأمراء، وما عرفت ذلك إلا بعد مرور ثلاث سنوات من تكوينها، وتحديداً في عام ١٧٤٩م، عن طريق أمير الحجاز الشريف مسعود بن سعيد، حيث أرسل إلى السلطان العثماني يخبره بقيام شيخ بالدرعية يدعى محمد بن عبد

الوهاب بدعوة جديدة مُخالفاً فيها المذاهب الأربعة، وجمع حوله الناس، وعمل بالاجتهاد، فرد عليه السلطان العثماني برسالة أمره فيها بزجره ومناقشته في دعوته، ومحاربتة إن رفض، وأرسل له المؤمن والمساعدات والمال الذي يساعده على ذلك.. وفي تلك الأونة حاول الإمام محمد بن سعود مخاطبة ود الشريف مسعود، فأرسل له ٣٠ عالمًا من أنصار الدعوة ليناقدش أئمة وعلماء مكة ومناظرتهم، فلم يحدث وفاق بين المُتناظرين، فقام الأمير مسعود بحبسهم، وأمر قاضي مكة بالحكم بتكفيرهم، ومنعهم من الحج، بحجة أنّ تلك الدعوة مخالفة للإسلام وما عليه سائر المسلمين، ولم يهتم بأمرهم مرة أخرى؛ لأنه شعر بضعف حججهم ودعوتهم، فرأى أنه من السهل القضاء عليها، كما رأى أنّ المعارضة النجدية الحادة التي تتعرض لها الدعوة ستوقفها بالتأكيد، كما أنه كان يثق في قدرة بني خالد في الأحساء على التخلص من تلك الدعوة، فاكتفى بمنعهم من الحج؛ لأنّ ذلك سيقوي معارضيها من الناحية المعنوية، وذلك على اعتبار أنّ أنصار الدعوة خارجون عن صحيح الإسلام، فتجاوز عنهم حتى وفاته في ١٧٥٩م..

اضطرب حال الحجاز بعد وفاة الشريف مسعود بن سعيد، ودار صراعٌ شديد بين الأشراف على الحكم، حتى تولى الشريف جعفر بن سعيد إمارة الحجاز في ١٧٥٩م، ثم تولى الشريف مساعد بن سعيد الإمارة في ١٧٦٠م، واستمر منع أنصار دعوة ابن عبد الوهاب من الحج، واستمرت العلاقة بين الدولة السعودية وأشراف مكة في حالة من الركود لفترة طويلة.

ومع ذلك استغل ابن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود تلك الظروف، وتوسعوا بشكل كبير في نجد وشبه الجزيرة العربية، واستمرت الدولة السعودية في التوسع ونشر الدعوة حتى أخضعت لحكمها الخليج العربي وبلاد اليمن وعمان وبلاد العراق، وهنا تدخلت الدولة العثمانية مرة أخرى، وأرسلت إلى واليها في العراق لمحاربة الدولة السعودية، إلا أنه فشل في صدهم، واستمر الأمر كذلك إلى أن توفي الإمام محمد بن سعود في ١٧٦٥م.

كان نظام الحكم في الدولة السعودية وراثيًا، وتؤخذ فيه البيعة قبل وفاة الإمام لابنه الأكبر، وتعهد ولاية العهد للابن الأكبر من أبناء الإمام الحاكم، وكان يُسند إليه قيادة الجيش،

وينوب عن والده في القيام بمهام الدولة عند غيابه للتمرس على شؤون الحكم، فخرج الناس لمبايعة الإمام عبد العزيز خلفًا لوالده، ونصبه حاكمًا للدولة السعودية، وهو ثاني أئمة الدولة السعودية، وبدأ في نشر الدعوة سريعًا، وترسيخ قواعد الدولة والتوسع فيها كما فعل أبوه، وعمل على فرض الأمن بالبلاد، حيث تابع مسيرة أبيه، ولم يكن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، يقطع أمرًا دون مشورة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولا ينفذه إلا بإذنه.

وما زالت الدولة السعودية تعاني من حالة المنع من الحج تلك، حتى سمح لهم الشريف مساعد بن سعيد في عام ١٧٦٩م بالحج، وذلك عندما قامت فرقة من أنصار الدرعية بالقبض على مجموعة من الحجازيين، كان من بينهم الشريف منصور، وحين أُحضِرُوا إلى الدرعية أطلقهم الإمام عبد العزيز بن سعود دون فدية، كما تعامل الإمام عبد العزيز مع الشريف منصور معاملة حسنة وأكرمه، وطلب منه أن يساعدهم في حصولهم على رخصة بالحج، فسمح لهم بالحج ذلك العام، وهو آخر عام لحكم الشريف مساعد.

ثم تولى الشريف أحمد بن سعيد - وكان يكره الأتراك- الحكم عام ١٧٧٠م، فاتبع سياسة الود والأخوة مع الدولة السعودية، فأرسل للإمام عبد العزيز بن سعود يطلب منه أن يرسل له عالمًا يوضح لهم حقيقة دعوتهم، فأرسل له أحد علماء الدعوة واسمه الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين، كان ممن انتقلوا إلى الدرعية إيمانًا بالدعوة، وطلب العلم على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأرسله الإمام عبد العزيز لتلك المهمة الخطيرة، كما أرسل الإمام عبد العزيز للشريف أحمد بن سعيد الهدايا، ورسالة وُد يطلب فيها السماح لهم بالحج، فسمح لهم بذلك، ولما تولى الشريف سرور بن مساعد إمارة الحجاز في ١٧٧٣م استمر على نفس طريقة سلفه، وسمح لهم بالحج أيضًا.

وقد استمر الأمر كذلك حتى تولى الشريف غالب بن مساعد إمارة الحجاز في ١٧٨٨م، فمنعهم من الحج مرة أخرى، وفي عام ١٧٨٩م طلب من الإمام عبد العزيز بن سعود إرسال أحد علماء الدعوة لمُنَاطرة علماء مكة للمرة الثانية، فأرسل لهم الإمام عبد العزيز -للمرة الثانية- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين، وفي نهاية المُنَاطرة، أخبر

عُلماء مكة الشريف مساعد بأن أنصار تلك الدعوة
وصاحبها:

"ليس عندهم إلا إزالة نهج آبائك وأجدادك، ومسك يدك عما
يصل إليه من خير بلادك" ..

وأصدر عُلماء مكة فتوى بوجوب قتال الشيخ محمد بن عبد
الوهاب وأنصار الدعوة إذا لم يعدلوا عن رأيهم.

ومنذ تلك اللحظة بات الشريف غالب شديد العداء للدعوة
وأنصارها، واعتبرهم خارجين عن الإسلام، ومنعهم من
الحج، ودارت مواجهات طاحنة بينهم، بدأها الشريف غالب
عندما حاول في ١٧٩٠م اقتحام نجد بأمر من الدولة
العثمانيّة، ولكنه عاد إلى مكة مهزومًا، ولم يكتفِ بذلك بل
قام الشريف غالب بأكثر من ٥٠ غزوة ضد الدعوة في نجد
والدرعية، وضد أنصار الدعوة في الحجاز وعسير.

ومع كل تلك الصراعات والحروب المتكررة في تلك الأثناء
وفي هذه البيئة غير المستقرة، ومع تشدد أنصار الدعوة
الوهابية مع العامّة من الناس في البلاد التي خضعت لها،
هاجر الكثير من أهالي شبه الجزيرة العربية حتى وصلت

أعدادهم إلى الآلاف بأسرهم وأبنائهم قاصدين بلاد العراق أو بلاد الشام أو مصر أو عاصمة الدولة العثمانية في الأستانة، وفي تلك الأثناء وتحديداً في عام ١٧٧٣م ظهرت جماعة أولاد يعقوب لأول مرة على الساحة النجدية كرد فعل طبيعي لمُستجدات الأمور في تلك الناحية.

حشد دهام بن دواس حاكم الرياض كل أتباعه وأنصاره في حروب الدولة السعودية -كما أشرنا سابقاً- وقرب إليه كلّ من يُعادي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان يعقوب العربي لصاً وقاطع طريق معروفاً، وقد قبع بالسجن لعدة سنوات، وما إن بدأت الدولة السعودية في حروبها الطاحنة مع دهام بن دواس حتى كان يعقوب العربي من الذين أخرجهم دهام بن دواس للمشاركة في الحروب ضد الدولة السعودية، فشارك يعقوب العربي في عدة معارك شديدة الوطأة ضد الدولة السعودية، وعندما هُزم دهام بن دواس وقرّر ترك الرياض خرج يعقوب العربي وزوجته وأبنائه من الرياض في ١٧٧٣م قاصدين العيش في الجبال، مُعتمداً في حياته وقوته على الغارات التي يشنها بين الحين والآخر

هو وأبناؤه على القوافل التجارية، وكانت زوجته (تومادر) تعاني من مرضٍ عُضال، فلم تتحمل العيش في الجبال، فزاد عليها المرض ولازمت الفراش لعدة أشهر، وما لبثت أن ماتت، فقام بدفنها في الصحراء بنفسه هو وأبناؤه دون تغسيلها!..

مع تواصل حروب الدولة السعودية كثر عدد الهاربين ممن رفضوا العيش تحت حكم الدولة السعودية الصارم، فتألف منهم يعقوب العريبي العدد الكبير، وبدأ مع مرور الوقت في تكوين جماعة من اللصوص وقطاع الطرق الذين قطنوا جميعًا الجبال، وبدؤوا يشنون غاراتهم على القوافل التجارية، ثم تطورت جرائمهم وتعدوا على كل البلاد والقبائل التابعة للدولة السعودية، بعيدًا عن عاصمة الدولة بالدرعية، وبدأ الناس يشعرون بوجود تلك الجماعة الهمجية الخطيرة بشدة، وسببوا إزعاجًا كبيرًا للعامة وللتجار على حدٍ سواء، وذاع صيتهم بشكل سريع، حتى وصلت ممارساتهم إلى الدولة السعودية، فنظم الإمام عبد العزيز مجموعة من الرجال يطوفون الصحاري والجبال بحثًا عنهم للقبض عليهم أو الفتك بهم، إلا أنهم فشلوا في الوصول

إليهم، فكرر الإمام عبد العزيز هذا الأمر عدة مرات حتى أعياء الرجال البحث عن تلك الحفنة القذرة من اللصوص وقُطَاعِ الطرُق، التي تختفي كالسراب، ولا تظهر إلا في أوقات انشغال الدولة بحروبها خارج حدودها.

عُرِفَ عن يعقوب العريبي وجماعته أنهم لُصوص وقُطَاعِ طُرُقٍ مُحترِفون، يمارسون القتل بلا رحمة، فأفسدوا الحياة على كل البلاد، يسرقون الأغنام والإبل والخيول، ويسطون على قوافل التجار فينهبونها ويقتلون رجالها ويسبون النساء، ويسترقون الأطفال والعبيد لبيعهم في أسواق النخاسة خارج بلاد نجد، ثم سرعان ما تطورت جرائمهم، فباتوا يسطون على البيوت والبلدان في وضح النهار، فيسرقونها ويقتلون من يقف أمامهم أو من يحاول منعهم من تنفيذ جرائمهم، حتى زادت وانتشرت تلك الممارسات بشكل مُفرِعٍ بين القبائل والعشائر، حتى عاش الجميع في فزعٍ وخوفٍ وترقبٍ مستمر، وفشلت الدولة السعودية في التصدي لهم ومنع تعديهم على القبائل والبلاد الخاضعة لها لانشغالها (الشديد) بحروبها الخارجية، وتركت أمرهم لشيوخ القبائل ففشلوا هؤلاء أيضًا في صدِّهم، وتلقوا منهم هزائم ساحقة ومُتكررة.

وفي سابقة غير معهودة باتوا يفرضون على القبائل والبلاد المنهزمة حصة من الأغنام والإبل والعييد، وحصة من مكاسب التجارة، يدفعونها لهم (صاغرين) مع مطلع كل شهر ليتلاشوا تخريبهم وسرقة قوافلهم التجارية في الأحساء والحجاز والشام وبلاد العراق، واستمر الحال كذلك لعام كامل، وتفشى الرعب والخوف بين البلدان وفي القبائل، والدولة السعودية عاجزة تمامًا عن صدّهم أو القبض عليهم، فلقد كانوا يظهرون فجأة ويختفون فجأة وكأنهم السراب، ولا يظهرون إلا وقت انشغال الدولة بحروبها الخارجيّة، فيغيرون على البلاد الأمانة فيعكرون صفوها، ونظرًا لكثرة عددهم وتسلّحهم القوي بالبنادق والسيوف والجِراب، وهجومهم المباغت الشرس لم تستطع القبائل المقاومة أو حتى الصمود أمامهم.

لقد قاد المُجرم الخطير المُتمرد على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعلى الدولة السعودية وأعراف القبيلة -القاتل يعقوب العريبي- تلك الجماعة، فكانوا مجموعة كبيرة من اللصوص والمجرمين وقُطّاع الطرق والقتلة الهاربين من محاكم قبائلهم، والهاربين من السلطات، وبعض من خلفتهم

معارك الإمام عبد العزيز بن سعود بشبه الجزيرة العربية، والقليل ممن قرروا الهجرة وترك شبه الجزيرة العربية لِمَا حلَّ بها من تطورات خطيرة، حيث قطنوا جميعًا الجبال وقبلوا الحياة القاسية في الجبال بدلًا من العيش في دولة ابن سعود، حيث فروا قاطعين الصحاري والجبال والوديان بحثًا عن ملجأ لهم فزاد عددهم، وانتشر اسمهم وذاع صيتهم بين القبائل، وعُرفوا باسم جماعة أولاد يعقوب، وكان من أهم رجال يعقوب العربيي أبناؤه الثلاثة: (العربي، وكليب، والأسد) حسب ترتيب أعمارهم.

لقد فرض يعقوب العربيي وجماعته الجباية بالقوة على الكثير من بلاد وقبائل نجد، حتى وصل تعديهم للقبائل المجاورة لمنطقة بلاد عين الآبار، ومثلوا خطرًا كبيرًا على استقرار الأمن بالدولة السعودية، ولم يتبقَّ إلا قبائل بلاد عين الآبار ومن خلفها ناحية إمارة الدرعية من لم تُفرض عليهم الجباية حتى الآن، فقبائل بلاد عين الآبار لم تكن تخضع للدولة السعودية، ومن ناحية أخرى كان يعقوب العربيي يعرف قوة وبأس تلك البلاد جيدًا، ولهذا لم يجازف بأن يطلب منهم إرسال حصة مفروضة من إنتاج القبيلة من

الإبل والخيول والأغنام، أو ما تجنيه القبيلة من مكاسب التجارة كغيرهم من القبائل الأخرى التي رضخت لهم.

كان يعقوب العريبي إنساناً همجياً، لا يُراعي حرمةً أو ديناً أو عادات أو تقاليد أو أعرافاً، مجرم خطير لا يهاب الموت، حاد الذكاء، قوي البأس، كلمته كالسيف وأوامره لا تُراجع، ولقد ورثه أبناؤه في إجرامه وقتله ولصوصيته، وكُونوا معاً قوة لا يُستهان بها، أما ابنه الأسد فكان أكثرهم لصوصيةً وشراسةً على الإطلاق، شاب قبيح المنظر في السابعة والعشرين من عمره، أسود اللون، قوي البنية، كبير الأنف، جاحظ العينين، يعشق الطعام ويهوي النساء، ويشرب الخمر في كل ليلة بشراهة، تنتن الرائحة، أهوج وشرس للغاية، عاشقٌ للقتل وسفك الدماء، ولا يعرف ديناً أو ملة أو شرفاً، شابٌ في غاية الشراسة، ماكرًا وحاد الطباع، صارم جدًا في أوامره، ولا يتهاون أبدًا في أي أمر يخص جماعتهم، حازم في قيادته ولا يقبل المناقشة، وكان جميع أفراد جماعتهم من اللصوص يخشونه ويتحاشون غضبه، كما كان والده يعقوب العريبي لا يرد له رأيًا أو يعلق على تصرف يفعله، وكان يراه الأنسب لقيادة جماعته من بعده في حال غيابه

لأى ظرف طارئ.. وعلى الرغم من صغر سنه عن باقي إخوته أصبح هو من يتولى قيادة جماعة أولاد يعقوب عند غياب والده، وكان رأيه الأهم من بين أولاد يعقوب، أو أي مجرم آخر من أفراد الجماعة من أصحاب الرأي والتدبير ووضع الخطط.

أما بلاد عين الآبار فبعد تولي الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إمارة الدولة السعودية، ودخوله في العديد من الحروب الخارجية، وبعد مرور عدة أعوام على حكمه، أراد أن يقوي جبهته الداخليّة، فأرسل مع بداية عام ١٧٧٥م مندوبًا إلى قبائل بلاد عين الآبار لتعديل اسم (عهد الحياد) وتغيير بنوده، بشكلٍ يستطيع الاستفادة من قوتهم ومالهم لمعاونته في تلك الحروب، وبعد مشاورات طويلة وافق الشريف علي ومن ثم شيوخ قبائل بلاد عين الآبار على تغيير بعض بنود العهد، وكانت أهم البنود التي تم تغييرها هو اسمه ومن ثم مضمونه، حيث تغير من عهد (الحياد) إلى عهد (الولاء) ولكن بشرطين وضعهما الشريف علي وأصرَّ عليهما:

أولهما: استقلال بلاد عين الآبار عن التنظيم الإداري داخل الدولة السعودية، بحيث تكون إدارتها كاملة لشيوخ قبائلها، ولا يُسمح بالتدخل من أحد في إدارة شؤونها الداخليّة.

أما الشرط الثاني فهو: ألا تُفرض على بلاد عين الآبار زكاة أو خراج لصالح الدولة السعودية، وذلك لأنّ لهم مصارفهم الخاصّة بهم، مع وقوفهم بجوار الدولة السعودية في صدها لأي عدوان عليها من الداخل فقط، وتدعيمها بالمال والسلاح والرجال (إن دعت الظروف لذلك) هذا مع احتفاظها بعدم دخولها في أي حروب خارجيّة تقودها الدولة السعودية.. وهذا البند كان الإمام عبد العزيز بن سعود يرفضه بشدة.

وما زالت المُفاوضات مُستمرة، إلا أن الرفض (الشديد) من جانب مندوب الإمام عبد العزيز بن سعود (المفوض من قبله للتفاوض) لا يبشر بخير أبدًا، وهو ما جعل شيوخ قبائل بلاد عين الآبار يضيّقون ذرعًا منه، وقرروا زيارة الإمام عبد العزيز بن سعود في مقر حُكمه بإمارة الدرعية، بل والإقامة هناك لحين إنهاء هذا التفاوض الهام بتلك الشروط الهامة، التي تضمن لهم قدرًا (ولو يسيرًا) من استقلالهم.

أنطلق الشريف علي وكل أعضاء مجلس شورى قبائل بلاد عين الآبار للدرعية عاصمة الدولة السعودية، وذلك للتفاوض مع الإمام عبد العزيز بن سعود، ولكنه كان مشغولاً بشدة في إدارة شؤون الدولة الخارجيه، فلم يتمكن من الاجتماع بهم إلا ساعة واحدة في عجل، وبعدها اعتذر لهم بسبب تلك الظروف الطارئة التي تمر بها الدولة، حيث الاستعداد لحرب جديدة في الأحساء، ولم يتوفق الطرفان خلال تلك الساعة في الوصول إلى رأي يرضيهم، فلقد بدا الإمام عبد العزيز بن سعود مُتَحَيِّزًا جدًّا لرأيه، ومُصِرًّا عليه إصرارًا شديدًا، وقبل نهاية المفاوضات استأذنتهم بالانصراف، وسمح لهم بالبقاء بالدرعية، وجهاز لهم مكانًا مناسبًا لضيافتهم والإقامة فيه، وجعل في خدمتهم ثلاثة من العبيد يُنفذون لهم كل طلباتهم، ويقدمون لهم كل احتياجاتهم من الطعام والشراب..

طال غياب شيوخ قبائل بلاد عين الآبار عن بلادهم لعدت أيام رغماً عنهم، إلا أنهم اجتمعوا وقرروا عدم العودة لديارهم إلا بعد الانتهاء من هذا الأمر وإبرام اتفاق جديد يضمن استقلالهم عن الدولة السعودية ولو بقدر يسير من

الاستقلالية، إلا أنهم باتوا لا يتوقعون ذلك، وقد تمكك منهم اليأس بشدة.. وفي تلك الأثناء ذاع خبر سفر شيوخ قبائل بلاد عين الآبار إلى الدرعية، وما ذيع وقتها بين القبائل أن سبب سفرهم هذا ما هو إلا ليُقَسِّموا يمين الولاء والطاعة للإمام عبد العزيز بن سعود، فلقد قَبِلُوا (أخيراً) الدخول تحت حكم الدولة السعودية بعد اتساعها وقوّتها، حتي وصل هذا الخبر لجماعة يعقوب العريبي، فقرر يعقوب العريبي أن يُغَيِّرَ على بلاد عين الآبار (الغنية)، كرد فعل على قبولهم الخضوع لحكم آل سعود، مُستَغلاً تلك الظروف الخاصّة التي تمر بها بلاد عين الآبار من غياب شيوخهم وأهل الرأي فيهم والعقول المدبره فيها، ومستغلاً أيضاً الظروف التي تمر بها الدولة السعودية؛ حيث استعدادهم الشديد للحرب في الأحساء، فأرسلوا رسولهم (القميء) برسالة لبلاد عين الآبار من ناحية الجنوب، ناحية ديار قبيلة فهر، أقل قبائل بلاد عين الآبار تحصناً وأسهلهم اختراقاً، سلّمها لأحد شيوخها حدد فيها مقدار الجباية المطلوبة من قبائل بلاد عين الآبار الأربع، وكانت جبايةً كبيرةً مقارنة بما يفرضونه على القبائل الأخرى، ففرض عليهم جباية قدرها ٢٠٠ رأس من الغنم والماعز، و ٥٠ رأس من الإبل،

و ٥٠ من الخيل، و ٥٠ من العبيد، يرسلونها مرة واحدة كل عام، وترك لهم الرسول الرسالة وانصرف، وطلب منهم تجهيز الجباية في غضون خمسة أيام فقط، وأخبرهم بأنهم سيأتون لأخذها في أي وقت بعد تلك المهلة، ولم يحدد لهم موعدًا أو وقتًا مُعينًا أو مكانًا للتسليم، حيث أخبرهم بأنه سيأتي مرة أخرى (وحده) للتأكد من تجهيز الجباية، وإن لم يجد الجباية كما جاء بالرسالة، هددهم بالهجوم على كل بلاد عين الآبار لتخريبها، وسيبدأ من قبيلة فهر...!

أسرع رجال قبيلة فهر حيث مركز إدارتهم بقبيلة زهير ليتباحثوا في الأمر،

فهذا أمر لم يكن متوقعًا علي الإطلاق، وتلك ظروف لم تعيشها بلاد عين الآبار منذ ظهور أولاد يعقوب، كما أنها لم تكن في حسابان شيوخهم وقادتها، ولكن لا يوجد من الشيوخ أصحاب الرأي وأهل الحل والعقد من يستطيع أن يجمعهم على كلمة واحدة، وما إن وصل خبر تهديد جماعة أولاد يعقوب لشن هجمة شرسة على قبائل بلاد عين الآبار حتى تجمع الفرسان والشيوخ والرجال جميعًا بديار قبيلة زهير لبحث الأمر..

علم الشاب بكري بن الشريف علي بن زهير بما كان من أولاد يعقوب كغيره من شباب القبائل الأربع، فطلب من فوره اصطفاف القبائل (فورًا) خلف قيادة واحدة لمقاتلة أولاد يعقوب وصدّهم عن بلادهم، بل وتتبعهم والقضاء عليهم تمامًا، لمنع تلك الجرائم التي زادت بشكلٍ مخيف في الأونة الأخيرة بشكل أقلق الجميع وأفزع النساء والشيوخ والأطفال بكل البقاع، إلا أنّ رجال وفرسان قبيلتي شداد ومالك رفضوا تحرّكهم، وانحاز له (فقط) رجال قبيلة فهر، كونهم أوّل المُهدّدين بالخطر، وأسهلهم اختراقًا، فإن قرر أولاد يعقوب الهجوم على بلاد عين الآبار سيكونون هم في مرماهم مباشرةً، فانحازوا لدعوة بكري بن الشريف علي بقوة، وأيدوها وشجعوا الرجال والفرسان عليها، ولكن قبيلتي مالك وشداد رفضوها لحين عودة كبار القبائل وشيوخهم أصحاب الرأي!... فإن كان الشريف علي صاحب الكلمة الأولي في بلاد عين الآبار وعقلها الراجح والمدبر، وصاحب المكانة المرموقة، وله الأمر على كل رجال وشيوخ القبائل الأربع ببلاد عين الآبار، بل أمره مُطاعًا بينهم، إلا أنّ ابنه الأكبر بكري لم يكن ينال نفس مكانة أو شرف والده في بلاد عين الآبار مجتمعة وبالتالي فليس له حق الطاعة!...

لم يكن الشاب بكري بن الشريف علي من بين ممثلي قبيلة زهير بمجلس شورى القبائل، فهو وإن كان شاباً متحمساً وثائراً، وفارساً مقداماً، وصاحب فكر ورأي منذ سنٍّ مبكرة، بل فقيهاً وعالمًا في المذهب الحنفي بقبائل بلاد عين الآبار، وله علاقات كبيرة وقوية بفرسان وشباب قبائل زهير ومالك وشداد وفهر، وقريباً من الجميع، إلا أنه ليس من أصحاب الرأي المطاع الذي لا يُراجع إذا كان الأمر يخص بلاد عين الآبار مُجتمعة.

كان بكري في التاسعة والعشرين من عمره، ولم يكن قد أُقِّبَ بالشريف وقتها، فعادةُ قبيلة زهير (الفريدة) أنها تمنح هذا اللقب لأبنائها بعد الزواج لتشجعهم على ذلك، وعلى الرغم من أن أمّه (صمود المالكي) كثيراً ما كانت تعرض عليه أسماء الفتيات الجميلات الفاتنات خاصة من قبيلة مالك وزهير، إلا أنه كان يرفضهن جميعاً لتكبرهن وعجرفتهن الفارغة - حسب وصفه لهن- كما أنه لم يكن يفكر في الزواج في تلك الفترة خلافاً لكل أقرانه، فهو يحب العلم ويهوى تحصيل العلوم والقراءة، ولقد أخذ ذلك جُل وقته، ولم يهتم بجانب التعليم والتعلم إلا بالفروسية كونها أمراً ضرورياً للرجال في قبائل بلاد عين الآبار، فأتقنها وأصبح فارسَ قبيلة زهير الأول.

أصبح لبكري منذ بلوغه سن الواحدة والعشرين مكانة معروفة بين فرسان قبائل بلاد عين الآبار، حتى كان الذئب بن شداد - فارس بلاد عين الآبار والمسؤول عن تدريب الفرسان- يضعه في مرتبة أولى بين فرسان بلاد عين الآبار، بل يرى أنه الأحق بقيادة فرسان بلاد عين الآبار من بعده، ويأتي من بعده - في مرتبة واحدة- أربعة فرسان آخرون هم أهم فرسان قبائل بلاد عين الآبار على الإطلاق، جميعهم في سن مُتقاربة من سن بكري، وكانوا جميعًا يتدربون معًا، ولكنّه ظهر عليهم بذكائه وفطنته وقدرته على التخطيط في الحروب، هذا بجوار شجاعته وإقدامه منقطعي النظير، وهؤلاء الفرسان هم : (بكر بن علي بن زهير، خالد بن زيد الفهري، عاقر بن الذئب بن شداد، مالك بن ربيع المالكي) ثم يأتي بعدهم عددًا كبيرًا من فرسان بلاد عين الآبار، ولكنهم في مرتبة أخرى أقل منهم بكثير.

كان بكري شابًا مُتطلعًا صاحب فكر ورأي وحكمة، تربي على طاعة الله، ونشأ على الالتزام بأوامر الدين، وتأثر بأمه تأثرًا شديدًا في تواضعها الشديد، وتقريب العبيد لها،

ومعاملتهم برفقٍ ولينٍ وحب، فكان يتقرب إليهم بشكلٍ مغاير تماماً لغيره من السادة في بلاد عين الآبار أو حتى خارجها، وتعامل معهم كأصدقاء مُقربين، وكان له علاقة قوية ببعض العبيد فيخرج معهم في رحلاته للصيد، يجلس معهم في أوقات الفراغ، يتسامر معهم بل ويتناول من طعامهم، ويتناولون من طعامه، تقرب منهم حتى عرف مشاكلهم وكان يعمل علي حلها بجد وحب على قدر استطاعته، متواضعٌ لهم بشكل كان يثير غضب والده وباقي إخوته، حتي أنه كثيراً ما كان يدخل مع والده في مناقشات حامية بسبب معاملته (الشاذه) لهم - حسب وصف والده - فذلك الأمر غير معهود من قبل بين سادات القبائل، والعرف في القبائل يضع السيد في مكانة خاصة بعيداً عن العبيد، وهو بذلك يخالف تلك الأعراف والموروثات، ومع ذلك كان بكري يرى أن الإحسان للعبيد وحسن معاملتهم أمرٌ وواجب شرعي حثنا عليه رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد فهم العبيد ذلك جيداً حتى أحبوه وكرمواه على غيره، وكانوا يلجؤون إليه في كل مشاكلهم، وكانوا يعدونه الملجأ الأول لهم في بلاد عين الآبار قاطبة..

من أهم الأشياء التي قدمها بكري لعبيد بلاد عين الآبار هو حصوله على موافقة بتدريبيهم على حمل السلاح وأمر الفروسية والقتال كغيرهم من شباب وفرسان بلاد عين الآبار، حيث طلب من الذئب بن شداد تدريبيهم لرغبتهم الشديدة في ذلك، ولمصلحة بلاد عين الآبار أيضاً، فوافق الذئب على ذلك (شريطة) موافقة مجلس شورى القبائل على ذلك، وصدور قراراً مهوراً من مجلس شوري القبائل كعادة العمل في بلاد عين الآبار.

كان فارس بلاد عين الآبار الذئب بن شداد يحترم بكرياً ويقدره رغم فارق السن بينهما، فبكري لا يكبر عاقراً ابنه الأكبر إلا بعامٍ واحد، ومع ذلك كان له بقلبه معزة خاصة لتواضعه الشديد للجميع ولحسن سيرته وأخلاقه الرفيعة وعلمه الغزير، وفكره المستنير وحبه لبلاد عين الآبار الجلي للجميع في كل أموره وتصرفاته، وعلى الفور عرض الذئب بن شداد الأمر المقترح من بكري على شيوخ بلاد عين الآبار بمجلس شورى القبائل، حيث كان للذئب بن شداد الحق التام للحضور في اجتماعات مجلس شورى القبائل في حالة وجود أى أمر طارئ أو عارض يخص الأمور (العسكرية) في بلاد عين الآبار، وحدث لغط كبير

في هذا الشأن، فانقسم أعضاء مجلس شورى القبائل إلى قسمين، منهم من وافق عليه ومنهم من رفضه بشدة، فطلب بكري أن يحضر اجتماع مجلس شورى القبائل لمناقشة الأمر وليعرض الأمر بطريقته، ولم يكن مجلس شورى القبائل يمنع أمورًا كذلك، فحضر (لأول مرة) اجتماع مجلس شورى القبائل، وبحنكةٍ وذكاءٍ شديدٍ وقف يقول:

- فتیان (يقصد العبيد حيث كان يرفض بشدة مناداتهم بلفظ العبيد احترامًا لمشاعرهم وتنفيذًا لأمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك) بلاد عين الآبار ملكٌ لنا، وأي إنسان يأمل في أن يكون مملوكه يُجيد كل الفنون، فماذا إن كان فتیاننا يجيدون الكر والفر وشؤون الفروسية بجوار إجادتهم رعي الأغنام والماعز وحلب النوق والشيء وعلف الإبل والخيول وجمع الحطب وملء القرب والأزيار بالماء...؟! لا شك بأننا سنستفيد من ذلك..

فرد الشريف علي قائلاً:

- ولكننا الآن لا نحتاجهم للقتال.. ففرسان بلاد عين الآبار كثر، وبلادنا بلاد سلم، كما أنّ الحلف يمنع مشاركت العبيد في حروبنا خارج ديارنا، فما الحاجة إلى تدريبهم إذن...؟!

- ما الغضاضة في تدريبهم وتعليمهم فنون الفروسية والقتال والكر والفر...؟! وإن كنا حقاً بلاد سلّم ومطمئنين في بلادنا حقاً.. إذن ما الحاجة لتدريب الفرسان من الأصل...؟! فنحن لا نعرف ما يخبئه لنا القدر، كما أنه بتدريبهم تلك الفنون سيكون لدينا عددًا كبيرًا من الفرسان الشجعان، وهذا أمر محمود وفي مصلحة بلادنا، ونحن بالطبع لن نستخدمهم في حروبنا خارج حدود البلاد، فأنا أعلم أنّ الحلف يمنعنا من ذلك، ولكنّ الأمر لا يخلو من هجوم مباغتٍ من لصوص أو غزاة، كما أنّ قوافلنا (ها هي) تخرج قاصدة بلاد الشام والحجاز والأحساء، فما المانع أن يكون حُرّاس القوافل من الفتيان...؟! وبهذا سنرفع عبء سفر الفرسان مع القوافل هنا وهناك الذي يرهقهم ويزيد عليهم الأعباء... ففي كل الأحوال لن نخسر شيئاً من تدريبهم الفروسية إن لم نستفد منه بالفعل..

فعلق الشيخ عامر الفهري - وكان من أعضاء مجلس شورى القبائل أصحاب الرأي- قائلاً:

- ولكن كيف نسمح لعبيدنا أن يُخالطوا فرسان القبائل ويتدربوا معهم...؟!!

فقال في ثقة - بعدما شعر من اقتراب الموافقة على طلبه - وكان قد توقع أن تُثار مثل تلك المسألة، ولكنه كان قد رتبها من قبل- مع الذئب بن شداد، وجهاز لها الرد المُقنع، الذي سِيرُضي غرور شيوخ قبائل بلاد عين الأبار، ويحافظ به على كبريائهم وأنفتهم:

- لا مانع أبداً من تدريبهم في يوم خاص بهم، وفي فرقة خاصة بهم فقط، تسمى فرقة الفتيان، لا يُشاركهم فيها أحد من السادة، ولكم حق اختيار وتحديد هذا اليوم كما تريدون...!

وبهذا الرأي تمت الموافقة على تدريب العبيد بالإجماع، وحدد لهم الذئب بن شداد يوماً خاصاً بهم في كل أسبوع، يتجمع فيه عبيد بلاد عين الأبار فقط، ولم يكن يحضر في هذا اليوم من سادة فرسان بلاد عين الأبار إلا بكري فقط، حتى لا يُشعرون بدناءتهم أو وضاعتهم أو قلة شأنهم، فكان يُشجعهم على التدريب، ويبث فيهم روح المثابرة والصبر على تدريبات الذئب بن شداد القاسية، بل كان يذهب بنفسه لمساكنهم في اليوم المُخصص لهم، ويجمعهم من كل قبائل بلاد عين الأبار ويحضر بهم إلى ساحة التدريب، كما كان

يُساعد الذئب بن شداد في تدريبهم.. وهذا ما رفع كثيرًا من معنوياتهم، وزادت ثقتهم بأنفسهم، كما بدؤوا يشعرون جميعًا أن لهم ظهرًا وسندًا يُطالب لهم بحقوقهم وينفِّذ لهم رغباتهم -التي كانوا يرونها حلمًا بعيد المنال- فزاد ذلك من قَدْره في قلوبهم وأحبوه حبًّا جمًّا، كما قدموه على كل ساداتهم..

وما لم يكن في الحسبان وأدهش رجال وشيوخ بلاد عين الآبار تلك الاستفادة العظيمة والهامة للغاية التي استفادت منها بلاد عين الآبار من تدريب العبيد للفروسية، فلقد ظهر بينهم (في وقتٍ قياسي) فرسان أقوياء وأشداء فاقوا فرسان سادات بلاد عين الآبار بكثير، كما بات فرسان العبيد هم من يخرجون مع قوافل بلاد عين الآبار لِحراستها، وهذا ما رفع عن كاهل الفرسان الكثير من التعب والمعاناة الشديدة التي يلاقونها في كل رحلة تجارة، كما بات سادة بلاد عين الآبار مطمئنين أكثر بكثير على ماشيتهم في مراعيهم ومزارعهم الواسعة، لوجود بعض فرسان العبيد بشكلٍ دائمٍ هناك.

كان للسيدة صمود المالكي دورًا كبيرًا وعظيم في تنشئة ابنها الأول بكري، فلقد دفعته بشدة إلى حفظ القرآن الكريم،

فحفظه في سن مبكرة، كما شجّعته أيضًا على التعلم، وكانت تدعوه دائمًا منذ صغره بالفقيه والعالم الجليل بكري بن علي، وكانت ترفع لديه قيمة هذا اللقب عاليًا على غيره من الألقاب الأخرى (كشيخ القبيلة أو التاجر الكبير أو حتى الشريف) وكانت تخبره دائمًا قائلة:

- إنَّ لقب الفقيه قد تأتي بعده كل تلك الألقاب ولا غضاضة.. أما تلك الألقاب فلن يأتي بعدها لقب الفقيه أبدًا...

ولاشك أن ذلك أثر كثيرًا على نشأت بكري بشدة، فأحب العلم والفقه وبرع فيهما، حيث انتقل ليتعلم تفسير القرآن الكريم والفقه والحديث وعلوم الشريعة بالمدرسة الحنفية، فأصبح عالمًا له وزنه وقيّمته بين علماء قبائل بلاد عين الأبار، وكثيرًا ما تفاخرت به أمه بين نساء بلاد عين الأبار، فهو الفقيه العالم والفرسُ المقدم، فكان الأحب لها من أبنائها لتواضعه الشديد مع الناس بجانب علمه الغزير، كما كان بكري يحب أمه حبًّا جمًّا، ويقدرها تقديرًا كبيرًا، فلم يكن لباقي أبنائها نفس مكانته في قلبها، فأبناؤها (بكر، وبكير، ومحمد) كانوا أقرب لوادهم منها، فكانوا كغالبية

شباب القبائل الأخرى، تعلموا في الكتاتيب ولم يكملوا دراستهم بالمدرسة الفقهية الحنفية، على الرغم من تشجيعها لهم ومحاولاتها المستمرة معهم، ولكنهم كانوا يهتمون بمتابعة أمور الرعي والزراعة والتجارة وتعلم الفروسية، فتركهم لتلك الأمور، وجعلت جُل تركيزها مع بكري، ولاهتمام بكري البالغ بالعلم والدراسة والاطلاع أصبح مُتفتحًا مستنيرًا خِلافًا لغيره ممن في عمره، وله آراء تُخالف ما سنَّه علماء بلاد عين الآبار، حيث رفض الاجتهاد في المسائل الفقهية.

لا ننكر أن الشريف علي كان يترك لابنه الأكبر بكري مساحة كبيرة في حياته (وذلك خِلافًا لباقي أبنائه) يُعلق على أفعاله وقد ينتقدها بشدة، إلا أنه مع ذلك لم يكن ليجبره أبدًا على فعل شيء لا يقتنع به، وذلك حتى يجعل له شخصية مُستقلة بذاتها فكريًا وعلميًا وعمليًا، حيث اتبع مع أبنائه جميعًا سياسة والده الشريف فاضل معه من قبل، التي جعلته فيما بعد كبير بلاد عين الآبار برضاء وقناعة كل شيوخها وعلمائها وزعمائها على الرغم من أنه كان أصغر زعماء قبائل بلاد عين الآبار سنًا في تلك الفترة.. ولقد نجحت تلك الطريقة التي اتبعها الشريف علي مع ابنه بكري دون باقي

أبنائه، فأبنائه الثلاثة الآخرون مُلازمون له دائماً، يعيشون تحت أمره مطيعين له تماماً، لا يناقشونه في شيء حتى ولو ظهر أمامهم بأنه خطأ عظيم، حتى إنه زوّجهم جميعاً في عام واحد حسب رغبته الخاصّة، واختار لهم زوجاتهم بنفسه، فزوّج بكرّاً من قبيلة مالك، وزوج بكبيراً من قبيلة فهر، وزوج محمداً من قبيلة زهير، أما بكري فلقد رفض تلك الطريقة تماماً، كما رفض فكرة الزواج من الأصل خلال تلك الفترة...

كان الشريف علي يعرف قدر ابنه بكري جيداً، وكان لبكري عنده مكانة خاصّة جدّاً، فلم يكن يأمره بشيء أبداً كباقي الآباء، بل يستشيرَه كشرّيك في القرار وله رأي مُطاع أحياناً كثيرة، فهو يعلم جيداً أنّ ابنه بكري (فقط) هو من يصلح ليحل محله في قبيلة زهير، بل ويرى أنه لا بد وأن يحل محله في بلاد عين الأبار، فلا يصلح أحد غيره من أبناء قبيلة زهير لذلك الأمر العظيم، ولهذا تركه يُخطط لحياته حسبما يشاء، فكان له رأي مُستقل تماماً، وأصبح له دوراً كبيراً في إدارة شؤون قبيلة زهير عند غياب والده، والمرجع الأول لهم في شؤون القبيلة - وقت غياب والده - على الرغم من صِغر سنه، حتى أفصح الشريف علي بذلك

في نقاشٍ طويلٍ مع زوجته صمود المالكي في وجود أبنائه وزوجاتهم، وذلك بعد صدور قرار تعليم العبيد للفروسية من مجلس شورى القبائل حيث أنهى حديثه قائلاً:

- كان لي رأي في قبيلة زهير عند بلوغي سن الأربعين، وأصبح لي رأي في بلاد عين الأبار عند تلك السن أو أكبر بقليل، أما بكري فأصبح له رأي في قبيلة زهير قبل بلوغه الثلاثين بأعوام، كما أصبح له رأي في بلاد عين الأبار في نفس ذات السن.. ولكن ما يختلف فيه عني أنه سيكون له أثرًا كبيرًا سيتمد ذات يوم إلى طريقة حياة الناس أنفسهم في بلاد عين الأبار.

كادت نبوءة الشريف علي أن تتحقق سريعًا، فبعد حادثة العبيد وحق تعلم الفروسية بشهورٍ قليلة أثار بكري دعوةً (جريئةً جدًّا) تجديديَّةً على نطاق كل بلاد عين الأبار، شجَّعته أمه في البداية عليها بعدما تناقش معها فيما يدعو إليه، فاقتنعت بأفكاره ودعمته دعمًا معنويًا كبيرًا (في الخفاء) حتى لا تُثير غضب زوجها الشريف علي، خاصةً أنه كان يرفض تلك الدعوة بشدة، بل هو من كان له دورًا كبيرًا في إجهاضها!..

ذات يوم اجتمع الشاب العالم بكري بن علي مع بعض شباب علماء قبائل بلاد عين الآبار بالمدرسة الحنفية المُقربون له، وتناقشوا وتدارسوا بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار بدقة شديدة، فعلق بكري (ورفض) بعض بنود الحلف، وطالب بتغييرها أو تعديلها حتى تتماشى مع ظروف العصر الحالي لقبائل بلاد عين الآبار، فوافق شباب علماء المدرسة الحنفية على تلك الدعوة التجديدية وتحمسوا لها بشدة، كون تلك البنود لا تصلح مُطلقاً لظروف تطور بلاد عين الآبار في تلك الفترة، وتحركوا جميعاً دفعة واحدة يعرضون آراءهم (التجديدية) على شيوخ القبائل والعلماء، عُرفت تلك الدعوة وقتها باسم (دعوة المدرسة الحنفية التجديدية) كون من قاد تلك الدعوة وفجرها هم شباب علماء المدرسة الحنفية في بلاد عين الآبار.

كانت تلك الدعوة (في الحقيقة) قد أثّرت من قَبْلُ عند بداية تكوين مجلس شورى القبائل، قادها في ذلك الوقت العالم الجليل والرجل الحكيم الفاضل صاحب العقل الناضج الشيخ ربيع بن حمد المالكي، من قبيلة مالك، وأيده في ذلك القليل من العلماء والشيوخ، واعترض عليها الكثير من شيوخ بلاد

عين الآبار.. كانت تلك الدعوة بغرض تعديل بعض بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار وإضافة بنود أخرى للحلف تتماشى مع ظروف بلاد عين الآبار في الوقت الراهن..

كان السبب الرئيسي الداعي لتلك الحركة التجديدية ثلاثة أمور أساسية واجهت الشيخ ربيع المالكي بشكلٍ شخصي فوقف عندها، ودفعته تلك الأمور الثلاثة للتحرك في دعوته التجديدية (الناقصه)، فعرضها على شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، فوافق عليها القليل واعترض عليها العدد الأكبر من شيوخ مجلس شورى القبائل، وكان أول مناهض لها وبشدة هو كبير بلاد عين الآبار الشريف علي بن زهير، الذي خاف على تحريف بنود الحلف، ذلك الموروث الأهم والأعظم لبلاد عين الآبار، حيث اعتبر نفسه حامي حماه الأول والمدافع عنه ورفض بشدة قائلاً:

- لن أسمح بتحريف ميراث الأجداد في عهدي، حتي ولو دفعت دمي فداءً له..!

كانت أول بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار التي أثارت حفيظت الشيخ ربيع المالكي هو البند الخاص بتربية الأغنام والماعز والتجارة فيها... فالشيخ ربيع المالكي من التجار

الكبار بقبيلة مالك، وكان له تجارة كبيرة عظيمة تعتمد على الماعز والأغنام بشكلٍ كبير، ورأى أنّ هذا البند قد انتفت أسبابه، كما أنه يتعارض بشدة مع ظروف بلاد عين الآبار في الوقت الراهن وما تقتضيه المصلحة العامة لبلاد عين الآبار.

كان مفاد هذا البند أنه:

(يمنع منعًا باتًا على كل المربين والتجار بقبائل بلاد عين الآبار ذبح أو بيع الأمهات من الأغنام والماعز!).

وعلى الرغم من أنه يبدووا للوهلة الأولى كونه بندًا غريبًا للغاية، يجعلك تقف عنده كثيرًا، غير أنه كان له أسبابه الوجيهة في وقته.

كان الغرض من وضع هذا البند في حلف قبائل بلاد عين الآبار، أنّ بلاد عين الآبار تعرضت لوباءٍ شديد ومرض خطير أصاب الأغنام والماعز في فترة معينة، ماتت على أثره غالبية أمهات الأغنام والماعز- الذين كانوا يعتمدون عليها في زيادة حجم القطيع- فأراد شيوخ بلاد عين الآبار (وقتها) أن يُحافظوا على أمهات الأغنام والماعز القليلة المتبقية، فقرروا هذا الأمر فيما بينهم، وبالمصادفة البحتة

كان ذلك في نفس العام الذي تمت فيه كتابة وصياغة بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار، فوضع هذا البند لأهميته الشديدة وقتها، وسن له قانون بذلك في الحلف، واتفقوا فيما بينهم (شفاهةً) على أن يتم تعديله في وقتٍ لاحق، ومنذ تلك اللحظة أصبح هذا البند قانوناً من قوانين بلاد عين الآبار (الأمرة) الذي لا يمكن تغييره، فلقد أهمله شيوخ القبائل وقتها ولم يغيروه، ومن جاء بعدهم اعتبروه قانوناً لا يجوز الخروج عليه، على الرغم من معرفة الأسباب الحقيقية لوضعه بالحلف، لدرجة أنهم كانوا ينتظرون موت أمهات الأغنام والماعز ولا يقومون ببيعها أو ذبحها!.. وهذا ما كان يسبب لهم - بالتأكيد- خسائر كبيرة غير مُبررة، ولكن احترامهم الشديد لأجدادهم وحلفهم (المقدس) جعلهم يرفضون تغيير أو تعديل هذا البند رغم ما يُلاقون من خسائر!.

تلك هي المسألة الأولى التي وقف عندها الشيخ ربيع المالكي وناقش أسبابها وحلها، فاعتبر أن هذا البند لا مبرر حقيقي لوجوده حتى الآن، بل ويجب حذفه فوراً من بنود الحلف.

أما البند الثاني فكان بخصوص أمر اجتماعي بحت في بلاد عين الآبار.. فحلف قبائل بلاد عين الآبار حلفاً جامعاً وشاملاً، جمع فيه مؤسسو بلاد عين الآبار كل تعاملاتهم وممارساتهم الحياتية (السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية أيضاً) فكانوا يلجؤون له في كل تعاملاتهم، ومن ضمن البنود التي وقف عندها الشيخ ربيع المالكي بند خاص بعيادة المريض كواجب اجتماعي وديني في قبائل بلاد عين الآبار.

فلقد أوجب حلف قبائل بلاد عين الآبار في أحد بنوده على كل أفراد قبائل بلاد عين الآبار ضرورة زيارة المريض في بلاد عين الآبار، وفي حالة عدم زيارة أحد أفراد قبائل بلاد عين الآبار لأي مريض منهم لأي سبب، كان لهذا المريض الحق الكامل في مقاضاة هذا المتكاسل أو المتقاعس عن زيارته، وله -طبقاً لبنود الحلف- أن يغرمه بما يشاء، بشرط موافقة شيوخ قبائل بلاد عين الآبار على ذلك، ولقد حدد الحلف زيارة واحدة فقط على الأقل تعفي الرجل من المساءلة والمثول أمام قضاة القبيلة لهذا السبب..

كان للشيخ ربيع المالكي صديق اسمه الشيخ راغب بن مساعد الفهري، من قبيلة فهر، أصيب بمرضٍ عضالٍ أقعده في فراشه لمدة ثلاثة أعوام كاملة، وما لاحظته الشيخ ربيع المالكي أنّ رجال بلاد عين الآبار توقفوا عن زيارته في بيته منذ عام كامل، حتى أصبح لا يُذكَر بينهم على الإطلاق، واكتفوا بذكر أبنائه الذين حلوا محله في أمور التجارة وفي كل أمر يخصه ببلاد عين الآبار، وهذا ما أثر بشدة على نفسية الشيخ راغب بن مساعد الفهري، وحزن لهذا الإهمال حُزناً شديداً، فأثار هذا التصرف حفيظة الشيخ ربيع المالكي بشدة، ولما تحدث مع بعض شيوخ بلاد عين الآبار في هذا التقصير والاعفال الشديد، تمسكوا جميعاً ببنود حلف قبائل بلاد عين الآبار، بل أقر أحدهم أنه زار الشيخ راغب الفهري أكثر من خمس مرات، في حين أنه ليس له في حقه إلا مرة واحدة طبقاً لبنود الحلف...! وهذا ما دفعه إلي التفكير في ضرورة تغيير هذا البند من حلف بلاد عين الآبار.. فلقد رأى الشيخ ربيع المالكي أنه لما وضع الأجداد هذا البند، ونصوا على وجوده ضمن بنود الحلف، كان الغرض الرئيسي منه في الأصل توطيد علاقات المودة

والمحبة والمؤاخاة بين أبناء قبائل بلاد عين الآبار، وتقديم يد العون لبعضهم عند حالة عجز أحدهم والوقوف بجانبه، ولكن بتلك الطريقة التي انتهجها الأفراد في بلاد عين الآبار خرجت الزيارة بهذا (التحديد العددي) من الهدف الأساسي لها والغرض السامي من الزيارة، فالزيارة ليست في ذاتها وفي عددها، وإنما الزيارة وُضعت لأغراض أخرى انتفت تمامًا بين الأفراد في قبائل بلاد عين الآبار.

أما الأمر الثالث والأخير الذي دفع الشيخ ربيع المالكي دفعًا للتحرك في دعوته، هو أمر التجارة خارج بلاد نجد...!
فلقد جاء بأحد بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار الخاص بالتجارة الآتي:

- في حالة التجارة في حواضر بلاد نجد والبيع للقبائل المُجاورة، وجب على تُجار قبائل بلاد عين الآبار تحديد سعر موحد لجميع السلع التي سيبيعها التجار أولاً، على أن يحقق هذا السعر مكاسب معتدلة للتجار دون مغالاة على أحد، وحتى لا تتعارض أسعارهم بالسوق خارج بلاد عين الآبار، فيضُرُّ هذا التعارضُ تجارة بلادهم ويعرضها للكساد.

وكان هذا البند من البنود الهامة جدًّا التي تقوم عليها تجارة بلاد عين الآبار، والذي يراعيه التجار بشدة، حيث يجتمع التجار في بلاد عين الآبار -قبل خروج قوافلهم- فيحددوا أسعارًا واحدة لسلعهم، فيضعون سعرًا موحدًا للتمر، وأسعارًا متوسطة لرؤوس الماعز والأغنام والخيول والإبل، وكانت تلك الأسعار مناسبة وفي متناول الجميع، بحيث يحققون من وراء تجارتهم مكاسب معتدلة، ولا يغالون على الناس، ولا يسمح حلف بلاد عين الآبار لأحد من التجار تخطي تلك الأسعار المتفق عليها مسبقًا أو حتى النزول عنها لأي سبب كان، وهذا ما أكسب تجارتهم مكانة خاصّة بين التجار في نجد قاطبة، حيث كان التجار (في حواضر نجد وأقطارها) ينظرون إليهم دائمًا بأنهم أصحاب أمانة وصدق وشرف، وكانت الناس تتهافت على تجارتهم ويتسابقون للحصول عليها والشراء منهم أولاً دون غيرهم..

وذات يوم قام الشيخ أبو زهرة بن عابد المالكي -أحد شيوخ قبيلة مالك الكبار- بتجهيز قافلة كبيرة قاصدًا بلاد الحجاز، وهو أحد أغنياء بلاد عين الآبار المعدودين، وكانت تجارته تقوم في المقام الأول على تربية الإبل والنوق والخيول

والتجارة فيها.. فكان يقوم بتربيتها ثم بيعها خارج بلاد عين الآبار، وكان يحقق منها مكاسب طائلة، أما الماعز والأغنام فلم يكن ممن يشتغلون بتربيتها أو التجارة فيها إلا نادراً جداً، وفي رحلته تلك إلى بلاد الحجاز قام بتحديد أسعار زهيدة جداً لرؤوس الماعز والأغنام (القليلة) في قافلته التجارية مقارنة بكل تجار بلاد نجد المتوجهون بتجارتهم لبلاد الحجاز، وذلك حتى يُقنع المشتريين من التجار بأن أسعاره متواضعة وزهيدة للغاية، وهذا ما جعلهم يتوافدون في جماعات على قافلته (التي رفع فيها سعر النوق والإبل والخيل) فحقق في تلك القافلة مكاسب كبيرة جداً، وعندما حضرت قافلة الشيخ ربيع المالكي ومن معه من بلاد عين الآبار، وكانت قافلتهم قاصرة على أعداد كبيرة من الماعز والأغنام، وجدوا الشيخ أبو زهرة المالكي قد حدد سعراً زهيداً جداً للماعز والأغنام يُخالف ما اتفق عليه التجار في بلاد عين الآبار، وهذا ما اضطرهم للبيع بنفس أسعاره، لإحجام تجار الحجاز عنهم وعن بضاعتهم، خاصة أن تجار الحجاز كانوا يعرفون جيداً أنهم من نفس بلاد الشيخ أبو زهرة المالكي، فخرست القوافل بسبب عدم التنسيق بينهم

وبين الشيخ أبي زهرة، وعند عودتهم إلى بلاد عين الآبار
قرروا عرض الأمر على مجلس شورى القبائل، وتمسك
الشيخ ربيع المالكي ومن معه من تجار بلاد عين الآبار
بمخالفة الشيخ أبو زهرة بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار،
وطالبوه بتعويضهم عن خسارتهم، ولكن ما أدهشهم بشدة أن
الشيخ أبو زهرة حاججهم بأنه متمسك أيضًا بنود الحلف..!
فلقد ادعى أنه لم يُخالف بنود الحلف مُطلقًا...!

فلقد تحجج الشيخ أبو زهرة بالبند الخاص بالاتفاق على سعر
موحد لبضائع بلاد عين الآبار، ووضح بأن هذا البند الذي
يتمسك به تجار بلاد عين الآبار هو بندًا خاصًا (فقط)
بالتجارة في حواضر بلاد نجد، وليس له علاقة أبدًا بالتجارة
في بلاد الحجاز، فالأجداد لم يتاجروا في بلاد الحجاز من
الأصل، فكيف يُطبق عليه هذا البند...؟! وبعد سجلات
ومناقشات طويلة قرر مجلس شورى القبائل الحكم لصالح
الشيخ أبي زهرة ولم يغرموه بشيء...! فعلق الشيخ ربيع
المالكي على هذا القرار غاضبًا بشدة، وذكرت لأول مرة
في بلاد عين الآبار كلمة (تجديد) حيث قال:

- هذا جمودٌ وتمسكٌ بظاهر (البند) دون محاولة فهمه أو معرفة مقصده الحقيقي، فما وُضع هذا البند إلا لإظهار تماسك بلاد عين الآبار، وتحقيق مكاسب للمجموع، والتمسك بظاهر البند سيوقع الضرر بنا جميعًا، وأنا أرى أن نقوم جميعًا (بتجديد) بنود حلف بلاد عين الآبار حتى تتناسب بنوده مع التطور الحالي لبلادنا.

لم يقف الشيخ ربيع المالكي أمام هذا الجمود والتقليد الأعمى، وطالب بضرورة تغيير كل تلك البنود المخالفة لواقع بلاد عين الآبار وحث الجميع على ذلك، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُطلب فيها أمر كهذا في بلاد عين الآبار، ونعت دعوته بالتجديد، وانحاز له عددًا كبيرًا من شيوخ وتجار بلاد عين الآبار كان في طليعتهم من تضرروا من تصرف الشيخ أبوزهرة المالكي الأخير، وعُرف الشيخ ربيع المالكي في ذلك الوقت بشيخ المُجددين.. وفي المقابل تصدى لتلك الدعوى عددًا كبيرًا من الشيوخ كان أبرزهم الشيخ أبو زهرة المالكي، لخلافه الشديد مع الشيخ ربيع المالكي من جهة، حيث رأى أن من أيد تلك الدعوة وروج لها بقوة هم التجار الذين سبق لهم تقديم شكوى ضده بمجلس

شورى القبائل، ومن جهة أخرى أنه كان كغيره من شيوخ بلاد عين الآبار يبجل الأجداد ويحذوا حذوهم بشدة، ويفخر بشدة بكل ما قاموا به وقدموه في حياتهم لبلاد عين الآبار حتى تصل لتلك المكانة، هذا مع التقليل الدائم من شأن من جاؤوا بعدهم (حتى من نفسه) عند مقارنتهم بأجداده.. فجمع معه عددًا كبيرًا جدًّا من أنصار الجمود والتقليد، وكان يدعمهم الشريف علي بقوة، وتم عمل اجتماع بمجلس شورى القبائل خصيصًا لذلك الأمر، ودار نقاشٌ طويل بين لواءين أساسيين هما:

- لواء المُجددين الذي يهدف إلى تحقيق المصلحة العامّة لبلاد عين الآبار وتقديمها على أي شيءٍ آخر، يقوده الشيخ ربيع المالكي وقليلٌ من العلماء والشيوخ والتجار.
- لواء المُحافظين الذي يهدف لحماية تراث الأجداد الذي كان سببًا رئيسًا في رفعة شأن بلاد عين الآبار، وكان يقوده الشريف علي وبجواره الشيخ أبو زهرة المالكي وغيره من الشيوخ والعلماء والتجار.

وفي اجتماع مجلس شورى القبائل وقف الشيخ ربيع المالكي يقول:

- التجديد ليس أمرًا مشروعًا وجائزًا فحسب، بل هو ضرورة مُلحة، فبدون التجديد تحدث الفجوة بين بنود الحلف الذي وضعه الأجداد ومقتضيات ومُتطلبات الواقع المُتغير والمُتطور دائمًا وأبدًا، فلو ساد الجمود والتقليد سيؤدي ذلك إلى انفلات الواقع المُتطور من حكم الحلف، حيث يظهر لنا عجز الحلف الشديد في أن يصبح صالحًا لكل الأزمان التي نعيشها، فحكمة الحلف لتصرفاتنا مرهونة بالتجديد الدائم لبنوده لمواكبة مُقتضيات ومُتطلبات ومُستجدات الواقع المُتطور، وللأسف الشديد، حلف بلاد عين الآبار قد شابه الكثير من الزوائد التي لا محل لها، كما شاب بنوده الكثير من النواقص التي خلقت فراغًا كبيرًا لما هو مُستجد، فنفت المقصد الأساسي من وضعه، ولهذا يحتاج الحلف إلى التجديد، ليزيل عن بنوده تلك الزيادات، ويعيد تلك النواقص إلى مكانها الطبيعي لتحقيق الغاية الأساسية من الحلف، كالسيف الذي علاه الصدا، فسلَّ فاعليته، فإنَّ تجديده لا يعني مُطلقًا تغييره، بل حتى لا يعني تطويره، وإنما يعني إزالة الصدا عنه ليعود إلى مضائه وفاعليته الأصلية من جديد..

ولكنَّ الشيخ ربيعًا المالكي لم يكن له تصور كامل عن طريقة التجديد وآلياته، كما أنه لم يكن على دراية كاملة بكل بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار والتفريق بين تلك البنود التي يجب تعديلها، والبنود الأخرى التي يجب الحفاظ عليها وعدم المساس بها، كما أنَّ بعض مؤيدي دعوة الشيخ ربيع المالكي بالغوا وتساهلوا في أمر التجديد، فظهروا أمام مجلس شورى القبائل بأنهم يرفضون كل بنود الحلف رفضًا قاطعًا، في حين أن بالحلف الكثير من البنود التي لا يمكن الاستغناء عنها أو التعديل فيها لقوتها وفعاليتها وعدم تعارضها مع تطور بلاد عين الآبار، حيث وقف أحدهم بتهورٍ شديد يقول:

- نحن نطالب بتغيير كل بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار دفعة واحدة.. فكيف تتحكم فينا بنود وُضعت منذ مئات السنين...؟! وُضعت في زمان ومكان وظروف اختلفت كثيرًا عما نحن عليه الآن...!

وعلى الرغم من اعتراض الشيخ ربيع المالكي الشديد على قول هذا الرجل، إلا أنَّ أنصار التقليد تمسكوا بما أعلنه هذا الرجل المتهور، فعلق الشريف علي قائلًا:

- إن قضية التجديد تلك قضية شائكة ومركبة ومعقدة، وفي الحديث عنها ما هو طيب وضروري ومشروع، وما هو خبيث ومغلوط ومرفوض، ولأنه لا يوجد لدينا الوسائل التي تجعلنا نفهم المقصود من الدعوة التي يقودها الشيخ ربيع المالكي، خاصةً أنّ بنود هذا الحلف حققت لنا مكاسب كبيرة جعلت بلاد عين الآبار من مجرد مجموعة خيام وأهل بدو في الصحراء إلى بلاد مُستقرة أشبه بالمدن، ولكنها تمتاز عن تلك المدن بتمسكها بعاداتها وتقاليدها وأعرافها، وما يتحلى به أهل البدو من شجاعة رجالهم وفروسيتهم، وهذا أيضًا ما رسخه الحلف وبنوده.. وقد تُسبب دعوة الشيخ ربيع المالكي أضرارًا أكبر من منافعها، ودفعُ الضّرر مُقدّمٌ عندي على جلب المنفعة، لذلك أرى عدم الأخذ بتلك الدعوة ورفضها تمامًا، وأرى قبول كل بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار مع أضراره تجنبًا لأضرار تلك الدعوة المبهمة...!

وانتهى الأمر برفض تعديل تلك البنود وغيرها، كونها من تراث الأجداد الذي لا يجوز التعدي عليها، بل الواجب تقديسهم وتقديس كل ما جاؤوا به، وهذا ما عكر صفو العلاقة بين الشريف علي، والشيخ ربيع المالكي، وذلك لأن

الأخير رأى في انحياز الشريف علي لدعوة التقليد
والمحافظين الأثر الأكبر في رفض دعوته التجديدية...!

ومع مرور السنين وبعد توسع مدارك الشاب بكري بن علي
ومعرفته موازنة وتقدير الأمور، قرر أن يقود لواء التجديد
مرة أخرى، وأن يبدأ التجديد هذه المرة من شباب علماء
المدرسة الحنفية، وقاد تلك الحملة، وقرر أن يستعين في
دعوته بشيخ المجددين الشيخ ربيع المالكي، وزاره في بيته
وعرض عليه اقتراحه، إلا أنَّ الشيخ ربيع المالكي كان لا
يزال في قلبه شيء من والده، فرفض دعوته وقابلها
باستهزاء شديد، فغضب بكري من موقف الشيخ ربيع -غير
المنصف- غضبًا شديدًا، فتلك دعوة لا علاقة لها بالأمور
الخاصة والخلافات الشخصية مع والده، وشعر بكري
بصعوبة تحقيق ما يصبوا إليه بدون شيخ المجددين،
فانضمام الشيخ ربيع المالكي لدعوته سيزيد من قوتها دون
شك، فهو شيخ من شيوخ بلاد عين الآبار المُعتبرين، وله
سابقة في هذا الأمر، وبانضمامه للدعوة سيعطي للدعوة قوة
وفاعلية، وحتى لا يُنظر للدعوة منذ بدايتها أنها مجرد
حماس شباب فقط..!

عاد بكري لبيته في قبيلة زهير حزينًا بائسًا، ولما رأت السيدة (صمود) ولدها على تلك الحالة، وفهمت السبب وراء ذلك، قررت مساعدته ودعمه كالعادة، فقامت من فورها بزيارة الشيخ ربيع المالكي في بيته بقبيلة مالك، بحجة زيارة زوجته، وتحدثت معه بجرأة شديدة أمام زوجته، وطلبت منه مُساندة ولدها في دعوته إن كان فعلاً من دُعاة التجديد، فتلك الدعوة هي نفس الدعوة التي كان قد تبناها من قبل ودعا لها، وأنكرت عليه موقفه من دعوة ولدها، فوافق لها على طلبها تقديرًا لمكانتها، ورغبةً حقيقيةً منه في التجديد، وفي اليوم الثاني لزيارتها له توجه إلي المدرسة الحنفية، واجتمع ببكري وبشباب العلماء المُجددين، وقاد الشريف بكري بجوار شيخ المُجددين الشيخ ربيع المالكي الدعوة التجديدية من جديد، فاتبعهم عددًا كبيرًا من الشباب والشيوخ على حدِّ سواء، واستمر هذا الأمر لعدة شهور، إلا أنَّ سلطان التقليد والجمود وتقديس تراث الأجداد كان أكبر وأعمق جذورًا، وكان هو المُسيطر بقوةٍ والغالب في النهاية، فاعتزل الشيخ ربيع المالكي الأمر بعدما تملكه اليأس، وقرر عدم طرحه مرةً أخرى، أما بكري فلقد أصبح

أمر التجديد من أهم الأشياء التي تشغله في حياته، فقد بات يشغله في كل وقت، فتعرف على كل بنود الحلف، وفهم مقاصده، وحفظ كل بنوده، وكان دائماً يُقارن بين بنود الحلف وما وصلت إليه بلاد عين الآبار من تطور، فشغله أمر التجديد عن كل شيءٍ عداه، وبات أمر تجديد بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار رسالته التي يعيش من أجلها ولها، وحدد الآليات والسبل التي يمكن من خلالها تجديد الحلف، وكثيراً ما كان يُثير الشباب ويدفعهم للإيمان بدعوته التجديدية، حتى أیده عددًا كبيراً من الشباب والعلماء، وظل بكري ينتظر الفرصة السانحة التي بها يستطيع أن يهزم سلطان التقليد والجمود الراسخ في بلاد عين الآبار بقوة..

وما زال بكري يتخذ قرارات مُغايرة وجريئة في بلاد عين الآبار، حتى دفعه رأيه لاتخاذ هذا الموقف في صد هجمة أولاد يعقوب العريبي، فرفض شيوخ قبيلتي مالك وشداد تحركه لحين عودة شيوخهم أصحاب الرأي في بلاد عين الآبار، وظهرت بعض الأصوات المُحبطة للهمم، والتي اعتبرها البعض أصوات العقل والحكمة، حيث تبنت أفكاراً مُغايرة بشدة لفكرة الحرب التي ظل يروج لها الفارس

بكري بن زهير بين شباب القبائل الأربع، حيث عملوا على تخويف الرجال من مغبة التجهز لمحاربة أولاد يعقوب دون دراسة مُسبقة، وأولئك مَنْ قتلوا وسفكوا دماء الكثير، وخرّبوا بلادًا وبيوتًا وقبائل، فلا يمكن محاربتهم أو القضاء عليهم دون اتحاد قبائل أخرى تقف بجوارهم وتدعمهم بالسلاح والرجال.. كما أنّ تلك القرارات لا يمكن أن تتخذ هكذا في غياب شيوخهم أصحاب الرأي والكلمة الأولى فيهم، فقد يكون لهم رأيٌ آخر في ذلك، وهم الأكثر فهمًا لمعالجة الأمور، خاصّة أنهم ما زالوا يتفاوضون في أمر استقلال بلادهم عن الدولة السعودية، ولا يعرفون شيئًا عن مُستجدات الأمور هناك، فقد يكون لشيوخهم رأيٌ آخر بخصوص جماعة أولاد يعقوب وطريقة التعامل معهم، خاصّة أنّ أولاد يعقوب لا يقتحمون إلا البلاد التي باتت خاضعة تمامًا للدولة السعودية، ولهذا قرر شيوخ قبيلتي شداد ومالك وتبنوا جميعًا رأيًا مفاده:

(يجب عمل تفاهمات مع أولاد يعقوب، ودفع جزء مما قرروه عليهم من جباية، ومحاولة مماطلتهم لحين عودة شيوخهم من مهمتهم الخطيرة، وذلك ليتجنبوا تخريبهم في

البلاد وقتلهم ولصوصيتهم، وعند عودة شيوخهم، سيكون لهم الأمر، فإن اتخذوا قرار الحرب فلا مانع من ذلك أبدأ، فالأمر شورى بينهم، كما أنهم الأقدر على ترتيب أمر قيادة تلك الحرب الشرسة)..

ولقد برر أحدهم موقفهم في قبائلهم بالقول:

- إنَّ قرار الحرب في ذاته قرارٌ خطيرٌ وله عواقبه الوخيمة، ولا يجوز أن يُؤخذ هكذا، كما أنه يحتاج إلى دراسة متأنية ورأي أصحاب العقل وأهل الحل والعقد، ولا يجوز الانسياق وراء دعوات شباب متهور بقراراتٍ غير محسوب عواقبها..

والغريب في الأمر أن فرسان قبيلتي مالك وشداد جميعاً قد انساقوا خلف تلك الدعوة واقتنعوا بها، ولكن انسياقهم هذا كان لأنهم لم يكونوا من أصحاب الرأي في قبائلهم، فهذا الذئب بن شداد - فارس بلاد عين الآبار - لم يكن له رأي يذكر في قبيلة شداد، رغم أنه فارس بلاد عين الآبار الأول، ولكن قرار الدخول في الحرب وقيادتها قرارٌ جريء (جداً) ولا يجرؤ شخص عادي - بلا رأي - أن يتحمل تبعاته، فانساق الذئب بن شداد خلف تلك الدعوة لأنه لا يعرف أين

مصلحة البلاد في هذا الموقف تحديداً... فهل دعوة الشيوخ بالتفاهم مع أولاد يعقوب هي ما ستحقق المصلحة الحقيقية للبلاد، أم دعوة بكري بن على ومن معه بمحاربة أولاد يعقوب هي ما ستحقق مصلحة بلاد عين الآبار؟..

وبالرغم من رغبة الذئب بن شداد الشديدة في التصدي لأولاد يعقوب وقتالهم، حيث كان أول من تجهز للحرب ودعا لها وحشد لها الفرسان، بل أول من تبني فكرة الحرب في بلاد عين الآبار بمجرد أن وصله خبر تهديد أولاد يعقوب لبلادهم - وكان حينئذٍ بين فرسان قبيلة شداد- ودفع الفرسان للحرب وتحمسوا جميعاً لها، إلا أن من كانوا يمثلون أصحاب الرأي في قبيلة شداد كان لهم رأي آخر، فأبطلوا همتهم ولم يكن أمامهم إلا تنفيذ توصيات من حلوا محل شيوخهم في قبيلة شداد، فتراجع فرسان قبيلة شداد عن موقفهم، وسرعان ما تراجع الذئب بن شداد عن قراره وبات لا يُحرك ساكناً، وهذا ما أغضب منه بكري بشدة...

وعلى نفس شاكلة ما حدث في قبيلة شداد حدث أيضاً في قبيلة مالك، فلقد انساق فرسان قبيلة مالك لتلك الدعوة المُنبّطة لهم، وما زاد الأمر سوءاً أنّ الشخص (الوحيد) الذي تتقارب آراؤه دائماً مع بكري، وبينهما علاقة قوية

يسودها الود والاحترام (رغم فارق السن) لم يكن في بلاد عين الآبار إنه الشيخ ربيع المالكي (شيخ المجددين).. فلقد خرج هو وابنه مالك - فارس قبيلة مالك- في تجارة إلى بلاد الشام قبل تهديد أولاد يعقوب لقبيلة فهر بيومين فقط، ولهذا لم يكن لبكري من سبيل في حشد فرسان قبيلة مالك... أما قبيلة زهير فكان فارسها الأول بكري بن علي من أصحاب الرأي المُطاع فيها، فكان رأيه بمثابة قرار عام للقبيلة.. وقبيلة فهر هي أول المتضررين من تهديد أولاد يعقوب، فانحازوا جميعًا لفكرة الحرب، وانضموا جميعًا خلف بكري بن علي وتحت قيادته..

على الرغم من أن تلك الدعوة لاقت قبول كلّ شيوخ وفرسان قبيلتي شداد ومالك دون اعتراض، وانقاد الجميع خلفها، كما أنها لاقت استحسان (البعض) من قبيلتي فهر وزهير، إلا أنها قوبلت بالرفض الشديد القاطع من جانب الفارس بكري بن علي، فأيدته الكثير من فرسان قبيلتي زهير وفهر، كما أيدته إخوته في رأيه، ووقفت أمه كالعادة بجواره وأيدت رأيه ودفعته إلى التمسك به وألا يقبل غيره، فلا سبيل للتفاهمات مع أولاد يعقوب، ولا سبيل يصلح إلا سبيل

الحرب، فتمسك بموقفه أكثر من ذي قبل، وزاد من إصراره على الحرب، فتأييد أمه له (دائمًا) كان له أثرًا إيجابيًا في حياته.

كان بكري على يقين تام بأن طرق السلم والصلح والتفاهات ليست هي الطريق الأمثل في التعامل مع جماعة أولاد يعقوب، فكثير من القبائل حاولت عمل تفاهات معهم بتلك الطريقة، إلا أنهم لم يسلموا من لصوصيتهم وتخريبهم وسفكهم للدماء، ولعل قبيلة (نَمْرَة) المجاورة لهم أقرب الأمثلة على ذلك، وخير دليل لهم، فبعدما اتفق زعيم القبيلة الشيخ أحمد نَمْرَة الصارم، مع أولاد يعقوب على دفع الجباية المُقررة عليهم، والتي حددها يعقوب العريبي بنفسه واتفقوا على أن يسلموها لهم مع مطلع كل شهر، لم يسلموا من قتل ولصوصية أسد بن يعقوب العريبي، الذي عاث في القبيلة فسادًا، حتى إنه استرقَّ إحدى أجمل فتياتها (خولة) جميلة قبيلة نَمْرَة بنت الشيخ أحمد نَمْرَة الصارم نفسه، ولما رفض الشيخ أحمد هذا التصرف الهجبي، قتل أولاد يعقوب عددًا كبيرًا من رجال قبيلة نَمْرَة وساحوا في القبيلة فسادًا.

لذا كان بكري يرى أنه لا يمكن له أن يقبل بدفع شيء من أموال بلاده إلى لصوص ومغتصبي حقوقٍ وقتلةٍ، حتى وإن كان ذلك ليتجنبوا تخريبهم لبلادهم، فلا سبيل أمامهم إلا الحرب، ولا مفرّاً أو خياراً أمامهم إلا الحرب، وبكلامه المقنع الحماسي انحاز له كل رجال وفرسان قبيلتي فهر وزهير... ولكن لا يمكن قتال أولاد يعقوب بدون قبيلتي مالك وشداد، فهم أهم قبيلتين ببلاد عين الآبار، وقبيلتا فهر وزهير لن ينجحوا (أبدًا) في صد هجوم أولاد يعقوب منفردتين، ولن يقدرُوا على دحض عدوانهم الغاشم، فما المخرج إذن؟!!

أقام بكري -لأول مرة- اجتماعًا طارئًا بقبيلة زهير، حضره ممثلون عن قبيلة فهر، وترأس هو الاجتماع بعدما قدمه كل شيوخ وزعماء القبيلتين، مُعلنين موافقتهم على قيادته، فهم يثقون في ذكائه وحُسن تدبيره، كما أنه ابن كبيرهم وزعيمهم الشريف علي، وهو الأحق بتلك القيادة من غيره، وبعد مناقشات طويلة، وتفكير طويل وعميق دام ليومين متواصلين، لم يبرحوا فيهما مجلس شورى القبائل إلا لصلاة أو طعام أو لقضاء حاجة، وبعد تدبير وتخطيط، هداه الله إلى فكرة (ظنها) المخرج الوحيد من تلك الأزمة،

وعزم على تنفيذها في الحال، وكانت فكرته خارج العادة، كما أنها لم تكن متوافقة مع أعراف قبائل بلاد عين الأبار المنصوص عليها في حلف قبائل بلاد عين الأبار، ولكن لا مخرج غيرها، ولا سبيل آخر أمامه، فاستحسنها واعتبرها المخرج الوحيد لهم من مأزقهم، ولأنه من أصحاب فكرة التجديد، ولا يقبل القواعد الجامدة المتحجرة التي تفتقد تمامًا للمرونة، اعتنق الفكرة وأصر عليها، ولكونه صاحب حجة وبيان لم يتردد في عرضها على رجال قبيلتي فهر وزهير.. عرض بكري خطته على فرسان قبيلتي فهر وزهير الذين حضروا الاجتماع الذي ترأسه وكانت هذه الفكرة تقضي بما يلي:

- حشد فرسان وعبيد قبيلة زهير، وحشد فرسان وعبيد قبيلة فهر، مع حشد عبيد قبيلتي شداد ومالك للحرب لمجابهة أولاد يعقوب...!

كان بكري يعرف أنّ فرسان قبيلتي شداد ومالك لن يقبلوا إمارته في تلك الحرب بعد قرار شيوخهم، كما أنه بات على يقين بأنهم لن يشاركوهم الحرب أيضًا وفقًا لذلك، ولكن مشاركة عبيد قبيلتي مالك وشداد في تلك الحرب أمرًا قد يقبلوه ولو على مضض..

لاقت تلك الفكرة رفضاً شديداً من جانب بعض فرسان قبيلتي زهير وفهر في البداية، ولكن مع انحياز البعض الآخر للفكرة اجتهد بكري لإقناعهم كونها المخرج الوحيد أمامهم، ولا سبيل غيره، حتى وإن خالفوا بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار، الذي يمنع مشاركة العبيد في الحرب خارج حدود بلاد عين الآبار، خاصةً أنّ حرباً كذلك لا يمكن لها أن تحدث على حدود البلاد، فيجب ملاقات العدو خارج البلاد حتى لا يُسمح لهم بأن يسيحوا في البلاد قتلاً وتخريباً، فوقف بينهم يقول:

- فلنعتبر أنّ تلك الحالة تأخذ مقام الضرورة التي أباح الله فيها أكل الميتة، وغير حكمه سبحانه وتعالى لظرف حالٍ، غيرَ أمرٍ كان قد أمر بمنعه وعدم جوازه لظرف طارئ، وبنود الحلف لا ترتقي لأن تكون كذلك، ولقد طالبنا كثيراً بتغيير بعضها، ورُفِضَ بحجة تقديس روح الأجداد، ووالله إنّ في ذلك لأشدّ الضرر، ولو بُعث الأجداد للعالم لغيروا بأنفسهم تلك البنود.

استمر النقاش لوقتٍ طويلٍ لساعات، وما زال بكري مُصرّاً على رأيه حتى أقنعهم به، فوافق الفرسان في النهاية على مَضَضٍ بعدما يأسوا من الوصول إلى حلول أخرى.

أرسل بكري لقبيلتي مالك وشداد، وطلب منهم تجهيز جيشهم (من فرسانهم) والمرابطة على حدود بلاد عين الآبار الأربع، لحمايتها من تخريب أولاد يعقوب، وإبرام التفاهات معهم -إن لم يحقق جيشه نصرًا عليهم- وعلى الرغم من الرفض المستمر من شيوخ قبيلتي شداد ومالك لتصرفه المتهور، وتحذيراتهم الشديدة له من مغبة تصرفاته المتهورة تلك، وخرقه لبنود حلف بلاد عين الآبار، إلا أنهم لم يجدوا سبيلًا آخر غير تنفيذ طلبه لإصراره الشديد على الحرب، فجهزوا جيشهم ورابطوا على حدود بلاد عين الآبار، وقاموا بإرسال كل عبيدهم وزودوهم بالسلاح اللازم للحرب، وقلوبهم تفور غيظًا وغضبًا من تصرفات بكري المتهورة غير المحسوبة، التي تخالف كل ما هو مقدس في بلاد عين الآبار العتيقة..

لم يكن من بين فرسان قبيلتي شداد ومالك من كان يقبل تصرفات بكري أو يوافق عليها إلا فارس قبيلة شداد الذئب بن شداد، فلقد كان مُعجبًا به وبإصراره، كما تأكد لديه أنَّ بكري سيحقق نصرًا كبيرًا على أولاد يعقوب، وذلك عندما

رأى تدبيره وتخطيطه، وحماسًا شديدًا عند العبيد وفرسان قبيلتي زهير وفهر، إلا أنه مع ذلك لم يكن ليخالف أوامر أصحاب الرأي في قبيلة شداد، أما ابنه عاقر، فلقد طلب من أبيه المشاركة والانضمام لجيش بكري وقيادته لصد عدوان أولاد يعقوب، إلا أنّ الذئب رفض ذلك كونه لا يستطيع الخروج على رأي القبيلة، وعلى الرغم من أنّ عاقر بن الذئب بن شداد يُعد فارس قبيلة شداد بعد أبيه، كما أنه صديق بكري بن علي ورفيق دربه في الفروسية، إلا أنه لم يكن يستطيع مخالفة رأي أبيه أو الخروج عليه، فلم يكن عاقر من أصحاب الرأي (أيضًا) وكان يشبه الذئب في كل شيء، حتى إن ملامحهما كانت واحدة، فكان عاقر نسخة مكررة من أبيه، فالشخص الغريب عن بلاد عين الآبار لا يستطيع أن يُفرق بينهما إلا فقط من بعض علامات الشيوخة التي بدأت تظهر على الذئب بن شداد.. ولقد تربى عاقر مع أبيه وبات يحل محله في الآونة الأخيرة في تدريب الفرسان لما يمتاز به من قوة وكفاءة وحنكة وخبرة كبيرة في تدريب الفرسان، فبات لا يُجيد غير تلك الأمور كأبيه تمامًا..

بلغ عدد فرسان العبيد المُقاتلين بهذا الجيش خمسمائة فارس، جميعهم يُجيدون فنون الفروسية والقتال والكر والفر باتقان شديد، فلقد كانوا من أشجع وأقوى عبيد قبائل بلاد عين الآبار، درّبهم الذئب بن شداد وابنه عاقر، وشاركهم بكري في ذلك، وكانوا جميعهم يُفدّرون بكري ويحبونه شديد الحب والتقدير، فهو الأقرب إليهم من غيره، الودود معهم، والمتواضع لهم، الذي يعرف مشاكلهم، ويساهم في حلها، ويرفع عنهم ظلم ساداتهم، ويقف بجوارهم على الدوام، فقرروا جميعًا نصرته في حربه، والوقوف بجانبه بكل قوة، وتعهدوا بألا يخذلوه أبدًا، وبلغ قوام هذا الجيش كاملاً ما يزيد على ثمانمائة فارس (بقليل) جميعهم على قلب رجلٍ واحد.

في تلك الأونة نما إلى علم يعقوب العريبي وجماعته استعدادات قبائل بلاد عين الآبار لمُحاربتهم، وعلّموا بما قام به بكري بن الشريف علي، فتوعد أسد بن يعقوب العريبي أمام جميع رجاله بقتل بكري بنفسه وقطع لسانه، ذاك الشاب المُتكبر المُتغطرس وتمزيق أحشائه، وجهزوا جيشًا قويًا ضم كل أفراد جماعة أولاد يعقوب القاطنين الجبال

والصحاري، وكان جيشه قوام ألف مجرم وهارب وقاطع طريق، قادهم يعقوب العربي بنفسه متوجهاً إلى بلاد عين الآبار، وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، كان هو وابنه أسد بالقلب، وابنه كليب قائد الميمنة، وابنه عربي قائد الميسرة، وتجهز الجميع للحرب وقد أقسموا بكل مقدس لديهم بإبادة بلاد عين الآبار وقتل شيوخهم ورجالهم وسبي نسائهم واسترقاق أطفالهم، وبيعهم في أسواق الرقيق..

أصبح الأمر جد خطير، فلقد وصلت تلك التهديدات عُقر قبيلة زهير، فاهتز الفرسان، وكاد بكري أن يهتز من تلك الكلمات حتى قابلته أمه بصرامة وحزم، ونهرته بشدة، وصرخت في وجهه قائلة:

- إن لم تكن قدر الرجال والفرسان فلماذا طالبتهم بالقتال والحرب...؟! أتخور وأنت قائدهم...؟! والله إن لم تُحضر لي رأس هذا الجبان الخسيس الأسد بن يعقوب لأتبرأ منك إلى يوم الدين...! ولأأخذن مسكناً غير مسكنك.. اثبت وشدّ على الفرسان، ووالله إنني لأعلم أنّ العبيد سيقدمون دماءهم لنصرتك، فلا تخذلهم ولا نخذلنا...!

كان العبيد على أهبة الاستعداد، متحمسين للقتال، مستعدين للتضحية بدمائهم لنصرة سيدهم بكري بن علي الذي جاء بهم بدلاً من فرسان قبيلتي شداد ومالك، فأقسموا جميعاً على بذل أرواحهم لنصرتهم، وكأن تلك الحرب هي حرب بكري بن علي..! حيث وقف فرسان العبيد الأقوياء أصحاب الهمة والقلوب الجسورة يشجعون باقي فرسان العبيد على الثبات والقتال بجانب سيدهم بكري بن علي، يقدمون له أرواحهم فداءً له على ما قدمه لهم من قبل، فألهبوا قلوب فرسان العبيد، وخرجوا جميعاً للتضحية بدمائهم لنصرة بكري بن علي، وهذا ما دفع بكري إلى التقدم بشجاعة دون خوف أو تردد، ووقف خطيباً في الفرسان والعبيد، وبكلماته الحماسية الرنانة التي اخترقت قلوب الرجال فزادتها عزماً وقوة، وتربعت في عقولهم فزادتهم حكمة وعقلانية لتدبير شئون الحرب، وبتلك الكلمات الرنانة القوية استطاع بكري أن يُسيطر على جل الفرسان سادة وعبيد، وحثهم على الاستماتة في سبيل صد عدوان أولاد يعقوب الغاشم، والقضاء عليهم وقطع دابرهم من بلادهم قاطبة..

خرج بكري بن على بجيشه لمقابلة عدوه بعيداً عن حدود بلاد عين الآبار، بأقصى الجنوب في منطقة يُقال لها وادي جردان، وقرر أن يقابلهم هناك، ووضع الخطط، ودبر التدابير لذلك بمعاونة أصحاب الخبرة من فرسان زهير وفهر، وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، حدد لكل قسم مهمة واضحة ومحددة لا يحدد عنها، وجعل لكل قسم قائداً مُطاعاً له الأمر والتدبير وقت الحرب، ويأتي من بعده اثنان معاونان، لكل منهما عددًا من الفرسان يحركهم حسبما أراد وفقاً للخطة الموضوعة، التي لا يجوز مخالفتها، وجعل لهما مراتب مُحددة، فمن كان في المرتبة الأولى يحل محل القائد في حالة عجزه عن أداء مهمته لأي سبب قهري، ومن في المرتبة الثانية يحل محلهما إن عجزا عن أداء ما أوكل إليهما لأي ظرف طارئ.

كان هو في القلب، فكان هو القائد الأول للجيش، ومعه بالقلب عبيد قبيلاتي شداد ومالك، وجعل تحته في المرتبة الأولى (صديقه) العبد الفارس المقدم صاحب العقل والتدبير والحكمة زياد بن كماله، من عبيد قبيلة شداد الشجعان، وفي المرتبة الثانية (صديقه) العبد والفارس الهمام، صاحب البأس الشديد سرور بن سعدة من عبيد قبيلة مالك.

وكان فرسان قبيلة زهير وعبيدهم بالميمنة، وجعل قيادتها لأخيه الشريف بكر، وكان حينئذٍ في السابعة والعشرين من عمره، فارسًا لا يُشق له عُبار، شجاعٌ ومقدامٌ وذو بأسٍ وقوةٍ وحنكة في الحرب، وخبير في فنون الحرب ووضع الخطط والتدابير، وتحت قيادته في المرتبة الأولى الفارس الشريف بكير بن علي أخوه الثاني، في السادسة والعشرين من عمره، وكان أقل من بكر شجاعة وقوة، إلا أنه من فرسان قبيلة زهير المعدودين، وصاحب عزم شديد في الحرب، وفي المرتبة الثانية (صديق) بكري العبد محمود بن شجاع، من عبيد قبيلة زهير الأقوياء يجيد الفروسية واللعب بالسيف والرمح، فقدمه بكري على غيره من فرسان قبيلة زهير لثقتة العالية في قوته وشجاعته وإقدامه.

أما فرسان قبيلة فهر وعبيدهم فكانوا بالميسرة، وجعل قيادتهم لفارس قبيلة فهر المقدم ذي القلب الجسور، خالد بن زيد الفهري، صديق بكري المقرب، بل أقرب فرسان قبائل بلاد عين الآبار له، من نفس عمره تقريبًا، شجاعته وقوته وإجادته لفنون الحرب والقتال لا يُضاهيها مثيلٌ من فرسان قبيلة فهر، ومن المحسوبين بين قبائل بلاد عين الآبار، ويعاونه في المرتبة الأولى الفارس نواف بن حمد الفهري،

في السابعة والعشرين من عمره، من فرسان قبيلة فهر الأقوياء، وفي المرتبة الثانية (صديق) بكري العبد الفارس ذهب بن سليمة، من فرسان عبيد قبيلة فهر الأفاذا، يجيد فنون الفروسية بشدة، قوي وذو بأسٍ شديد، اختاره بكري وقدمه على غيره من فرسان قبيلة فهر..

لقد اختار بكري بعناية أفضل فرسان القبيلتين للقيادة، ولم يفرق بين أسيد وعبيد، وكانت تلك المرة الأولى التي يتاح لهم مهمة القيادة، فلم يكن بكر وخالد ممن يسمح لهما بقيادة الفرسان في الحروب، لتهورهما الشديد، إلا أن بكري كان يؤمن بهما وبقوتهما وشجاعتهما، وما كان عليه (فقط) إلا أن يحد من تهورهما، ولن يحد من تهورهما إلا أن يكونا هما المسؤولين والقادة، فالقيادة في ذاتها تحد من التهور والاندفاع، فهي نفسها رادع لذلك دون شك، وتلك هي حكمة بكري في الحرب التي عرفها قومه في إدارته وتخطيطه لتلك الملحمة.

والأكثر حكمة من ذلك أنه قدم العبيد على ساداتهم أثناء الحرب، لأفضليتهم عليهم في تلك الناحية، فقدم الأفضل والأقدر على القيادة دون النظر لأي اعتبارات أخرى، فلم

يخترهم كونهم - كما كان يعدهم- أصدقاء له، فهم في النهاية لا يتعدون إلا أن يكونوا مجرد عبيد في نظر قومهم وساداتهم، ولكنه اختارهم لتقته الشديدة فيهم، ولأنهم مشهورون بفروسيتهم وقوتهم بين قبائلهم.. لذا لم يواجه اختيارهم اعتراضًا من أحد السادة إلا القليل، ولكن بكري استطاع أن يقنع من اعترض على قيادتهم وتقديمهم عليهم بسهولة، فهو يعرفهم جيدًا، وكان يُشرف بنفسه على تدريبهم، وكثيرًا ما كان يختبر قدراتهم وإجادتهم لفنون القتال والفروسية.. ومن اختارهم للقيادة (تحديدًا) هم أصدقاؤه من العبيد، نشأ معهم وتقرّب منهم، وكانوا جميعًا في سن متقاربة منه، يعرفهم منذ الصغر، وتربي قريبًا منهم وكبروا معًا، ويعرف حبهم لبلاد عين الآبار، وكان دائمًا يبدي إعجابه الشديد بهم بعدما أجادوا فنون القتال والفروسية بشكلٍ سريع، حتى فاقوا سادتهم في ذلك بكثير، ولقد أثبتوا جميعًا أنّ بكري لم يخطئ في اختيارهم للقيادة، وذلك لما قدّموه وقت الملحمة التي أبهروا فيها الجميع..

دارت المعركة والتحم الجيشان بوادي جردان، وكانت ملحمةً - كما وُصفت فيما بعد- معركةً لم يشهدها أولاد يعقوب من قبل، استمرت لساعات..

بدأت معركة وادي جرزان من طلوع الشمس، ولقد استتبسل فيها فرسان قبيلتي زهير وفهر، وقاد بكر بن علي فرسان قبيلة زهير وعبيدها بعبقرية فذة وبراعة واقدام، فقتل من أولاد يعقوب مقتلة عظيمة، وقُتل من قبيلة زهير العدد القليل، فكانت الغلبة لقبيلة زهير واضحة جلية للعيان، وأبلوا جميعًا بلاءً حسنًا لم يُشهد من قبل، ولتهوره البالغ استشهد الشريف بكر بن علي في تلك المعركة دفاعًا عن عرضه وأرضه.

أما فرسان قبيلة فهر، فلقد استتبسل خالد الفهري، وقاد فرسان قبيلة فهر بشجاعة وقوة غير مسبوقه، وحطم جبهة أولاد يعقوب المُقابلة له تحطيمًا، ومال على القلب مع بكري وفرسان عبيد بلاد عين الأبار ليناصرهم في قتالهم الدامي، فلقد كان قلب جيش أولاد يعقوب هو الأخطر والأقوي علي الإطلاق، وفطن خالد الفهري لذلك سريعًا، وعلي الفور قاد فرقة كانت أشبه بالفرق الانتحارية ومال على القلب بجوار صديقة الفارس الهمام بكري بن علي وفرسان العبيد، وانقضوا على أولاد يعقوب انقضاضًا، فقتلوا منهم أعدادًا غفيرة وشلت حركة أولاد يعقوب من تلك الهجمة المباغتة.

أما العبيد فقد كان لهم شأنًا آخر..

لقد استمات العبيد تحت قيادة بكري بشكل غير مسبوق في الحروب، وحققوا نصرًا مؤزرًا، استبسلوا جميعًا واندفعوا جماعات في تهورٍ شديدٍ بطريقة أفزعت جماعة أولاد يعقوب وأربكتهم، وقُتِلَ من العبيد العدد القليل، وهُزِمَ أولاد يعقوب هزيمة ساحقة، كان لها صداها العظيم في كل أقطار نجد.

كان لبكري وأسد بن يعقوب العريبي بالحرب لقاء خاص، استطاع فيه بكري هزيمة أسد بن يعقوب بعدما قام بقتله بنفسه وقطع رأسه، ووضعها خلفه على جواده ليقدمها لأمه كما طلبت منه، فازداد حماسًا على حماسته، واشتعل حماس الفرسان والعبيد بعدما صرَّح بكري بصوتٍ جهورٍ قائلاً:

- إنه يوم الجزاء، يوم العقاب الشديد، يوم الجحيم والنار، أرسلوا أولاد يعقوب لعقاب الله، واثبتوا ثبتكم الله، فأنتم مع الحق وأهله، ولن يخذلكم الله أبدًا.

وكان فرسان العبيد يصرخون في فرسانهم ويقولون بأصواتٍ مخيفة:

- اقطعوا رؤوس أعداء سيدكم قريباً له.. موتوا لنصرة
سيدكم..

كان فرسان العبيد يميلون على أولاد يعقوب وكانهم يطلبون
الموت، فنحروهم نحراً، وكانوا يصرخون فيهم بكل قوة..
فوجد منهم أولاد يعقوب بأساً وقوةً وعزماً شديداً أربك
صفوفهم.. وهذا ما دفع فرسان قبيلتي زهير وفهر على
الاستماتة وتقديم أرواحهم للموت تحقيقاً للنصر..

لما رأى جماعة أولاد يعقوب هذا القتال المُستमित والعتيف
من جانب العبيد وفرسان بلاد عين الآبار، وهذا المنظر
الرهيب قُذف الرعب في قلوبهم، ففرَّ منهم مَنْ فرَّ هرباً من
موت مُحقق، وفي نهاية المعركة قرر القائد (المنتصر)
بكري بن علي مواصلة القتال وتعقب جماعة أولاد يعقوب
ومطاردة فلولهم الهاربين بالصحراء والجبال، فأوقعوا بهم
شرَّ هزيمة، وقتل أولاد يعقوب الثلاثة، واستسلم يعقوب
العريبي والكثير من رجاله، وفُيِّد ومن بقي معه من الرجال
بالحبال، وألقي القبض عليهم جميعاً، وعُرفت تلك الموقعة -
فيما بعد- بين القبائل الأربع بملحمة العبيد، لأنَّ العدد الأكبر
المشارك بها كان من العبيد، ولكنها عُرفت بين باقي القبائل

المجاورة بمعركة وادي جردان، نسبة لمكان الحرب الذي دارت به، ولم يعرف أحد من القبائل المجاورة تفاصيل تلك الحرب، أو تخاذل قبيلتي مالك وشداد وعدم مشاركتهم فيها، ونال الفارس المغوار بكري بن علي مكانة عالية بين كل القبائل فيما بعدُ عرفها القاصي والداني.

عاد بكري بن علي والفرسان بعد حربٍ طاحنة استمرت لساعات، وعاد الفرسان والعبيد المنتصرون، يجرون من خلفهم مَنْ تبقى من جماعة أولاد يعقوب مقيدين بالحبال، فقابلهم الشيوخ والعبيد والنساء والأطفال بالفرح والتكبير...

ندم فرسان قبيلتي مالك وشداد بما كان منهم، حتى إن الذئب ابن شداد ظل معتكفاً في بيته حزيناً على موقف قبيلة شداد المتخاذل، وقرر أن يعتزل الناس بعد تلك الموقعة، ومنذ تلك المعركة لم يخرج الذئب بن شداد من بيته، ورفض أن يقابل أي انسان من بلاد عين الآبار، وأحل ابنه عاقر محله في تدريب الفرسان.

عاد المنتصرون حاملين معهم جثث شهدائهم، وكان من بينهم الشهيد الشريف بكر بن علي، وما إن وصل بكري

أمام أمه صمود المالكي، حتى رمى تحت أقدامها رأس أسد بن يعقوب، ولكنه لم يستطع أن يُخفي حزنه على أخيه، ونزلت الدموع من عينيه رغماً عنه، فقامت إليه أمه فقَبَّلته على جبينه وضمَّته إلى صدرها، وهممت في أذنيه وهي تقول بصوتٍ حازم وقوي:

- القائد الحقيقي لا يبكي عند النصر ولا عند الهزيمة، احتفل مع فرسانك وأخفِ حزنك على أخيك، وإلا سيتحول نصرك إلى مآثم، فإن حزن القادة على قتلاهم لَمَّا كتب التاريخ نصراً واحداً لقائد حرب.

ثم دفعته بقوة، ووقفت شامخة مرفوعة الرأس، وقالت بقوة بين فرسان قبيلة زهير والعبيد دون أن تنزل منها قطرة دمع واحدة:

- الحمد لله رب العالمين، لي الآن شهيدٌ عند الله مات يدافع عن أهله وبلاده وعرضه وكرامته، وسيشفع لي -بإذن الله- عند الله يوم أن ألقاه، افرحوا يا بلاد عين الآبار، فالיום كتبت بلادكم تاريخ فارسها الجديد، بكري بن علي بن زهير، ابن صمود بنت حمزة المالكي.

كان لكلمات السيدة صمود المالكي الأثر الكبير في تحويل حالة الحزن على الشهداء إلى فرح واحتفال بالنصر، وانتقل خبر سحق جماعة أولاد يعقوب سريعًا بين الأقطار حتى وصل مقر الإمام عبد العزيز بن سعود بالدرعية، وعَرَفت ما كان من قبائل بلاد عين الآبار وهزيمتهم الساحقة لجماعة أولاد يعقوب، والقبض على من تبقى منهم وربطهم بالحبال كالأنعام، هؤلاء اللصوص الخارجون على الدولة الذين أزعجوا العامّة في دولته، فارتفعت مكانتهم عنده، كما أعجب بهم وبقوتهم وبسالتهم وشجاعتهم، وتيقن من قوتهم وقدرتهم في الحروب، فأرسل من فوره لكبار شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، وأخبرهم بما كان من فرسانهم في وادي جردان، فتهللت وجوههم فرحًا بالنصر العظيم، وكافأهم الإمام عبد العزيز بن سعود ووافق على شروط قبائل بلاد عين الآبار إكرامًا لما قدموه من خدمة جليلة لدولته، ومكافأة لهم على تضحياتهم، وتمت الموافقة على شروطهم (حتى حين)، كما وقّع على هذا العهد الشريف علي بصفته ممثلًا لقبائل بلاد عين الآبار، وكان لهذا الخبر أثرٌ كبيرٌ في نفوسهم، فزادهم ثقةً في أنفسهم ووحدتهم، وفرحوا بذلك النصر فرحًا شديدًا خاصّةً بعد توقيع الإمام عبد العزيز بن

سعود على شروط عهد الولاء دون إبداء أي اعتراض، وطلب الإمام عبد العزيز بن سعود مقابلة فارس بلاد عين الآبار، قائد معركة وادي جردان الفارس الفذ بكري بن علي، وأرسل له مندوبًا يطلب حضوره للدرعية، ولكن قبل خروج مندوب الإمام عبد العزيز من أبواب الدرعية فوجئوا جميعًا بحضور بكري بن علي ومعه عدد من فرسان قبيلتي زهير وفهر يجرون خلفهم يعقوب العريبي ومن تبقي من رجاله مقيدين جميعًا بالحبال، فأبدى الإمام عبد العزيز إعجابه الشديد به، وقابله بنفسه وسلم عليه سلامًا حارًا، ودعاه لتناول وجبة الغداء هو وفرسانه الأفضال، في جمع غفير من قادة دولته وأتباعه، وفي حضور الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وحضور شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، وكان الإمام عبد العزيز ابن سعود في هذا اللقاء يدعو بكري بالشريف بكري، ومنذ تلك اللحظة لا يُعرف بكري إلا بهذا الاسم، والتصق به لقب الشريف حتى من قبل أن يتزوج..

استأذن بكري ومن معه من الفرسان للعودة إلى ديارهم في بلاد عين الآبار لترتيب بعض أمور بلادهم بعد تلك الحرب، وانطلق هو ورجاله عاندين لديارهم فرحين بما



حقوقه من نصر تحاكت به كل بلاد نجد، أما شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، فلقد طلب الإمام عبد العزيز بن سعود بقاءهم بالدرعية ليشهدوا إقامة الحد على يعقوب العريبي ومن معه من رجاله، وتم الحكم على يعقوب العريبي ومن معه من رجاله بالإعدام ضرباً بالسيف، ونفذ فيهم حكم الإعدام في مشهدٍ مهيب، بعدما قضي فيهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب قضاءه.

لم يكن عدم خروج قبيلتي مالك وشداد بملحمة العبيد أمراً هيناً، أو أنه سيمر دون لوم أو عقاب لفرسان القبيلتين، وذلك لأنَّ البند الثالث بحلف قبائل بلاد عين الآبار يقضي بأنه:

"في حالة تعرض أحد القبائل الأربع لهجوم من عدو أو غريب أو مغتصب، على كل القبائل الموقعة على هذا الحلف الوقوف لنصرة القبيلة المعتدى عليها".

أما البند الرابع فكان يقضي بأنه:

"إذا شنت إحدى القبائل الأربع حرباً ضد عدو يهدد أمنها، فعلى القبائل الموقعة على هذا الحلف الاصطفاف خلف قيادة تلك القبيلة لنصرتها في حربها وألا يتهاونوا في ذلك".

كما قضى البند الخامس بأنه:

"في حالة عدم التزام أحد القبائل الأربع ببند هذا الحلف (الثالث والرابع) تلتزم القبيلة المخالفة لهذين البندين بدفع تعويض مالي يقدره شيخ القبيلة التي وقع التصدير في حقها حسبما يشاء، أو أن تخرج القبيلة المُخالفة لأحد هذين البندين من هذا الحلف".

لم يكن شيوخ قبائل بلاد عين الآبار يعلمون شيئاً عن حقيقة موقعة وادي جردان، وذلك كغيرهم من القبائل الأخرى، فلم تكن تعلم القبائل المجاورة -الذين جاؤوا لتهنئة قبائل بلاد عين الآبار بنصرهم وشكرهم على ما قدموه للقبائل حيث هزيمتهم المدوية لأولاد يعقوب وتخليصهم من إجرامهم ولصوصيتهم- أحداث و تفاصيل معركة وادي جردان، فكل ما أذيع عن تلك المعركة (لكافة القبائل المجاورة) والأخبار التي تناقلتها الناس بالدولة السعودية هو هزيمة أولاد يعقوب العربيي وقتلهم جميعاً بموقعة وادي جردان، والقبض على المجرم الخطير يعقوب العربيي وتقديمه لسلطات الدولة السعودية، وذلك بمعرفة فرسان قبائل بلاد عين الآبار، تحت قيادة الفارس المغوار الشاب بكرى ابن الشريف علي

بن زهير، أما تفاصيل تلك المعركة، فلا يدري أحدٌ عنها شيئاً، إلا من كان حاضراً من أبناء قبائل بلاد عين الآبار وعبيدهم فقط.

الغريب في الأمر أن بكري بن علي وشيوخ وفرسان قبائل بلاد عين الآبار أظهروا لشيوخهم فور عودتهم من الدرعية - وذلك في وجود مئات المهنيين من القبائل المجاورة- خلاف الحقيقة، حيث أخبروهم بأن كل ما تم بمعركة وادي جردان كان مُخططاً له وموضوعاً حسب خطة مُسبقة بمشاركة فرسان القبائل الأربع، حيث نظموا وقوف جزء من فرسان القبائل الأربع على حدود بلاد فهر بخطة صَدِّ محكمة ليحموهم من الخلف، ووضعوا خطة المعركة بإتقان شديد ومُحكّم بعناية، وشارك فرسان القبائل الأربع في الحرب وقدموا حياتهم فداءً لبلادهم...!، وهذا ما أثار الكثير من التساؤلات منذ الوهلة الأولى، ولكن بكري هو من أصر وأكد على الجميع أن يذيعوا تلك المقالة أمام الحضور أو من يسألهم عن المعركة، كما طلب من جميع شيوخ وفرسان ونساء قبائل بلاد عين الآبار ضرورة تنفيذ تعليماته بدقة شديدة، وأخذها بعين الاعتبار، حفاظاً منهم على وحدتهم أمام القبائل المجاورة، وألا يُظهروا وجود أي انقسامات بين

صفوفهم عند غياب شيوخهم، فأمرهم واحد ورأيهم دائماً واحد.. وعلى الرغم من أن طلبه هذا أثار الكثير من التساؤلات والتحفظات حتى من فرسان قبيلتي مالك وشداد، إلا أنه استطاع أن يقنعهم برأيه، فاستجابوا له ونفذوا تعليماته كما يجب.

كاد شيوخ قبائل بلاد عين الآبار أن يطيروا فرحاً وهم ينصتون لأحداث المعركة (المزيفة) وأبدوا إعجابهم الشديد بحسن التخطيط والتدبير للحرب، وهذا التخطيط السليم، وهنؤوا فرسانهم بهذا النصر المبين الذي أعلى قدرهم وشأنهم بين القبائل، وكان سبباً في إنجاز مهمتهم الخطيرة (الهامة) في المحافظة على قدرٍ من استقلالهم عن الدولة السعودية، ولقد أنستهم الفرحة الترحُّم أو الحزن على شهداء المعركة، حتى إن الشريف علي استقبل خبر استشهاد ابنه الشريف بكر بقلب فاتر، حتى لا يُعكّر فرحة الانتصار - حسب قوله- كما أعلن كبير شيوخ قبيلة شداد الشيخ العالم الجليل أحمد بن جابر بن شداد وحاكمها، الذي تولى شؤون قبيلة شداد بعد موت الشيخ نواف بن حازم مع بداية عام ١٧٦٧م، ووقف على الملأ بحماسٍ شديدٍ يقول:

- كاد الأمر أن يبوء بالفشل، وعجزنا عن إقناع الإمام عبد العزيز بن سعود تمامًا، ولم تفلح المفاوضات ولا العبارات حتى يأسنا، ولولا وصول أخبار النصر السعيد، ما كنا أنجزنا مهمتنا، فبهزيمتكم لأولاد يعقوب ورجاله اللصوص سطرتم بنود عهد الولاء، وبدماء شهدائنا وبدمائكم أنتم، كُتبت كل كلمة من بنود هذا العهد.. بارك الله فيكم وجعلكم ذخراً لبلادكم، وأدام الله علينا وحدتنا، وحفظ لنا شرفنا وعزنا ومجدنا بين القبائل.

وعلى أثره وقف كبير شيوخ قبيلة مالك الشيخ الفقيه مازن بن داود المالكي وحاكمها، الذي تولى شؤون قبيلة مالك بعد موت الشيخ عقرب بن أحمد المالكي في نهاية عام ١٧٦٧م يقول:

- إنَّ قيام الشريف بكرى بتسليم يعقوب العريبي ورجاله لحضرة الإمام عبد العزيز بن سعود لهي خطوة في قمة الذكاء لا يفكر فيها إلا قادة حقيقيون، فتسليمهم لسلطات الدولة الجديدة اعتراف منا بها، وتدعيم لموقفنا الموالي لها، وإعلان ولائنا الشديد لها، وأقسم بالله أنني لَمَّا رأيت الشريف بكرى والفرسان البواسل يجرون من خلفهم

يعقوب العريبي ورجاله، كادت روعي تطير في السماء من شدة الفرح، ورفعت رأسي بين الحاضرين، ومنهم من لا أعرفه ولا يعرفني وقلت بعزة وفخر.. خلف هذا البطل الهمام أسود تزار في عرينها ببلاد عين الآبار، وذئاب ضوارٍ تفتك بمن يحاول المساس بأرضنا، ونحن نعرفهم ونعرف ما قاموا به، حتى دون أن نعرف تفاصيل المعركة وأحداث القتال... حفظكم الله بحفظه، وأدام عليكم عافيته، وأيدكم بنصره.

ثم وقف الشريف علي بين فرسان القبائل الأربع خطيباً بحضور الكثير من المهنيين والزائرين -ولعدم معرفته بتفاصيل الحرب لم يعط أهل الحق حقهم- وامتدح من لم يقدموا الشيء الكثير في الحرب، كما أغفل دور العبيد أيما إغفال، فوقف بين الجموع قائلاً:

-نشكر فرساننا وشبابنا جميعاً، وتحية شرف وكرامة خاصة لفرسان قبيلة شداد أصحاب البأس الشديد وقائدهم الهمام الذئب بن شداد صاحب القلب الجسور (الذي لم أراه حتى الآن، وأرجو ألا يكون ما منعه عنا شرّاً) ذاك الفارس الهمام الذي صدقنا وعده وأعطى الفرصة لشباب

الفرسان لقيادة الجيش، بل وفي أصعب الظروف، وبالرغم من عدم معرفتنا الكاملة بتفاصيل الحرب، ولكننا نجزم بقوة بأنه صاحب الفضل الأكبر في النصر، كما أشكر فرسان قبيلة مالك، أصحاب المقام الرفيع، السباقين إلى الخير، الذين لا يبخلون بأرواحهم وجهدهم ومالهم أبدًا في الوقوف ضد أعداء بلادهم، كما أشكر قائد الحرب الجديد لبلاد عين الآبار الشريف بكري بن علي بن زهير، وأقدم الشكر لفرسان قبيلتي زهير وفهرفهم خير السند والعون، جنود بواسل، وأسد ضواري، حفظهم الله بحفظه، وبارك الله صنيعكم جميعا...!

وعلى الرغم من أن تلك الكلمات وهذا الإطار (غير المُستحق) أغضب جميع فرسان قبيلتي فهر وزهير بشدة، كما أغضب العبيد إلا أن توصيات بكري جعلتهم يمتنعون عن الكلام أو التعليق، ويحجمون تمامًا عن الإفصاح وإظهار الحق... وما كان من بكري إلا أن طلب الكلمة كونه قائد بلاد عين الآبار الجديد، وسمح له بذلك في حضور مئات المُهنيين من جميع القبائل والبلاد المجاورة لبلادهم ..

وقف الشريف بكري بين الناس خطيباً فقال:

- الحمد لله رب العالمين صاحب الفضل والنصر، اسمحوا لي بصفتي قائداً بديلاً لتلك الملحمة، أن أقدم شكري وامتناني لمن كان لهم الفضل الحقيقي والأول في النصر، وهم معروفون لنا، كما هم معروفون لشيوخ وفرسان قبائل بلاد عين الآبار، كما أطلب الرحمات من الله سبحانه وتعالى مع شكري وعرفاني وخالص عزائي لشهادتنا - بإذن الله- وعلى رأسهم فارس قبيلة زهير، الفارس الشريف النبيل المقدم الشهيد (أخي الحبيب) الشريف بكر بن علي بن زهير، وأشكر قيادة الفارس المغوار صاحب الفضل والمروءة، خالد الفهري، زعيم فرسان قبيلة فهر، كما أقدم جزيل الشكر والعرفان الشديد لما قدمه الفرسان البواسل الشجعان فتیان -إشارة للعبيد- قبيلتي شداد ومالك وزهير وفهر من تضحيات ووقوف ودعم للحق، وأشكر قبيلتي شداد ومالك على ما قدموه لنا من عون بملحمتنا بوادي جردان.

هدأت تلك الكلمات غضب فرسان فهر وزهير، كما فرح العبيد بهذا الثناء والشكر فرحاً شديداً، ولكنها في المقابل

أغضبت الشريف علي وكل أعضاء مجلس شورى قبائل بلاد عين الآبار - الذين لا يعرفون تفاصيل المعركة- وذلك لذكر الشريف بكري عبيد القبائل في كلمته، حتى أن كبير شيوخ قبيلة فهر الشيخ الفقيه عالم المذهب الحنفي عامر بن عمر الفهري الذي تولى شؤون قبيلة فهر بعد موت الشيخ عثمان بن صاحب الفهري في عام ١٧٦٨م، قال بغضبٍ شديد وبصوت لم يسمعه إلا من كان يجلس بجواره من قبيلة زهير حتى لا يختلق مشكلة تُفسد فرحة النصر:

- كيف يشكر فرسان العبيد...؟! ما الذي قدموه في تلك المعركة يحتاج هذا الثناء...؟! هكذا هو بكري بن الشريف علي، يُثني عليهم في كل وقت، هل حلب الشاة ورعي الأغنام وعلف النوق وسقاية الخيول وتجهيز السلاح يحتاج هذا الثناء وقت الحروب...?!

كما غضب شيوخ قبيلتي شداد ومالك لشعورهم بإغفال الشريف بكري (المتعمد) دور فرسان قبيلتي مالك وشداد بالمعركة، فهو لم يذكر أعظم فرسانهم بكلمة شكر واحدة، ولكنهم فضلوا عدم الإفصاح بشيء حتى لا يفسدوا فرحة النصر، فكنتموا غضبهم في صدورهم، وانفض الضيوف

وانصرف المهنتون، وعاد الجمع كل لقبيلته ليتسامروا وليتحاكوا فيما بينهم، فيتعرفوا على تفاصيل وأحداث المعركة والبطولات التي قدمها الفرسان بشكلٍ تفصيلي - كعادة أهل القبائل في كل حرب أو غزوة- غير أنّ تلك الحرب (تحديدًا) لها مكانتها الخاصة بينهم، فهي التي رفعت رؤوسهم عالية بين القبائل، وحافظت على استقلالهم رغم كل الظروف التي تمر بها بلاد نجد وشبه الجزيرة العربية..

ما إن عاد الجمع إلى قبائلهم حتى كانت الحقيقة التي أفرغتهم وأربكتهم وعكرت عليهم فرحة النصر، فما إن عرفوا حقيقة الأمر، وتخاذل فرسان قبيلتي شداد ومالك، حتى اجتمع من فوره الشيخ مازن بن داود المالكي بفرسان قبيلة مالك ومن خلفوهم بعدهم من شيوخ قبيلة مالك في مجلس قبيلة مالك، ووجهوا لهم اللوم الشديد ونهروهم بشدة على تخاذلهم.. كما اجتمع الشيخ أحمد بن جابر بن شداد بفرسان قبيلة شداد ومن خلفوهم بعدهم من الشيوخ، كما أرسل في طلب الذئب بن شداد وابنه عاقر، فأقر الذئب بخطئه وخطأ فرسان قبيلة شداد لعدم تقديرهم السليم للأمر، ولكنه أوضح بأنّ قرار عدم المشاركة في الحرب، هو قرار

شيوخ قبيلة شداد ومن خلفوهم بعدهم، وأنه -أي الذئب- ليس له أن يخرج عن رأيهم، فهو لم يعتد من قبل على ذلك، وأنهم وحدهم المسؤولون عن هذا الخزي والعار الذي لحق بقبيلة شداد.. ومع هذا وجه الشيخ أحمد بن جابر بن شداد لومه الشديد لكل من حضر من فرسان قبيلة شداد ومن خلفوهم من بعدهم من الشيوخ، وأقسم على معاقبتهم على تقصيرهم، فلقد اعتبرهم متخاذلين (أيما تخاذل) عن نصره بلادهم، وارتكبوا جريمة نكراء في حقها يجب عقابهم عليها...

لقد غضب شيوخ قبيلتي شداد ومالك أشد الغضب، فبعد تفاخرهم بهذا النصر أمام القبائل وكل بلاد نجد بما فيهم الإمام عبد العزيز بن سعود، شعروا بالعار والخذلان الشديد من تصرف شيوخ وفرسان قبائلهم، وشعروا بالعار أمام أنفسهم أولاً، وتساءلوا... كيف استطاع فرسانهم أن يتركوا قبيلتي زهير وفهر في مواجهة هذا الخطر الداهم وحدهم...؟! وكيف يقبلون أن يُقاتل عبيدهم بدلاً عنهم...؟! أي عارٍ وأي خذلان هذا...!؟

وما إن علم الشريف علي بن زهير بحقيقة معركة وادي

جرذان حتى أرسل من فوره لشيوخ القبائل ودعا لاجتماع طارئ بمجلس شورى القبائل سينعقد في صباح اليوم التالي مباشرة، وسيحضره قائد ملحمة (العبيد) - وذلك حسبما نعتها الشريف علي بنفسه، كما أصر أن يُردد الرُّسل تلك العبارة على مسامع أعضاء مجلس شورى القبائل ليظهر خذلان قبيلتي مالك وشداد- ليستشهدوا به وليقص لهم ما كان من فرسان قبيلتي شداد ومالك من تخاذل..

وبعد إرسال الشريف علي بن زهير الرُّسل باتت قبائل بلاد عين الآبار مُستيقظة حتى الصباح، وتعكر صفو الانتصار وباتوا ليلتهم والمرارة والحزن يغشاهم، وبات شيوخ قبيلتي شداد ومالك في غمٍّ وحسرة ألّمت بهم جميعاً، وخيم السكون على بلاد عين الآبار حتى الصباح، وشعر حُكماء القبائل الأربع بخطورة الموقف، فقد يترتب على هذا الاجتماع -في الغد- انقضاء بل وفسخ تحالف قبائل بلاد عين الآبار وينفك عقدهم، وذلك إن لم تدفع قبيلتي مالك وشداد ما سيحدده اجتماع مجلس شورى القبائل في الصباح من غرامة مالية جزاءً لتقصيرهم وتخاذلهم في تلك الحرب... خاصّة أنه قد تسرب خبر خطير جداً - تناقلته الألسن بين بلاد عين الآبار

كالنار في الهشيم- يؤكد عزم الشريف علي بن زهير تخريم قبيلتي مالك وشداد مبلغًا كبيرًا جدًّا، هو قيمة الجباية التي كان قد حددها يعقوب العريبي على بلاد عين الأبار، ستدفعها قبيلتنا مالك وشداد لقبيلتي زهير وفهر لمدة عامين متتاليين أو أكثر، وهذا ما سيرهق كاهلهم للغاية... وزاد هذا الخبر الأمر سوءًا على سوء، فظل فرسان القبيلتين وشيوخها في حيرةٍ من أمرهم، فلا مبرر مُناسب ومقبول لهم، وفكروا كثيرًا للخروج من تلك الأزمة.. كيف سيصنعون في الغد؟! وما هو ردهم المفحم القاطع على هذا التخاذل الشديد...؟! وكيف سيبررون موقف فرسانهم المُخزي...!؟!

ولكن ..

بالنظر للأمر – دون وعي بالغ وتدقيق- يظهر للجميع أنّ بموقعة ملحمة العبيد خالف فرسان قبيلتي مالك وشداد بنود حلف قبائل بلاد عين الأبار أشد المُخالفة، ولقد تبنى كل شيوخ قبيلتي زهير وفهر هذا الرأي دون تردد، كما كاد شيوخ قبيلتي شداد ومالك أن يقروا بذلك، ولكنَّ الشريف بكري بن زهير كان له رأي آخر، فلقد كان مُنصِفًا من عدة

أوجه، وأراد أن يستغل هذا الحدث لدعم قضيته الأساسية التي تشغله، ويستفيد بقوة مما حدث، فلقد أراد الشريف بكري أن يستغل تلك الأحداث لإحياء أمر التجديد من جديد...!

نعم .. فالآن فقط يمكن له عرض الأمر دون خوف أو تردد، فهو المنتصر والبطل المغوار الذي أنقذ بلاد عين الآبار بحسن تدبيره وقيادته وفكره المستنير، وحقق نصرًا ذاع صدهاء في كل الأقطار، وشكرت عليه بلاد عين الآبار من الكافة، وكان سببًا رئيسًا في استقلال بلادهم عن الدولة السعودية، ولقد سنحت له الفرصة المناسبة لذلك... وقرر ألا يضيعها...!

ما يغفل عنه الجميع (في بلاد عين الآبار) أنّ الشريف بكري ما حقق هذا النصر (العظيم) إلا بمخالفته الصريحة لبنود حلف قبائل بلاد عين الآبار، ولكنّ شيوخ القبائل الأربع لم يلتفتوا لذلك أبدًا، وانصبّ تركيزهم (فقط) على خطأ فرسان قبيلتي شداد ومالك، الذي لا يُعد خطأ وفقًا لبنود حلف قبائل بلاد عين الآبار...! ولقد وضع الشريف بكري ذلك عندما وقف خطيبًا بمجلس شورى القبائل بعدما سُئل

عن تفاصيل المعركة والتجهيز لها، وما دار فيها، وعن سبب هذا الانشقاق وعدم مشاركة فرسان قبيلتي شداد ومالك فقال:

- الحمد لله رب العالمين صاحب الفضل والمنة، العاطي الواهب الرزاق صاحب النصر وحده، والصلاة والسلام على نبينا وجدنا محمد - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- أقول آملاً أن أقف على أعتاب الحق، وأقول مُنصفاً، كما أرجو من الله أن أتعلى بالإنصاف... إنَّ وقوف فرسان قبيلتي شداد ومالك على حدود بلادنا لحمايتها والذود عنها - إن لم يحالفنا توفيق الله بالنصر- لهو خير دليل على أنهم لم يخذلونا، والدليل على ذلك أنَّ أكثر عدد الفرسان كان على حدود بلاد فهر، أي في مواجهة العدو متأهبين للقتال، هذه واحدة.. أما الثانية، فإرسالهم كل فتیانهم الذين يجيدون الضرب بالسيف وإطلاق السهام والطعن بالرمح حتى أصبحت القبيلتان خاليتين تماماً من الفتیان إلا من مريض أو ضعيف، فهذا خير دليل على مؤازرتهم لنا ووقوفهم بجانبنا، وتلك الثانية.. أما الثالثة (وتلك هي النقطة الأهم) فأوضح

لعلمائنا وشيوخنا بأنَّ حلف قبائل بلاد عين الآبار جاء ببنده الأخير أنه : (كل قرارات قبائل بلاد عين الآبار تتم فقط بموافقة كبار شيوخها، ولا يجوز اتخاذ أمر يخص القبائل الأربع بدون موافقة مُسبقة منهم) ..وتطبيقاً لهذا البند نكون نحن (المُحاربين) قد تصرفنا بدون موافقتكم، كما أنَّ مشاركة (فرسان الفتيان) في حروبنا خارج ديارنا أمر يُخالف حلف بلاد عين الآبار، ففي الماضي كان هناك مبرر لذلك، أما الآن وبلاد عين الآبار بها من الفرسان ما يستطيع صد أي عدوان، منعم - وفقاً لبنود الحلف- مُشاركة الفتيان في القتال خارج حدود بلادكم، ومن ثمَّ يكون من خالف بنود الحلف متعمداً وخطط لذلك هم الأحق بالعقاب، أما فرسان القبيلتين (مالك وشداد) فلقد نفذوا بنود الحلف نصاً، وعليه يكون من خرج للحرب هم من خرقوا بنود الحلف، ومن ثمَّ يكون المُتهمون - طبقاً لبنود الحلف- هم من خرجوا للحرب وحققوا النصر، وذلك إن طبقتُم فينا بنود حلفكم...!

كانت تلك الكلمات كالصدمة التي لم يكن يتوقعها أحدٌ من الحضور، كيف لمنتصر وقائد شهد له الجميع بنصره أن يتهم نفسه بتلك الاتهامات...؟! فبدلاً من أن يكيل التهم لمن

لم يقف معه في حربه ويؤازره، يحاول إعطاءهم حقههم ويبرر لهم موقفهم، ويذكر فضلهم ويبالغ فيه.. ما تلك الحيادية وهذا الحق الذي نطق به الشريف بكري...؟!!

لم يكن الشريف بكري يقصد بكلماته تلك إلا أمرًا واحدًا، وهو أن يجعل أعضاء مجلس شورى القبائل يُقرُّون بضرورة تجديد بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار، ولا يعبأ بأن يتهم نفسه بأيُّ تُهم ليصل لبغيته، لذا قرر أن يتحدث بتلك الطريقة التي ستجعله يتطرق للأمر بسلاسة وبشكلٍ طبيعي، وعمل علي أن يُفاجأهم فيعيدهم لأنفسهم ويعملون عقولهم ويفكرون، فيدفع شيوخ القبائل مُجتمعين لتبني فكرة التجديد للخروج من هذا المأزق، فأمر التجديد بات لا مفر منه مع اختلاف ظروف بلاد عين الآبار عن ذي قبل.. هذا الأمر الذي يحلم به هو وجمعٌ كبيرٌ من العلماء والشباب وبعض الشيوخ الذين يرفضون سلطان التقليد والجمود، ولكنَّ الغريب أنَّ هذا القصد لم يصل إلا للقليل منهم، وكان أول من فهم قصده الشريف علي بن زهير، ولكنه أحجم عن الكلام ولم يتحدث، وأطرق بعيدًا وانتظر للحظات يفكر كيف سيكون الرد...!

أما باقي أعضاء مجلس شورى القبائل - ممن لم تصلهم
الفكرة التي يريدها الشريف بكري- فلقد تعجبوا أشد العجب،
وانبهروا بكلماته العادلة المُنصفة، ووقف شيوخ القبائل
الأربع في حيرة شديدة من أمرهم، ففرسان قبيلتي مالك
وشداد نفذوا بنود حلف بلاد عين الآبار فعليًا، ولهذا تمسك
شيوخ قبيلتي مالك وشداد بذلك... واعتبروا فرسانهم لم
يرتكبوا خطأ أو جرماً في حق بلاد عين الآبار... فلقد نفذوا
ما اتفق عليه أجدادهم وشيوخهم، وكتبوه في حلفهم ووقعوا
عليه، أما من خرج للحرب وشاركوا العبيد معهم فيها، فهم
من خالفوا بنود حلف بلاد عين الآبار، وبالتالي يكون من
الواجب مُحاکمتهم، وذلك (إن تمسكوا بتطبيق بنود حلف
قبائل بلاد عين الآبار عليهم)...! ولكن كيف يحاكمونهم وهم
من حققوا نصراً شكرتهم عليه كل القبائل، حتى امتد أثر
هذا النصر لتحقيق نصر آخر بموافقة الإمام عبد العزيز بن
سعود على شروطهم الأخيرة في عهد (الولاء) التي ضمنت
لهم قدرًا جيدًا من استقلالهم عن الدولة السعودية بشكل
جيد...؟!!

بات الجميع في حيرة شديدة من أمرهم، ولم يتردد شيخ قبيلة
فهر الشيخ عامر بن عمر الفهري في أن يقول:

- والله إنه لأمرٌ محيرٌ حقًا...!

فعاد الشريف بكري من جديد يُمهد شيئاً فشيئاً ل طرح مسألة التجديد التي بات لا مفر منها فقال:

- كثيرًا ما طلبنا منكم أن تجعلوا من يحل محلكم عند غيابكم، ولكنكم رفضتم ذلك مرارًا، متمسكين بما جاء بالحلف، على الرغم من أن أسباب وضع هذا البند بالحلف قد انتقت تمامًا، فلقد وضع الأجداد هذا البند (كما تعرفون) لأنهم لم يكونوا يغيبون عن الديار، فقصرُوا حياتهم على الزراعة والرعي وتربية الأغنام والتجارة فقط للقبائل التي تجاورنا، فلم يكونوا يتجاوزون حدود البلاد تفرغًا لإدارة شؤون القبائل الأربع، وها أنتم ذا.. وبعد مئات السنين أصبحتم تخرجون، بل وتقيمون خارج الديار لمدد قد تصل لأسابيع متواصلة، فلقد عملتم بالتجارة، وبات لكم تجارة عظيمة بدأت من حواضر نجد، ثم الأحساء ثم الحجاز، وأخيرًا امتدت إلى بلاد العراق والشام، وأحيانًا كثيرة تغيبون عن الديار لهذا السبب أيامًا طويلة، كما غدت بلادنا ذات شأنٍ عظيمٍ ومكانة.. وأصبحتم تبرمون العهود والمواثيق مع قبائل وبلاد، بل وإمارات كبيرة،

فكيف لبلاد كبلادنا ما إن تغيبوا عنها لا يوجد بها شخص واحد له الكلمة الأولى عليها، يرجعون له فيوحدها ويجمع شملها ويقيم الصفوف...؟! انظروا لعدونا.. انظروا لأولاد يعقوب وهم لصوص وقتلة.. يجعلون الكلمة الأولى والرأي لأسد بن يعقوب عند غياب يعقوب العربي، وإن غاب يعقوب وأسد يجعلون الكلمة الأولى والرأي لعربي بن يعقوب، وإن غاب هؤلاء كان كليب بن يعقوب صاحب الرأي والكلمة الأولى، وإن غابوا جميعاً كان أحد كبار مجرمي أولاد يعقوب يقال له غضبان بن نوح.. كيف لا نستفيد من عدونا وننظم بلادنا بالشكل المناسب لها...؟! وهي تستحق منا ذلك، الخطأ في رأيي في بعض بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار نفسه، التي يجب تعديلها، فهي مخالفة لواقعنا وعصرنا الحالي، وأنا أعلم أنني ليس لي رأي في مجلسكم، ولكم أن ترفضوه كما حدث من قبل، ولكن لا سبيل أمامكم لحل تلك المعضلة التي وقعت فيها (بسبب بنود الحلف القديمة) إلا التجديد، وأرى الاكتفاء بتعديل بعض البنود التي تتعارض مع واقعنا وظروف حياتنا، أما البنود الأخرى التي لا تتعارض مع

واقعنا المعاصر، وقيمنا ومبادئنا العليا السمحة فتلك
(ثابت) علينا أن نحافظ عليها ونحميها من أى تحريف..
وبعد أن ننتهي من ذلك علينا أن نُعزي أنفسنا على
شُهدائنا، ونعطيهم حقهم ولا ننساهم، ثم نحتمل جميعًا
بنصرنا، ونهنئ أنفسنا على النصر وعلى وضع قواعد
وبنود جديدة لحلفنا تساعدنا على حفظ مكانتنا بين القبائل،
فتلك المرة كان النصر حليفنا، ولكن المرة القادمة إن وقفنا
جامدين لا نعرف ما الذي قد يحل بنا..

فقال الشيخ أبو زهرة المالكي الذي يبدو أنه ما زال رافضًا
أمر التجديد:

- إذن كل ما فعله الأجداد لا يعجبكم...! وتريدون تغييره
بسبب نصر حقيقتهم، ألا تعلم كم من نصر حققه أجدادك
وكم معركة خاضوها ليحفظوا لكم بلادكم ويجعلوكم في
تلك المكانة التي يحسدكم عليها القاصي والداني...؟! هل
تعرف حجم التضحيات التي قدمها أجدادنا لتصلوا لما أنتم
فيه الآن من عز وشرف...?!

- حاشا لله ألا يعجبنا كل ما جاء به الأجداد لمجرد نصرٍ لا
يوزن بمثقال ذرة في تاريخ انتصاراتهم.. من قال هذا...!

أتحسب يا عمي أننا نرفض كل ما جاء بالحلف، كلا والله،
 ففي الحلف بنود، والله لو أننا فكرنا ألف مرة لم نكن
 لنصل إلى ما بها من فضائل، ولكننا (وأنا أتحدث بصيغة
 الجمع لأن معي الكثيرين ممن يريدون التجديد ويطلبونه،
 وأنتم تعرفونهم جيداً) لا نريد أن نهدم كل ما جاء به
 الأجداد، نحن فقط نريد أن نصبغه بصبغة عصرنا
 الحالي، ونزينه ليتفاعل معنا في حياتنا، نريد مرونته ولا
 نريد جموده، نريد أفضل ما فيه، ولا نريده أن يكون
 كحجر عثرة في حياتنا، وها أنتم رأيتم بأنفسكم، ماذا لو
 كنا استسلمنا لبنود الحلف ولم نُحارب، ما حجم الأضرار
 التي كان من الممكن أن نتعرض لها...!؟!

- تقصد يا سيادة الشريف أن نترك لكم الحلف تُعدلون
 وتُغيّرون فيه وتأتون لنا ببنود جديدة وتقولون ها هو ذا
 حلفكم الجديد احتكموا بما جاء فيه، هل هذا ما تريدون أن
 تفعلوه وتطمعون فيه...!؟!

- كلا والله يا أبت، وأنتم لكم مكانة وقد تعرفونهما جيداً،
 فلا يتم التجديد أبداً إلا إذا شاركتم فيه، مع علمنا أنكم
 تتحفظون على أمر التجديد، ولكن وجودكم ضرورة حتى

تمنعوننا إن انحرفنا عن الطريق السليم، ولكن بشرط الأمانة والإخلاص في عملنا جميعاً، فما يهمنا في المقام الأول هو مصلحة بلاد عين الآبار مجتمعة... فكيف يكون التجديد تجديداً بدون مشاركة كل الأطياف...؟! من يؤمنون بالتجديد، ومن يتحفظون عليه أيضاً، بل ومشاركة من هم على الحياد، ليكون لهم كلمة الفصل بين الفريقين إن اختلفا...! فالكل عليه أن يُشارك؛ لأنَّ الحلف حلفنا جميعاً، ولا يجوز أن يستأثر به طرف دون الآخر، فنحن نرفض أن نأتي لكم ببود جديدة ونقول لكم ها هي...! كما نرفض أيضاً أن تقدموا لنا بنوداً وتقولون لا تجديد إلا في تلك...! بل ننتشاور ونتحاور ونتناقش ونجلس معاً، ونأخذ وقتاً كافياً لذلك، ونُقدم كل ما لدينا، وقبل كل شيء نضع من البداية القواعد التي سنلجأ إليها عند خوضنا تلك التجربة الفكرية الرائعة...!

فقال الشريف علي وقد بدأ يميل قليلاً إلى فكرة التجديد، ولكنه ما زال مُتحفظاً:

- ماذا تقصد بتلك القواعد...؟! وضحا لنا الآن كي نفهم ما تريده...!

- التجديد يا سادة هو نقل بنود الحلف من قرنٍ إلى قرن، ومن جيلٍ إلى جيل، وهو مُحاط بالحفظِ والصيانةِ بحيث لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه بالشكل الذي يُعطل مقاصده العامّة، ولا يُحال بينه وبين قيادة حياتنا وتوجيهها، لذا فليس معنى مشاركة كل الأطراف في التجديد أن يُشارك فيه كل من ليس له دراية ومعرفة حقيقية بالحلف، وبما يجب تجديده...!

- كيف ذلك...!؟

- ليس كل من يرغبون في التجديد يصلحون أن توكل لهم مهمة التجديد، فقد أكون مؤمناً بالتجديد ولكن غير مؤهل بعملية التجديد نفسها...!

- هل من الممكن أن توضح بشكل أكبر ما تريد الوصول إليه...!

- عملية التجديد نفسها تحتاج إلى مؤهلين يقومون به، يعرفون بنود الحلف جيداً، وأهدافه الأساسية والظروف التي أحاطت بكل بند من بنوده، والأسباب التي دعت له، فاختيار من يوكل لهم مهمة التجديد هو بداية التجديد الحقيقي (المُعتدل)...!

تهلل وجه الشريف علي، وقد بدأ يقتنع بفكرة التجديد التي تقوم على أسس واضحة وجلية دون إبهام، فعلق قائلاً:

- أمرٌ جيد، ماذا أيضاً...!؟

- المجددون لا بد أن يكونوا فاهمين لبنود الحلف، عالمين له حافظين لبنوده، يعرفون ما زاد فيه وما انتقص منه، وعالمين أيضاً بأحوال بلاد عين الآبار جيداً، وما يحتاجون إليه في حلفهم، فلا يكون مُجدداً من يعيش في صومعته لا يعلم عن بلاد عين الآبار شيئاً، حتى وإن كان عالماً بكل بنود الحلف حافظاً له، ولا يكون مُجدداً أيضاً من يعرف كل ظروف وأحوال بلاد عين الآبار وله نشاط مؤثر ورأي ويعرف كل مُتطلبات بلادنا ويفهم أمور التجارة وغيرها، وعلى دراية تامة بما يدور في القبائل المجاورة والمدن القريبة والبعيدة، ولا يعرف كل بنود الحلف ويحفظها ويفهم مقاصدها وأهداف الحلف الأساسية..

- ولكن قلما توفرت تلك الشروط في شخص واحد، وبهذا يكون التجديد أمراً بالغ الصعوبة...!

- بل تتوفر تلك الشروط في عدد لا بأس به، فليس مطلوباً أن يُشارك كل أهالي بلاد عين الآبار في التجديد، يكفي ممثلون عنهم، وإن لم يوجد بيننا أمثال هؤلاء يجب أولاً أن نعلمهم بنود الحلف وإلا فلا يصلح التجديد...!

كان لكلام الشريف بكري مفعول السحر، فكان ينزل على الصدور المُتلهبة فيطفئ غضبها ثم يثلجها، وكان الحضور ينظرون إلى بعضهم البعض في دهشة، ينظرون له بإعجابٍ شديد، فوسطيته في أمر التجديد وإقراره بدور الأجداد (العظيم) وإعطائهم قدرهم بل والتعظيم لهم، مع تجهيز كافة الردود المُقنعة والمناسبة على الأسئلة المطروحة جعل الجميع يشعرون بوجود خطة وآليات واضحة للتجديد وليس الأمر هكذا عبثاً، فلقد اختلف – حسبما رأوا- طرح الشريف بكري لمسألة التجديد عن طرح شيخ المجددين ربيع المالكي من قبل، وهذا ما جعلهم في النهايه يقبلون فكرته ويدعمونها..

وافق الشريف علي وكل أعضاء قبائل زهير وفهر وشداد وعضوين من أعضاء قبيلة مالك بمجلس شورى قبائل بلاد عين الآبار على اقتراح الشريف بكري بضرورة التجديد،

ورفض عضو واحد من قبيلة مالك التجديد هو الشيخ أبو زهرة المالكي، فكان قرار التجديد بأغلبية مُطلقة وصلت لحد الإجماع...!

وفي اليوم التالي مباشرة تم عمل اجتماع كبير في ساحة كبيرة خارج مجلس شورى القبائل بديار قبيلة زهير، وتم دعوة كل أفراد القبائل فيه، رجالاً وشيوخاً وأطفالاً، ووضعت الشروط اللازمة في المجددين، وكانت نفس الشروط التي وضعها الشريف بكري من قبل، ولهذا تم إقصاء عدد كبير من مؤيدي التجديد ورافضيه على حدٍ سواء، وكان أبرز هؤلاء الشيخ ربيع المالكي (شيخ المُجددين) حيث تم استبعاده من مجموعة المجددين؛ لأنه لم يكن على دراية تامة بكل بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار، فلم يكن لديه دراية إلا بالبنود التي واجهته في حياته.. كما تم استبعاد الشيخ أبو زهرة المالكي من مجموعة المحافظين، لأنه لم يكن على دراية بكل مُتطلبات قبائل بلاد عين الآبار، فلم يكن على دراية تامة إلا بالشؤون التجارية والقليل من الشؤون الاجتماعية، وكانت مهمة اختيار المُجددين تتم بمعرفة مجلس شورى القبائل بكل حيادية وشفافية وبمعايير واضحة..

في النهاية تم اختيار ثلاث مجموعات من الشيوخ والشباب أصحاب الرأي بلغ مجموعهم مُجتمعين ثلاثين رجلاً، كان العدد الأكبر منهم - بالفئات الثلاث- من شيوخ وعُلماء المدرسة الحنفية، وهم من سيقومون بتلك المهمة الخطيرة (مهمة تجديد بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار) وتم تحديد مكان خاص يجتمعون فيه، وموعد محدد يُقدمون فيه ما توصلوا إليه، وما اتفقوا عليه من بنود..

بدأت الاجتماعات بشكلٍ متواصل، وكان الشريف بكرى علي رأس فريق المُجددين، والشريف علي بن زهير علي رأس فريق المُحافظين، والشيخ العالم شيخ قبيلة مالك مازن بن داود المالكي علي رأس فريق المحايدين، ودارت مُناقشات حامية الوطيس وخلافات شديدة بين الفريقين، وكان صوت الشريف علي كصوت أي عضو بتلك المجموعة، فلم يكن له أفضلية في شيء كما هي له في مجلس شورى القبائل، وكثيراً ما دخل مع الشريف بكرى في خلافات حسمها (أحياناً كثيرة) الشريف بكرى لصالحه بفضل منطقته السليم ورجاحة فكره ونور بصيرته وعقله الناضج.

دارت مناقشات ساخنة للغاية، وكان للشريف بكرى اقتراحات عديدة تم طرحها ومناقشتها وإقرارها بالحلف، ولعل أهم قضية أثارت جدلاً واسعاً عند تجديد بنود الحلف، واستمرت لعدة اجتماعات طويلة أصر عليها المُجددون، ورفضها المُحافظون، وتوقف عندها المُحايدون، هي قضية طرحها الشريف بكرى خاصّة بتعليم أطفال العبيد...!

لم تكن مسألة تعليم أطفال العبيد التي أثارها الشريف بكرى عند تجديد بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار مسألة مُستحدثة... بل كانت مسألة قديمة تم إثارتها من قبل، فلقد أثّرت (من قبل) في مجلس شورى القبائل، ومَن آثَارها - في تلك الفترة- هو بكرى بن علي أيضاً.. تفجرت تلك المسألة بعد السماح للعبيد بتعلم شؤون الفروسية وأمور القتال بشهورٍ قليلة، حيث توجه بعض أطفال عبيد قبيلة زهير إلى بكرى يطلبون منه أن يُسمح لهم بالتعلم في كُتاب القبيلة (أسوة) بغيرهم من الأطفال...! كان هذا الطلب غريباً في ذاته، فلم يُطلب مثله من قبل، ولكن لأن العبيد وجدوا من يستمع إليهم، ويقف بهمةٍ عند شكواهم، ويعمل بجدٍ



وجهد لحلها، كما يسعى جاهداً لتحقيق كل مطالبهم، لم يتردد أطفال العبيد في التوجه - من أنفسهم دون أن يدفعهم أحد لذلك- إلى بكري يطلبون منه هذا الطلب، الذي رآه بكري حقاً تفرضه الأحكام الإنسانية، وليس من العدل أن يُحرم العبيد منه...!

كان أطفال العبيد محرومين من التعلم في الكتاتيب في بلاد عين الآبار، فلقد جرت العادة على عدم تعليم العبيد في بلاد عين الآبار، وفي كل قبائل نجد بل شبه الجزيرة العربية، وكان هذا المنع مجرد عادة تناقلت بين القبائل وورثتها الأجيال جيلاً من بعد جيل...! ولكن بكري لم يجد حرجاً أبداً في المطالبة بالسماح لأطفال العبيد بتلقي العلم، وتوجه من فوره إلى مُدرّس كُتّاب قبيلة زهير وطلب منه تخصيص وقت لتعليم أطفال العبيد القرآن الكريم والقراءة والكتابة، وبعض قواعد الحساب أسوة بأطفال القبيلة، ولكن في مواعيد مختلفة بحيث لا يختلط أطفال العبيد بأطفال السادات، أسوة بما فعله في مسألة تعلم العبيد شؤون الفروسية، وكان قد اتخذ قراراً - بينه وبين نفسه- أن يباشر تعليمهم بنفسه كما فعل من قبل عند السماح للعبيد بتعلم الفروسية..

مع إصرار بكري علي ذلك لم يكن أمام مُدرس الكُتاب رفض طلبه، فهو ابن شيخ قبيلة زهير، كما أنه ذو مكانة خاصّة بين الناس في قبيلة زهير...! ولكن مُدرس الكُتاب طلب في الوقت نفسه موافقة الشريف علي بن زهير علي ذلك، فرفض الشريف علي طلب بكري بشكلٍ قاطع، ومنع أطفال عبيد قبيلة زهير من التعلّم بکُتاب قبيلة زهير، وثار نقاشٌ طويل بين بكري وأبيه في هذا الخصوص، واتهم الشريف علي ابنه بكري بأنه يُبالغ في تودُّده للعبيد، ويتوسّع بشكلٍ فحجّ في منحهم الحقوق، بل إن تصرفه هذا تصرف خرج عن عادات وتقاليد وأعراف القبيلة، ولا شك أنه سيلاقي رفض شيوخ قبيلة زهير بشدة، وشدد عليه بالألا يفتح تلك المسألة (مرةً أخرى) للنقاش وعليه أن ينهيها عند هذا الحد، حتى لا يُسبب لنفسه أو له أي حرج...!

استجاب بكري لطلب الشريف علي، وخرج لأطفال العبيد، وحاول أن يقنعهم بأنه سيقوم بنفسه بتعليمهم ما يريدون أن يتعلموه، ولكنه وجد في عيون أطفال العبيد انكسارًا وحرزًا مزق فؤاده، ولأن بكري كان إنسانًا بما تحمله الكلمة من معانٍ، لم يتحمل تلك النظرات، وتلك الدموع التي انهمرت

من أعينهم فمزقت قلبه تعاطفًا مع أحوالهم، فالذهاب إلى كتاب القبيلة هو أمر يرغبون فيه لذاته، فهم لا يعرفون قيمة العلم أو التعليم، ولكنهم يريدون دخول هذا المكان المُحَرَّم عليهم دخوله، فقرر بكري أن يُخالف قرار أبيه لأول مرة في حياته.. وأعاد عليه الأمر مرةً أخرى، وتوسل إليه للموافقة على هذا الطلب الإنساني، ولكن الشريف علي رفض بشدة دون إبداء أي أسبابٍ أخرى...!

لم يتوقف بكري عند هذا الحد، وعارض أباه بشدة في قراره الذي رآه مُجحفًا، فعرض الأمر على مجلس شورى القبائل مُتحديًا قرار أبيه، وعلى الرغم من أنّ هذا الأمر أثار خِلافًا كبيرًا بين بكري وأبيه، إلا أنّ الشريف علي في النهاية وافق على عرض الأمر على مجلس شورى القبائل، ولكنه أخذ منه موقفًا مُعاديًا منذ الوهلة الأولى، ومن ثمّ سيصعب عليه الحصول على موافقة لهذا الطلب، فالأمر بات محسومًا من البداية، ومع ذلك لم ييأس بكري وأصر على عرض الأمر على مجلس شورى القبائل..

تم تحديد اجتماع طارئٍ لمناقشة هذا الطلب -الشاذ- من وجهة نظر الشريف علي، فرفضه الكثير من أعضاء

مجلس شورى القبائل من البداية، حتى قبل اكتمال حضور باقي الأعضاء وطرحه للمناقشة، ولم يكن يقف بصف بكري وطلبه (الغريب) من أعضاء مجلس شورى القبائل إلا الشيخ مازن بن داود المالكي، شيخ قبيلة مالك، الذي اعتبر تعليم أطفال العبيد أمرًا مُفيدًا من الدرجة الأولى لسادات العبيد أنفسهم، فعندما يتعلم العبيد القراءة والكتابة ومسائل الحساب سيستفيد منهم ساداتهم (بالتأكيد) في أمور التجارة وغيرها من الأمور التي يصعب على العبيد إتقانها...

بعد اكتمال أعضاء مجلس شورى القبائل، وبعد أن أعلن الشريف علي أسباب الاجتماع والداعي له، أذن إلى بكري بالكلمة، فقدم مسأله وعرضها بنفس الطريقة التي عرض فيها طلب تعلم العبيد شؤون الفروسية والقتال، حتى إنه استخدم ذات الكلمات والألفاظ، ولكن الرفض هذه المرة كان حادًا للغاية، فلقد قال الشيخ عامر بن عمر الفهري:

- هذا الطلب مرفوضٌ قطعًا؛ لأنه يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تحكمننا جميعًا، وتحكم عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا، فهذا الطلب يتعارض بشدة مع قاعدة

في الدين جاء بها رسولنا الكريم ﷺ حين قال: «لا تُعلموا أولاد السِّفلة العلم، فإن علمتموهم فلا تولوهم القضاء والولاية»... والمقصود بـ"السفلة" في هذا الحديث (الصحيح) هم العبيد ودنية القوم، ومن ثم فنحن في جِلِّ منه بداية بأمر الدين، ولن نوافق على هذا الطلب جملةً وتفصيلاً...!

غضب بكري غضبًا شديدًا من قول الشيخ عامر الفهري، حيث اعتبر كلامه مُغالطة مُتعمَّدة منه، وكاد بكري (لأول مرة) أن يخرج عن هدوئه، فقال مُخاطبًا الشيخ عامر مُتعمدًا استفزازه:

- تلك مُغالطة مُتعمَّدة يا شيخ عامر، وأنت تعلم جيدًا أنه ادعاء باطل.. فتلك المقولة ليست حديثًا عن النبي ﷺ ولا أصل لها في سنته المُطهرة.. فلقد نُسبت لرسولنا الكريم زورًا، ولم ترد عنه ﷺ.. ولكن - ولأننا نحب أن نكون من أهل الإنصاف- وإعلاءً لقيمة الحق والحقيقة، هناك بعض الأحاديث النبوية التي تحمل ألفاظًا قريبة منه لفظًا.. ولكن تختلف مقاصدها ومعانيها بشدة عما أردت أن توضحه لتبرر رفضك الذي عجزت عن أن تجد له سببًا منطقيًا

مُقتنعًا، فألصقت رفضك بأحكام الدين الحنيف تزويرًا
وادعاءً.. ومن ثم فهذا الادعاء أرفضه أيضًا جملةً
وتفصيلاً..

أثارت تلك الكلمات غضب بعض شيوخ قبائل بلاد عين
الآبار واستفزتهم، واعتبروا أنّ طريقة بكري خرجت عن
حدود اللياقة والاحترام وتقاليد بلاد عين الآبار، فعلق
الشريف علي بجدّة قائلاً:

- إن كنا نسمح لك أو لغيرك بالحضور والمناقشة فأنت
مجبّر بأن تحترم أعضاء مجلس شورى القبائل، فهم
شيوخك وأعمامك في المقام الأول، وعليك أن تتعامل
بأصول اللياقة والاحترام، ولا تخرج عليها أو أن تحيد
عنها قيد أنملة، فالتجاوز مرفوض، وهذا التطاول غير
مقبول أبدًا في مجلسنا، وإن حدث منك مثل هذا التصرف
فستُمنع تمامًا من حضور أي اجتماعات بمجلس شورى
القبائل، وستُرفض كل اقتراحاتك دون حتى أن نعرفها أو
نعرف مغزاها...!

فقال بكري مُحاولًا تمالك أعصابه حتى لا يخسر معركته
الأساسية التي حضر من أجلها:

- أعتذر إن كان في كلامي تطاول، وأعتذر إن تعاملت في مجلسكم خارج حدود اللياقة، ولكنني أردت أن أتعامل بتلك الطريقة التي أصلتموها بأنفسكم في التعامل بمجلس شورى القبائل، حيث الحيادية الشديدة، والمناقشة بموضوعية (بعيداً) عن أمور القرابة وصلاة الرحم والمُجاملات...!

- تلك ليست مُجاملات، هناك فرقٌ كبير بين الحيادية والموضوعية، والتطاول عند الحوار والنقاش، ففي بلاد عين الآبار أصول يجب علينا أن نحترمها في كل مكان وفي كل الأحوال...!

- أعتذر للمرة الثانية إن فهم من كلامي تطاول، ولكنَّ الشيخ عامر تطاول على مقام النبي ﷺ ونسب له قولاً وفسرهُ حسب فهمه ليخدم قضيته، ويبرر موقفه المُعادي بشدة لتلك المسألة، وأنتم جميعاً تعلمون أنه ادعاء -لا أعرف حقيقةً بمَ أصفه؟ فإن قلتُ إنه ادعاء باطل أغضبتكم الكلمة، وإن قلتُ بُهتاناً وزوراً اعتبرتم كلامي خروجاً عن الأدب والاحترام وحدود اللياقة.. فماذا أقول وأنا أرى كلمات تُنسب لجدي ورسولي محمد ﷺ كذباً وجميعكم يعلم ذلك...!؟

فرد الشريف علي قائلًا:

- من قال ذلك...؟! ومن قال بأنه ليس حديثًا صحيحًا...؟!
فعلى قدر علمي أنّ الشيخ عامر لم يخطئ في كلامه، وما
نسبه إلى نبينا ﷺ صحيح...!

فقال بكري في هدوءٍ شديد:

- أنا لن أتحدث عن ذلك.. وسأكتفي بحكم الشيخ مازن
المالكي، وله أمر الفصل في هذا، فيوضح إن كان ما قاله
الشيخ عامر صحيحًا أم جانبه الصواب.

- الحقيقة أنّ ما قاله الشيخ عامر الفهري لم يثبت عن النبي
ﷺ كما أنّ المعنى الحقيقي المقصود من هذه المقولة أو ما
يتساوى معها من أخبار، هو ألا تعلموا العلم إلا لمن
يستحقه، فالحكمة لا توضع في غير أهلها، وذلك كقوله
سبحانه وتعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ قِيَامًا}، ومن ثمّ يكون حفظ العلم ممن يفسده ويضره
أولى من حفظ المال، فالبعض يتعلم العلم ليحاج به في
الباطل، وهؤلاء هم من وصّى رسول الله ﷺ بعدم تعليمهم
العلم خوفًا من مفسادهم وتلبيسهم على العامة.. فقد ورد
عنه ﷺ أنه قال: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء،

ولتماروا به السُّفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم،
فمن فعل ذلك فهو في النار».. ولا شك أنّ السفلة هم الذين
يتعلمون العلم من أجل ذلك..

شعر الشيخ عامر الفهري بالخجل بعدما أنهى الشيخ مازن
المالكي كلامه، ولم ينطق بكلمة، فعلق بكري قائلاً:

- العلم يا ساداتي وشيوخي كالسيف إن أعطيته لتقي ورع
صادق مع الله قاتل به في سبيل الله، وإن ألقيته لشقي سفيه
قطع به الطريق وأضل عباد الله.. كما جاء عن سيدنا
عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال: "للحكمة أهل، فإن
وضعتها في غير أهلها ضيعت، وإن منعتها من أهلها
ضيعت".. فهذا هو المنهج القويم والمفهوم الحقيقي لديننا
الحنيف، وخلاف ذلك تدليس وكذب وافتراء، ونحن لا
نطلب إلا أن يتعلم فتيان بلاد عين الآبار القراءة والكتابة
وبعض مسائل الحساب، لنستفيد منهم في المقام الأول،
وَألا نمنعهم حقاً من حقوقهم...!

فقال بعض أعضاء مجلس شورى القبائل في وقتٍ واحد
وفي دهشةٍ بعد قوله:

- حقوقهم...!؟

- نعم حقوقهم.. حقوقهم في الحياة...! حقوقهم في الإنسانية..
 أليس من حقوق العبيد -كما تصفونهم- في حين أنّ نبينا
 محمد ﷺ منع حتى هذا اللفظ من أن ينادى به العبيد، فقال
 ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله وكل
 نساءكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي وفتاتي
 وفتاتي».. أليس من حقوق الإنسانية حقهم في التعلم
 وتلقي العلم..؟ ولو عُدنا لأحكام شريعتنا في معاملة الفتيان
 لوجدنا الكثير والكثير من حُسن معاملتهم والبر إليهم، فهذا
 قول النبي ﷺ عنهم: «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم،
 فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا
 تكفؤهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». صدق
 رسول الله ﷺ..

فقال الشيخ أبو زهرة المالكي:

- أنت بهذا تثير الفتنة في بلاد عين الأبار...!
 - أثير الفتنة...؟! إنّ كل ما أطلبه مطالب مشروعة، أرجو
 أن تحقق مصلحة بلادنا ومصلحة من يعيشون فيها (سادة
 أو - كما تقولون - عبيدًا).. فهل هذا يستدعي أن تنهمونني
 بأنني مثير للفتن...!؟

فقال الشيخ مازن المالكي مُنحازًا إلى بكري مُدافعًا عنه:

- هذا اتهام أرفض بشدة أن يُتهم به شخصٌ كبكري بن علي، وهو من خيرة شباب وفرسان وعُلماء بلاد عين الآبار، وإن كان ما يثيره يُغضب البعض منكم لأنه يتعارض مع أفكاركم ومصالحكم، فهذا لا يدعو أبدًا أن يوصف بأي صفات لا يمكن أن يوصف بها من كان مثله..

فقال الشريف علي مُتخذًا موقفًا حياديًا تمامًا:

- وصف بكري بأنه يريد إثارة الفتنة في بلاد عين الآبار وصف ليس في محله أبدًا.. هو فقط طرح مسألة ووضح فيها وجهة نظره، وإما أن نأخذ بها وإما أن نردها عليه.. ولكن دون تجريح أو تلميح بألفاظ لا تليق لشخصه.. وهو معروفٌ لديكم ومعروفٌ لدينا أيضًا.. ولا يمكن أن يوصف شخصٌ مثله بمثل تلك الصفات.. ولهذا يقدم له مجلس شورى القبائل الاعتذار عن هذا التجاوز في حقه...!

فقال الشيخ أحمد بن جابر بن شداد -شيخ قبيلة شداد- بعاطفة جياشة تجاه بكري، مُحاولًا أن ينصره، فكان قوله بمثابة انتصار كبير لبكري في معركته:

- أنا ومهما اختلفت مع طرح بكري بن علي لكنني لا أشكك
أبدًا في نيته، ورفضني لطلبه في البداية كان لقدر علمي
وفهمي الشرعي لتلك المسألة، وهذا اعتراف مني بذلك
وأنا لا أخجل من ذلك... ومادام الأمر كذلك، فأنا لا
أعترض على تعلم فتیان قبيلة شداد في كُتَاب قبيلة شداد،
وسأسعى لذلك من اليوم.

كما قال الشيخ مازن المالكي وقد انحاز لبكري تمامًا في
رأيه وطرحه بخصوص تعليم أطفال العبيد:

- أما نحن فمن الغد سنحدد في قبيلة مالك يومًا معينًا للفتيان،
ولنترك هذا الأمر لاختيار السادات، من يريد أن يلحق
فتيانه بالكتاتيب فلا حرج من ذلك، ومن يرفض لا نُجبره
عليه، ولكن لا يُمنع الفتیان من دخول الكتاتيب فيُحرمون
من العلم..

تهلل وجه بكري فرحًا بهذا التطور السريع، وهذا الانتصار
الذي حققه، حتى تفاجأ بالشريف علي يقول:

- طالما أنَّ الأمر كذلك، فلا مانع لدينا في قبيلة زهير من
ذلك، دون إجبار السادات على شيء...!

سُرَّ بكري من هذا النصر بالغ السرور، حتى تفاجأ بالشيخ
عامر الفهري يقول:

- طالما أنَّ هذا هو قراركم فلا مانع لدينا في قبيلة فهر
أيضاً، فنحن مع الحق طالما ظهر لنا، ولا نكابِر أبداً أو
ننحاز إلى الباطل والعياذ بالله..

ومنذ ذلك اليوم سُمح لأطفال العبيد بالتعلم بالكتاتيب في بلاد
عين الآبار، وحقق بكري نصراً كبيراً لهم، وسُرعان ما
ظهرت الفائدة (العظيمة) من تعلم العبيد في بلاد عين
الآبار، فلقد نبغ بعض أطفال العبيد بشكلٍ غير متوقع، وأجاد
الكثير منهم القراءة والكتابة ومسائل الحساب الصعبة، وبدأ
السادات في بلاد عين الآبار يجنون ثمار ذلك، ويستفيدون
منهم، خاصةً في أمور التجارة، حتى إن الشيخ أبو زهرة
المالكي نفسه -الذي اتهم بكرياً بإثارة الفتنة لطلبه تعليم
العبيد بالكتاتيب- قرر أن يُرسل كل أطفال عبيده لكتّاب قبيلة
مالك، بعدما رأى ما حققه بعض العبيد في بلاد عين الآبار
من إنجازات، حيث بات بعض السادات يعتمدون على
عبيدهم تماماً في أمور التجارة..

ظل الأمر كذلك دون إجبار السادات على تعليم أطفال عبيدهم، فكان أكثر من اهتموا بتعليم العبيد هم التجار الكبار في بلاد عين الآبار، أما المزارعون ومن يشتغلون بالرعي وتربية الحيوانات فلم يهتموا بذلك، ولهذا كان بكري يرى أنّ الأمر لم يكتمل (بعد) بالشكل المقبول والمرجو منه...! فتعليم العبيد بات لتحقيق مصالح السادات وليس اعترافاً منهم بحق العبيد في العلم والتعلم، ولهذا أثار بكري في اجتماعات تجديد حلف قبائل بلاد عين الآبار هذا الأمر من جديد... حيث طالب بإضافة بند يعطي للعبيد الحق الكامل في التعلم مثلهم مثل أطفال السادات، بل وإجبار ساداتهم على ذلك...! وهذا ما أثار رفضاً شديداً من جانب المحافظين، وتحفّظ أيضاً من جانب الشيخ مازن المالكي وجماعة المُحايدين..

واستمر الأمر كذلك بين سجالات ومناقشات متكررة، حتى استطاع الشريف بكري أن يُقنع الشيخ مازن المالكي برأيه، كون تعلم أطفال العبيد أمر إنساني بحت ليس لتحقيق مصلحة السادات فقط، وذلك حين تساءل أمام الحضور قائلاً:

- لماذا يُحرم الفتيان من حقهم الإنساني في التعلُّم؟ نحن طالبنا بتعليمهم لمصلحة البلاد بكل مَنْ فيها، وليس لمصلحة طرف دون الآخر، فحققنا من تعليمهم مصلحة الأسياد، وبات لنا ذلك ظاهرًا، وأغفلنا رغبة الفتيان أنفسهم ومصالحتهم (الخاصَّة) في تلقيهم العلم وطمس جهالتهم التي تعوقهم في حياتهم، فلماذا نتعامل مع فتياننا بتلك الطريقة الفظة...؟! وهم مَنْ أثبتوا ولاءهم الشديد لنا، كما أنَّ ديننا يأمرنا بخلاف ذلك..!

وبعد نقاشٍ طويل انحاز الشيخ مازن المالكي لرأي الشريف بكري ودعمه بشدة، وفي النهاية تم إضافة هذا البند في جلف قبائل بلاد عين الآبار، وعلى الرغم من أنه أثار بعض الجدل والنقاش في بلاد عين الآبار، إلا أنَّ المُحايدين -الذين باتوا مؤيدين- مع المُجددين استطاعوا في النهاية إقناع غالبية الناس في بلاد عين الآبار بضرورة إدراج هذا الأمر في بند خاص بحلف قبائل بلاد عين الآبار بعد تجديده، وذهبت طائفة من الناس في بلاد عين الآبار - من الذين لا يعرفون تفاصيل وحقيقة الأمر- تعتبر أنَّ إقرار هذا البند هو في حقيقته مُكافأة للعبيد لما قدموه لبلاد عين الآبار في ملحمة العبيد...!

وبعد ثلاثة أشهر فقط من الاجتماعات المتواصلة والمناقشات المستمرة والصراعات الفكرية والمناقشات الحادة والجادة المُنتهية.. تم الوصول إلى الشكل النهائي للحلف بعد تعديل بعض بنوده، وإضافة بنود جديدة، وحذف بنود أخرى لا داعي لوجودها، وإضفاء لمحة عصرية تتماشى مع ظروف القبائل والظروف المحيطة في تلك الفترة على بعض البنود، وتم تسليمه لمجلس شورى القبائل في احتفالية كبيرة، وفي سعادة غمرت كل أفراد قبائل بلاد عين الآبار..

لقد تم تنفيذ توصيات الشريف بكري كاملة، وانتهى أمر ملحمة العبيد وما ترتب عليها من آثار لهذا الحد. وأثرت بنود الحلف (المُتجدد) كثيرًا في حياة قبائل بلاد عين الآبار الاقتصادية والاجتماعية بشكل ملحوظ للغاية، وكبرت تجارتهم وعظمت عن ذي قبل، وحققوا مكاسب طائلة من التجارة، وتحسنت أوضاعهم المعيشية حتى بات هذا الوقت وكأنه العصر الذهبي لبلاد عين الآبار.. ونال الشريف بكري مكانة عالية جدًا بين قبائل بلاد عين الآبار، كما نال إعجاب شيوخ وفرسان ونساء وأطفال قبائل بلاد عين الآبار على حدٍ سواء.

أصبح بكري في أوقات كثيرة هو محور الحديث بين الفرسان والشباب بل والشيوخ والنساء أحياناً، وذلك لما رأوا من فطنته وذكائه وفروسيته وطريقته في حل الأمور المستعصية في بلاد عين الأبار بفكر مستنير ومتفتح... وفي جلسة خاصة جمعت خالد الفهري -فارس قبيلة فهر- مع بعض فرسان قبائل بلاد عين الأبار في وقت راحتهم بساحة تدريب الفرسان التي يباشرها عاقر بن شداد بعد اعتزال والده عن الناس قال:

- لم أكن أتوقع أبداً أن مجرد التعديل في بعض بنود الحلف سيغير حياتنا بهذا الشكل، فعندما كان يتحدث معي الشريف بكري في هذا الأمر من قبل لم أكن أعيره أي اهتمام، فأنا لم أهتم يوماً ببنود الحلف، ولم يأخذ مني أي وقت في الحقيقة، على خلاف الشريف بكري، الذي كان في كل يوم يقرأ فيه ويتحدث عنه وعن بنوده حتى سئمت حديثه، ويقترح بنوداً ويعدل أخرى ويغير في بعضها، وكنت أتعجب من اهتمامه واصفاً عمله بأنه عمل لا طائل منه ولا فائدة، بل كنت أعتبر أنه يشغل به وقت فراغه..

فقال عاقر بن الذئب بن شداد:

- الشريف بكري دائماً مُختلف، له عقلٌ ناضج وفكر ورأي،
يفكر خارج تفكيرنا، ولا يعتمد فقط على ما هو معمول
به، بل يحاول في كل وقت أن يوجد البدائل.. ألا تتذكر
ملحمة العبيد يا رجل...!؟!

- أتذكرها بالطبع، ولكن أنا أتحدث عن طريقة تفكيره، كيف
ينظر للأمور وكيف يُقيّمها...!؟!

فعلق الشريف بكير بن علي قائلاً:

- هو أخي الأكبر ولكنني أتعجب من طريقة تفكيره، يبدو أن
تعليمه وتفقهه هما السبب في ذلك.

فشارك مالك بن الشيخ ربيع المالكي (شيخ المُجددين) في
النقاش، وكان قد لام بشدة الفرسان على تقصيرهم وعدم
وقوفهم بجانب بكري في حربه ضد أولاد يعقوب عند
عودته من بلاد الشام، وأقسم أنه لو كان في بلاد عين الأبار
(وقت الحرب) لكان خرج معه حتى ولو خالف رأي كل
شيوخ قبيلة مالك، وقال مُنحازًا إلى بكري بشدة صابغًا
حديثه بدعابة مقبولة كعادته حيث قال:

- لا... ليس تعليمه أو فقهه، هناك الكثير ممن بلغوا نفس علمه بل وقد يزيدون عنه، إلا أنّ هذا الأمر جينات تنتقل فقط بين أبناء قبيلة زهير...!

- أنا من قبيلة زهير يا مالك، وأنا ليس كذلك...!

فقال مالك مُداعبًا:

- ليس شرطاً أن تكون هذه الجينات في كل قبيلة زهير يا شريف بكير، أنت مثلنا تمامًا، ولكنّ الشريف بكري يستحق أن يكون زعيمًا وقائدًا لبلاد عين الآبار بعد عمي الشريف علي...!

- هذا أيضًا رأي أبي فيه حتى من قبل ملحمة العبيد، فأبي كان يرى أنّ الشريف بكري فارس ذو طراز خاص يا رجل...!

فقال الشريف بكير:

- يبدو أنّ فارس بلاد عين الآبار (العتيق) مقتنعٌ بالشريف بكري إلى أبعد الحدود، فقناعة الذئب بن شداد بالشريف بكري بن زهير، أمرٌ يُحسد عليه يا رجل...!

فعلق خالد الفهري بعدما انتهى الفرسان من الضحك -فلقد حاول بكير أن يُقلد طريقة عاقر في كلامه التي اعتاد أن يُدهي فيها كلامه دائماً بكلمة (يا رجل) قائلاً:

- الشريف بكري بلا أي مُحاباة يستحق ذلك، هو فارس بلاد عين الآبار (الآن) في الحقيقة، فالفروسية ليست بالقوة، وإجادة استخدام السيف والحربة والبنديقية فحسب، بل في اتخاذ القرارات الجريئة، وجميعنا (بلا مُبالغة) فكّرنا، بل وأعدنا التفكير كثيرًا في قتال أولاد يعقوب، وترددنا وتشاورنا، ولكن الشريف بكري كان قراره منذ البداية قاطعًا ورفض غيره رفضًا نهائيًا، ولم يقبل فيه حتى مجرد النقاش، واستطعنا بفضل تدبيره وتخطيطه أن نحقق نصرًا كبيرًا، بعدما أوجد لنا البدائل، وتلك حِكمة وذكاء لا تتوفر بغيره في كل بلاد عين الآبار...!

فقال مالك مُشيرًا إلى أمرٍ آخر:

- أي فارس أو قائد غير الشريف بكري من الممكن أن يتكاسل معه العبيد، ولكنَّ العبيد اعتبروا تلك المعركة، هي معركة الشريف بكري وحده، وهو من هو معهم، هو من حقق لهم مكاسب ومنحهم حقوقيًا لم يكونوا يومًا

بالغيها، وما زال يحقق لهم كل ما يطلبونه، فإن كنا الآن
نعتبر أن بلاد عين الآبار تعيش عصرها الذهبي، فالعبيد
أيضاً يعيشون عصرهم الذهبي، وهم يعرفون ذلك، وفي
الحقيقة الفضل كله يرجع للشريف بكري وحده..

فقال الشريف بكري مُداعباً مالك:

- لا تقل (العبيد) فلو سمعك الشريف بكري لغضب منك
غضباً شديداً، ولشكاك لمجلس شورى القبائل على الفور،
ولن يهتم أبداً بصحبتك أو يراعي حبه وتقديره لوالدك
شيخ المُجددين...!

ضحك الفرسان وعاد عاقر يقول:

- الشريف بكري إنسان قلّ أن يوجد مثله في هذا الزمن،
أنتم لا ترونه بين فرسان العبيد، أنا أعجب من طريفته يا
رجل...!

- ألهذا الحد يا عاقر...!؟

- بالطبع يا رجل.. بل أنا أرى أنّ الشريف بكري (فقط دون
غيره) من يصلح ليقود بلاد عين الآبار بعد عمنا الشريف
علي...!

فقال خالد الفهري مؤيدًا كلام عاقر، وناهياً الحديث:

- أنا أقولها لكم واسمعوها مني، قيادة بلاد عين الآبار لن تخرج من قبيلة زهير يوماً، هذا حالهم منذ أمد بعيد، فنحن نعرف أنّ بلاد عين الآبار منذ تأسيسها وأولاد الشريف زهير الكبير هم من يقودون الدفة حتى وإن لم يعلن ذلك صراحة.

فقال عاقر مُداعبًا الشريف بكير كعادتهما معًا:

- هذا ليس معناه أن يكون الشريف بكير أو أحد من أبنائه قائداً لبلاد عين الآبار يوماً، فهم في وادٍ والشريف بكري في وادٍ آخر يا رجل...!

ضحك الفرسان وعادوا لتدريبهم من جديد.

بعد تلك الأحداث بات الشريف بكري بن علي هو حلم كل فتاة في قبائل بلاد عين الآبار، وفكرَ جدياً وأخيراً في الزواج، ففرحت أمه بهذا القرار السعيد وعرضت عليه الكثير من فتيات قبيلة مالك وزهير، إلا أنه كان قد اختار بالفعل، فلقد وقع اختياره على كلثم بنت الشيخ مازن المالكي، شيخ قبيلة مالك، كان قد رآها لأكثر من مرة عندما

كان يزور الشيخ مازن في بيته، وأعجب بها ، وتعلق بها قلبه، كما أعجبت به وباتت تترقب كل أخباره، تتحدث عنه في كل وقت.. فلقد خطف قلبها بملامحه الجذابة، وبتواضعه الشديد، وفكره الراقي وشجاعته ودمائه أخلاقه، حتى أخبرت بعض صديقاتها المقربين بحبها الشديد له.. وكانت كلثم فتاة فاتنة الجمال هادئة الطباع متواضعة، ففرحت أمه باختياره فرحاً شديداً، كما استشار فيها صديقه المُقرب وكاتم أسراره خالدًا الفهري، فشجَّعه على ذلك أبلغ التشجيع، وهذا ما جعله يتحدث مع والده في أمرها، وساعدته أمه في ذلك، إلا أنَّ والده رفض زواجه من قبيلة مالك تمامًا، وأقسم بأنه لن يتزوج من قبائل بلاد عين الآبار إلا فتاة من قبيلة فهر أو قبيلة زهير وإلا فلا...!

دار نقاش حاد بين السيدة صمود وزوجها أمام الشريف بكري، حتى خرج عن المألوف وتحول إلى شبه شجارٍ بينهما، والغريب في الأمر أنَّ الشريف علي أقسم لهما بأغلظ الأيمان أنه لن يُزوج ابنه من قبيلة مالك أو شداد طالما على قيد الحياة، وإن خالفه في ذلك سيُتبرأ منه أمام كل أهالي بلاد عين الآبار.. وطلب منه التقدم لخطبة أي فتاة

من قبيلة فهر أو قبيلة زهير، وذلك لرغبة الشريف علي الشديدة في زيادة تقوية العلاقات بين القبيلتين، فلقد بدأ الشريف علي يتقرب في تعاملاته بشكل كبير لقبيلة فهر منذ واقعة ملحمة العبيد، كما تقرب شيوخ قبيلة فهر إلى شيوخ قبيلة زهير بشكل واضح في الآونة الأخيرة، وقامت بينهما شراكات متعددة في التجارة بين أكبر تجار القبيلتين... تلاحظ هذا التقارب الشديد بين شيوخ وتجار قبائل بلاد عين الأبار.. ولهذا أصرَّ الشريف علي بقوة على زواج فارس قبائل بلاد عين الأبار (الأول) من قبيلة فهر أو على أقل تقدير من قبيلة زهير..

غضب الشريف بكري غضبًا شديدًا من موقف أبيه، فهو لم يعتد أن يفرض عليه أمرًا من قبل، ومع ذلك بات في حيرة من أمره.. فكيف له أن يضحى بحبه الذي ملك فؤاده طاعة لأبيه...؟!

حزن الشريف بكري حزنًا شديدًا، وظل هائمًا لأيامٍ شاردًا حزينا، يمتطي جواده ويهيم وحيدًا في الصحراء لساعات مفضلًا العزلة بعيدًا عن الناس، وكانت كلثم تنتظر زيارته لوالدها كعادته كل يوم، ولكنه انقطع عن زيارتهم منذ أيام، ويبدو أنَّ في الأمر شيئًا..

كان الشريف بكري يعرف أن كلثم تُراقبه، كما كان يعرف أنها انشغلت به، فكثيراً ما دار بينهما كلام عابر، إلا أنه فهم من نظراتها أنّ له في قلبها شيئاً، ولا شك أنها فهمت من نظراته نفس المعنى.. لذا كان يعتبر أنّ بينهما أمراً وعلاقة جميلة تجمعهما معاً، لذا كان عليه أن يقطع هذا الخيط وهذا الوصال الذي نشأ بينهما، وينهي تلك العلاقة التي لم تظهر للعلن بعد، فلقد كُتِبَ على تلك العلاقة أن تموت قبل أن تبدأ وتظهر للنور.. ولكنه لا يقدر على تلك الخطوة، فلقد شغلته ومألت فؤاده.. فبات حزيناً طيلة الوقت، وكاد أن يُقدم على مخالفة أبيه، ولكن كيف له ذلك...؟! فهمها حدث لا يقدر على مخالفة أبيه، فهو الشريف علي بن زهير، كبير قبائل بلاد عين الآبار قاطبة، صاحب القدر والشأن الرفيع، ولقد أقسم أنه لن يحيد عن رأيه.. وفكر الشريف بكري ملياً... وتأكد له أنه إن خرج على رأي أبيه، فقد لا يقبل الشيخ مازن المالكي زواجه من ابنته إن تأكد له رفض الشريف علي لتلك الزيجة.. بل قد يسبب هذا الأمر الفُرقة بين القبيلتين... ولهذا السبب عاد الشريف بكري عن رأيه، وحاول أن يقنع أباه بتلك الزيجة مرة أخرى، إلا أنّ الشريف

علي ما زال متمسكًا برأيه مُصِرًّا عليه... كما حاولت أمه بكل الطرق أن تقنع زوجها بأن يرجع عن رأيه، ولكنها فشلت مرارًا وتكرارًا...

بعد أيام من تلك الأحداث العصبية في بلاد عين الأبار، قرر الشريف علي زيارة أبناء عمومتهم فرع قبيلة زهير بصعيد مصر في مديرية قنا، وذلك بصحبة وفد من قبيلة زهير، سيذهبون جميعًا للاطمئنان عليهم ومعرفة أحوالهم كالعادة، حاملين معهم الهدايا من الخيول العربية الأصيلة، وتمر بلاد عين الأبار المميز، حيث كثيرًا ما تبادل رجال فرعي القبيلة الزيارات للحفاظ على أواصر الأخوة والمودة بينهم، فطلب الشريف بكري من والده أن يذهب معهم في تلك الزيارة، ليستريح من عناء الأيام الصعبة التي مر بها في الفترة السابقة، ويرى وجوهًا جديدة، ويستنشق هواءً غير هواء نجد، ويشاهد مناظر مُختلفة، كما قد تساعده تلك الرحلة على أن ينسى حبيبته كلثم، بعدما بات أمر الزواج منها أمرًا مُستحيلًا، فوافق أبوه على الفور وذهب معهم إلى صعيد مصر، وترك أمر تدبير القبيلة للشريف جعفر بن أكبر بن زهير لحين عودته من صعيد مصر.

ذهب الشريف بكري في رحلة طويلة مع وفد قبيلة زهير يرأسه أبوه كالعادة، فعبروا البحر الأحمر، حتى نزلوا بالقصير، واستمروا في رحلتهم حتى وصلوا مديرية قنا ثم قرية قاسم - تلك القرية التي أسسها عمهم الشريف أبو القاسم بن زهير الكبير- فتعرّف على الشريف يوسف -ابن شيخ قبيلة زهير بصعيد مصر الشريف خالد بن زهير- وتقرب منه.

كان الشريف يوسف بن خالد بن زهير في الخامسة والثلاثين من عمره، فهو يكبر الشريف بكري بخمس سنوات، متزوج ولكنه لم يُرزق بالذرية بعد، فلازمه طفلة إقامته بصعيد مصر، كانا يخرجان معاً على الدوام يمتطيان الخيل ويجوبان البلاد، فشاهد المزارع الواسعة، والأراضي الممتدة، وشرب من مياه النيل العظيم، واستنشق هواء مصر، فتغير مزاجه إلى حدٍ كبير.. وفي جلسة خاصة جداً في بيت الشريف خالد مع صديقه (الجديد) الشريف يوسف، رأى الشريف بكري لأول مرة زينب، فاتنة قبيلة زهير في صعيد مصر، هي بنت شيخ قبيلة زهير، وأخت الشريف يوسف الوحيدة، كانت جميلة جميلات فتيات قبيلة زهير بصعيد مصر، في الرابعة والعشرين من عمرها، أنجبها

الشريف خالد بعد توقف زوجته مدة طويلة عن الإنجاب، فكانت الفتاة المدللة لوالدها التي لا يرفض لها طلبًا، وظلت ترفض الزواج من كل رجال قبيلة زهير الذين تقدموا لطلب الزواج منها، لأنها لم تُعجَب بأحدٍ منهم أو حتى تتجذب لأحدهم، كما أنّ والدها لم يكن يقدر علي أن يجبرها على شيء، حتى تخطت سن الزواج - كما هو عادة أهل الصعيد حيث زواج الفتيات في سن مبكرة- وهذا ما عكّر صفو حياتها مع أخيها الشريف يوسف.. وما إن رآها الشريف بكري، حتى اقتحم حبُّها فؤادَه من النظرة الأولى، واستطاعت أن تتغلب بحبها على كلثم بنت الشيخ مازن المالكي، فطردتها من قلبه شر طردة، ولرغبة الشريف بكري (الشديدة) في حب جديد فتح لها قلبه، فدخلته ولم تترك مكانًا لغيرها.. وسرعان ما تعلق بها عقله وفؤاده تعلقًا شديدًا فأحبها، كما أعجبت به وأحبه بسبب ما سمعت عنه من كرم وعدل وإنصاف وشجاعة وتواضع وإقدام وعلم وفكر ورأي سديد ومكانة وعزة في بلاد عين الأبار، حيث تعمدت أن تسأل عنه وعرفت عنه الكثير من الصفات الحميدة التي يتحلى بها، والتي قلما وُجدت في شخصٍ واحد.

غادر الشريف بكري ووفد قبيلة زهير صعيد مصر بعد زيارة دامت لخمسـة عشر يوماً، عاد إلى بلاد عين الآبار والحزن والألم ملاً قلبه وسيطرَ على كل جوارحه، وصورة زينب لا تكاد تفارقه للحظة واحدة، يراها في مياه البحر الأحمر شديدة الزرقـة، كما يراها في أشـرعة الصنادل، يشم رائحتها في الهدايا التي حملوها معهم وهم عائدون إلى ديارهم حيث صوامع غلال القمح والذرة والفلـول... فمنذ أن رآها لم تغب عن باله بحسـنها الفئـان طرفـة عين، كما أنها باتت تزوره في كل حين، فلم يطق الشريف بكري هذا البعد والحرمان، وكاد أن يحترق فؤاده شوقاً، وبات لا يستطيع التفكير في أي شيء من أمور القبيلة، ولا يهتم بشيء على خلاف عاداته، حتى ظهر عليه أن أمراً هاماً يشغله، فشعرت أمه الحبيبة به، وعرفت أنه مشغول بأمر جليل، وظنت أنه ما زال حزيناً على كلثم، خاصة أن كلثم تقدم لخطبتها أحد أبناء عمومتها من قبيلة مالك، ووافقت على الزواج منه، كما وافق أبوها الشيخ مازن المالكي على زواجهما، فلقد تحدثت السيدة صمود المالكي مع كلثم -على انفراد- بناءً على رغبة بكري وإلحاحه الشديد عليها، فلمحت لها (من بعيد) عن فكرة زواج ابنها من قبائل بلاد عين الآبار،

وأخبرتها بما كان من الشريف علي زوجها وتمسكه الشديد من زواج بكري بفتاة من قبيلة زهير أو فهر، ولم توضح لها أكثر من ذلك، فأيقنت كلثم أنّ زواجها من الشريف بكري بات أمرًا مُستحيلًا، وظلت حزينة باكية على حالها وعلى حبها الذي دُسَّ في الرمال، وما إن تقدم لها أحد أبناء عمومتها من قبيلة مالك لخطبتها وافقت دون تردد... وعندما عاد الشريف بكري من صعيد مصر وجد حفل خطبتها مقامًا في ديار قبيلة مالك، فتوجه مع أبيه وقدّم واجب التهئة كالمعتاد، ولكنه ظل هائمًا يُفكر في حبّه الجديد، فحاولت أمه التحدث معه، ولما سألته عن حاله لم يستطع أن يكشف لها عن أمره، ولكنه كشف حبه لصديقه خالد الفهري، فشجعه على أن يُفّتح والده في الزواج منها، ولكنّ الشريف بكري يخشى بشدة رفضه للمرة الثانية.. فلا يدري ما الذي قد يحدث بينهما إن رفض أبوه طلب زواجه هذه المرة.. ولكن صديقه خالدًا الفهري شجعه على تلك الخطوة ودفعه لها دفعًا ونصحها بألا يتردد، وبعد مرور شهرٍ واحد من عودتهم من تلك الزيارة تشجع الشريف بكري وطلب من أبيه أن يزوجه من زينب بنت الشريف خالد زهير... وعلى الفور وعلى خلاف ما كان يتوقعه الشريف بكري،

بارك له أبوه هذا الزواج الكريم الطيب، ورَحَّبَ به كثيرًا، ففرح الشريف بكري فرحًا شديدًا بموافقة أبيه على زواجه من زينب... وهرول مُسرِعًا ليخبر صديقه خالدًا الفهري بهذا الخبر السعيد، ففرح خالد لفرح صديقه، وطلب الشريف بكري من أبيه زيارة أبناء عمومتهم بصعيد مصر لطلب يد زينب للزواج، وبعد يومين (فقط) تجهز الشريف علي وذهب مع ابنه الشريف بكري ووفد من قبيلة زهير إلى صعيد مصر، وطلب من الشريف خالد ابنته زينب للزواج من الشريف بكري، فرحب بهذا الزواج المُبارك، الذي سيقوي علاقات الود والمحبة بين فرعي القبيلة، كما فرح الشريف يوسف بشدة لزواجهما، ومع بداية عام ١٧٧٦م أقيم حفل زفاف كبير بصعيد مصر للعروسين، وحمل الشريف بكري زوجته زينب ومعها اثنان من نساء العبيد لخدمتها والبقاء معها بشكل دائم في بلاد نجد - كعادة عائلة زهير - وعاد بها إلى ديار قبيلة زهير ببلاد عين الآبار، فقابلتها أمه بترحابٍ وحبٍّ شديدٍ، وأحببتها وقربتها إليها كونها زوجة أحب أبنائها لقلبها، وعاشوا جميعًا في حبٍّ وتفاهمٍ ووثامٍ، حتى جاء عام ١٧٩٠م.

مرت على الشريف بكري في هذا العام أحداث هي الأصب عليه في حياته على الإطلاق.. فلقد مرضت أمه مرضاً شديداً، ولازمت الفراش لعدة شهور، فتأثر الشريف بكري لمرضها تأثراً بالغاً، حتى كاد أن يموت حزناً وألماً بسبب مرضها الشديد، كما حزنّت زينب لمرضها حزناً شديداً، وظلت تخدمها طيلة مدة مرضها متمنيةً لها الشفاء، فهي تعرف جيداً قدرها الكبير عند الشريف بكري، فكانت زينب ترى الحزن وقد خيم على زوجها تماماً.. فالشريف بكري كانت تربطه بأمه علاقة خاصة جداً، فهي الأم والحببية والصديقة والداعمة له في كل حياته، والموجهة الأولى له منذ الصغر، وهي من كانت سبباً رئيساً في تنشئته على تلك الحالة... كانت زينب ترى الشريف بكري يجلس بجوار أمه تحت أقدامها بالليل يبكي وهي تتألم من شدة المرض... وظل تحت أقدامها يخدمها ويهون عليها حتى ماتت بين ذراعيه بعدما لقنها الشهادة بنفسه، ورحلت عن دنياه أحن وأصدق وأطهر إنسانة أحبها في حياته...

وفي نفس الشهر أصاب بلاد عين الأبار قاطبة وباءاً خطيراً

قاتلاً، أصاب كل أطفال بلاد عين الآبار، وكان الشريف بكري وقتها قد رُزِقَ بأربعة أبناء هم (صمود ١٣ سنة، وبكر ١١ سنة، ورهف ٩ سنوات، وأصغر أبنائه علي ٧ سنين) ماتوا جميعهم واحداً تلو الآخر في هذا العام المؤلم، فكانت فاجعة عظيمة على الشريف بكري وزوجته زينب، وحزنوا حزناً شديداً على فقد أبنائهم، وكادت زينب أن تفقد عقلها من هول المصيبة... وما أحزن الشريف بكري وزاد من ألمه أكثر من ذلك، أنه فوجئ بوالده وقد قرر الزواج - بعد مرور شهر واحد من وفاة أمه- من امرأة من قبيلة فهر، اسمها خالدة شروان الفهري، في الأربعين من عمرها، مات عنها زوجها وكانت عاقراً لا تُنجب، ورغم اعتراض الشريف بكري على إتمام الزواج في هذا الوقت احتراماً لذكرى والدته، أصر الشريف علي على رأيه، وأتم الزواج في الموعد المُحدد له، فقرر الشريف بكري عقب تلك الحادثة ترك بلاد عين الآبار، وتوجه هو وزوجته إلى صعيد مصر وأقاما فيها لمدة شهرين كاملين، اعتراضاً منه على زواج والده الذي لم يحترم مشاعره، ولم يُقدّر ذكرى

أمه الغالية...

أما الدولة السعودية فلقد اتسعت كثيرًا بزمن الإمام عبد العزيز ابن سعود، وما زالت قبائل بلاد عين الآبار في استقلالها القديم طبقًا لبُنود عهد الولاء، وفي شهر شوال من عام ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٩١م مرض الشيخ محمد بن عبد الوهاب مرضًا شديدًا، وما لبث أن توفي في العيينة بالقرب من الرياض، يوم الإثنين من آخر شهر شوال، وكان له من الأبناء ستة أبناء هم (حسن، وحسين، وإبراهيم، وعبد الله، وعلي، وعبد العزيز، وفاطمة)، وأقيمت له جنازة مهيبة حضرها جمع غفير من تلاميذه وأتباعه، وحزن عليه الإمام عبد العزيز بن سعود حُزنًا شديدًا، ودُفِنَ بمقبرة الطريف في الدرعية، وألمَّ بأتباع الدعوة وتلاميذ الشيخ ابن عبد الوهاب ألم وحزن شديد لموته، وما أن تناقل خبر وفاته بين الأقطار حتي رثاه القاضي والفقير اليمنى الشهير محمد بن علي الشوكاني في قصيدته اللامية التي نظمها من واحد ومائة بيت، حيث جاء من بعض ما قال فيه:

- مُصَابٌ بِهِ قَامَتْ عَلَيَّ قِيَامَتِي
ومن كرب ما لاقيت أعظم هائلِ
- مُصَابٌ بِهِ قَدْ أَظْلَمَ الْكُونُ كُلَّهُ
وكان عليّ حالٍ من الحُزْنِ حائلِ
- بِهِ هُدُ رُكْنُ الدِّينِ وَاَنْبَتَ حَبْلُهُ
وَشُدَّ بِنَاءُ الْغِيِّ مَعَ كُلِّ بَاطِلِ
- فَقَدْ مَاتَ طَوْدُ الْعِلْمِ قُطْبُ رَحِي الْعُلَا
ومركزُ أدوارِ الفُحُولِ الأفاضلِ
- وَمَانَتْ عُلُومُ الدِّينِ طُرًّا بِمَوْتِهِ
وَعُيِبَ وَجْهُ الْحَقِّ تَحْتَ الْجَنَادِلِ
- إِمَامُ الْوَرَى عِلَامَةُ الْعَصْرِ قُدُوتِي
وَشَيْخُ الشُّيُوخِ الْحَبْرُ فَرْدُ الْقَضَائِلِ
- لَقَدْ اشْرَقَتْ نَجْدٌ بِنُورِ ضِيَائِهِ
وَقَامَ مَقَامَاتِ الْهُدَى بِالذَّلَائِلِ
- فَلَوْلَاهُ لَمْ تُحْرَزْ رَحِي الدِّينِ مَرْكَزًا
وَلَا أُسْتَدَّ لِلْإِسْلَامِ رُكْنُ الْمَعَائِلِ

- ولا كان للتَّوْحِيدِ واضِحٌ لِاجِبِ
- يَقِيمُ اعوجاجَ السَّيْرِ من كلِّ عادِلِ
- فَمَا هُوَ إِلَّا قَائِمٌ فِي زَمَانِهِ
- مَقَامِ نَبِيٍّ فِي إِمَاتَةِ بَاطِلِ
- وَلَا غَرَوُ أَنْ يَبْكِي الزَّمَانُ لِفَقْدِهِ
- فَقَدْ كَانَ غَيْثَ الْجُودِ كَهَفَتِ الْأَرَامِلِ
- فَمَنْ لِلْبُخَارِيِّ بَعْدَهُ وَلِمُسْلِمٍ؟
- يُبَيِّنُ الْمُخْبَأَ مِنْهُمَا لِلْمُحَاوِلِ
- وَمَنْ ذَا لِنَفْسِيرِ الْكِتَابِ وَمَنْ تَرِي
- لِأَحْكَامِ فِقْهِ الدِّينِ مَنْ لِلرَّسَائِلِ
- وَمَا مَاتَ كَلًّا بَلْ إِلَى جَنَّةِ الْعِلَا
- أَتَاهُ مِنَ الرَّحْمَنِ أَكْرَمُ نَاقِلِ
- وَلَمَّا لَهُ الْفِرْدَوْسُ زَادَ اسْتِيْقَافَهَا
- وَكَانَ لَهَا كُفُوءًا وَأَسْرَعُ وَاصِلِ

- إنه الغلو... إنه الغلو.. الغلو آفة الأمة الكبرى يا سادة،
 غلو من الأتباع، وغلو من الخصوم، غلو من الأتباع
 حيث وضعوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مقام
 الأنبياء، بل ويزيد!.. ففي الوقت الذي كان فيه الشيخ يذم
 بل ويحارب الغلو في الصالحين، حيث كان الغلو في
 الصالحين من المحاور الأساسية التي كان الشيخ ينتقدها،
 بات أتباعه يغالون فيه - سبحان الله- حتى اعتبروا أنَّ
 كل من حَطَّ الشَّيْخَ خصمٌ لدعوته من الأصل، وإن كانت
 الدعاوى الدينية قامت على مر العصور في الأصل على
 قواعد الإسلام، فهذا لا يعني إطلاقاً خلوها من الأخطاء،
 ولكن للأسف الشديد، بات مَنْ يُخَطِّئُ الشيخ ابن عبد
 الوهاب كأنه خصم من خصوم الدعوة السلفية، بل ازداد
 الانحراف عن ذلك حتى أصبح من خصوم الإسلام نفسه،
 وهذا غلو مبالغ فيه غير مقبول على الإطلاق..

وهنا وقف الشيخ كرم صديق وهو مُدرس المواد الشرعية بالمعهد الأزهرى الثانوى بمدينة قنا، ومن مشايخ الأزهر الشريف الأجلء، شيخ مُطّلع وعالم من أصحاب الرأى والفكر، مُحافظ على زِيّه الأزهرى فى كل وقت، فلا تراه مرتديًا غيره، فطلب الكلمة فأذن له الأستاذ أحمد مالك على الفور فقال:

- بل غلّو من الأتباع، حتى زعم أتباعه أنه كان وحيد عصره فى العلم، وأنّ بلاد الإسلام التى لم تدخل فى دعوته كانت بلاد شرك وكفر، بل إنّ علماء تلك البلاد أنفسهم جهلة لا يعرفون عن العلم شيئًا، فى حين أنه كان هناك من الشيوخ فى عصره علماء ودعاة لا يمكن دحض حقوقهم أو تكفير المسلمين فى بلادهم، أمثال الشيخ محمد بن فيروز الأحسانى كبير الحنابلة فى الأحساء،

والشيخ محمد حياة السندي أستاذ الشيخ نفسه، والشيخ
العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني، وهو في الحقيقة
أعلم من الشيخ وأكثر اعتدالا منه، وأعمق أثرا وأكثر قبولا
عند سائر المسلمين، وإن كان الشيخ ابن عبد الوهاب
أوسط أثرا، وأنشط في الدعوة، وغيرهم الكثير ممن لم
يكونوا يرون التكفير في أمور يعدها الشيخ من الشرك
الأكبر، صحيح يا أستاذ أحمد...!؟!

- صحيح بكل تأكيد، بارك الله فيكم يا شيخ كرم، وكذلك
غلو من الأتباع حتى لقبه بعضهم بأنه العالم الرباني،
والصديق الثاني، مجدد الدعوة الإسلامية، أوجد العلماء،
شيخ الوجود، وهي كلمة لو أطلقها أحد على صحابة
النبي ﷺ لأنكر عليه مُقلدو الشيخ ولربما كفروه...!.

- وفي المقابل يا أستاذ أحمد، وتلك حقيقة لا يمكن لنا أن ننكرها، غلو من الخُصوم، حتى قيل، إنه أتى بدينٍ جديد، وأن دعوته مذهب خامس خرج به على مذاهب الأئمة الأربعة، وجاء بمذهبٍ مُبتدع في الدين، وأنه لا يحترم أصحاب المذاهب الفقهيّة، أو القول بأنه ادعى النبوة، أو أنه من الخوارج، أو أنّ منشأ الدعوة قرن الشيطان، أو أنه يبغض النبي ﷺ ويستهين به، ويكره الصالحين ولا يعترف بالأولياء الصالحين وكراماتهم، أو أن دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب ما كانت إلا مؤامرة إنجليزية على الإسلام، وكل تلك الاتهامات أباطيل وبهتان وباطل ظاهر ومكشوف، كما أنها أكاذيب وادعاءات لا أصل لها..

- بالضبط... فلقد وصل بهم الحد أن قال أحدهم مُتهمًا الشيخ ابن عبد الوهاب ومُعتبرًا دعوته صنيعه بريطانيًا

بناءً على مُذكرات رجل بريطاني اسمه "همفر" زعم أنه التقى بالشيخ في البصرة، وأنه وجهه إلى نجد نكايه في الدولة العثمانية، وإلى غيرها من التفاصيل التي لا يتسع المقام لذكرها، وكل تلك الادعاءات أباطيل وأكاذيب وبهتان وليس عليها دليل يُثبت صحتها، ولا يمكن التسليم بصحتها.

هنا شارك الشيخ حسين عبد الهادي، من مشايخ الأزهر الشريف أيضاً، الرجل صاحب المقام الرفيع، ويعمل مدرساً لمادة أصول الفقه في المعهد الأزهرى بقنا، وصديق مُقرب للشيخ كرم صديق حيث قال:

- وحتى يوماً هذا يا سادة نعيش هذا الغلو، غلو في الشيخ أو غلو ضده، وليس عند المغالين من الطرفين استعداد

للحوار الهادئ البعيد عن التعصب، وعلامة المغالي ضد
الشيخ أنه لا يقبل إلا وصفه بكل سوء، وعلامة المغالي
فيه، أنه لا يقبل نقد الشيخ بل ويستعظم تخطئته، ولكن
الشيخ رحمه الله لا يمكن أن تسقط عنه بشريته، فهو
داعية مخلص لدعوته في الحقيقة، وصاحب همة تزيح
الجبال، ولكن لقلّة علم ودراية تامة، وظروف البيئة التي
نشأ فيها أخطأ أخطاءً يجب الوقوف عندها وتصحيحها،
فهو ليس نبياً معصوماً.

فعلق أحمد مالك قائلاً:

-لنكن مُنصفين، إنَّ استعمال الدعوة الوهابية للقوة، ألجأ
خصومها ومخالفها إلى استعمال القوة مثلها، ومغالاتها
الشديدة دفعتهم أيضاً إلى المغالاة في تشويهها وصرف

الناس عنها، والحقيقة المخفية عن الكثير أنه لم يؤمن بها إلا القليل في بلاد العرب، أما ما ترونه الآن فهو جهد أتباعها، وأموال طائلة تم إنفاقها خلال سنين لاتساع شأن الدعوة، وتوجيهات (غريبة) للأسف الشديد تم الانصياع لها بقوة، الغرض منها في المقام الأول مصالح خاصة، وفي المقام الثاني تشويه صورة الإسلام أمام العالم، كما أنّ الدولة العثمانية تركت تلك الدعوة في بدايتها وغفلت عنها حتى استفحلت وقويت، ثم ما لبثت أن عملت بالقوة في القضاء عليها، وكان تحركها في المقام الأول تحركًا سياسيًا خالصًا، حيث اعتبرتها آنذاك حركة عربية خرجت من بلاد العرب، وليس خوفًا على الدين من التشويه...!

مرت السنون مُتثاقلة بمنطقة نجد لما بها من أحداث وتطورات وصراعات لا تنتهي، ونحن الآن في منتصف عام ١٨٠٤م، ولقد تجاوز الشريف علي الثامنة والتسعين من عمره، ومع ذلك كان ما زال يتمتع بقدر كبير من الصحة والعافية والقوة التي تجعلك تظن من الوهلة الأولى أنه ما زال في عامه الستين، فاتزان عقله وما يتمتع به من ذكاء، جعله يرى نفسه الأفضل بين كل شيوخ ورجال القبائل الأربع بلا منازع، فكان يدعو نفسه حكيم قبائل بلاد عين الآبار (الأوحد) الذي لا يجوز مخالفته، خاصة أنه استطاع بذكاء وبعبقرية فذة الحفاظ على استقلالهم عن الدولة السعودية رغم التطورات الكبيرة التي حدثت في بلاد نجد قاطبةً خلال تلك الفترة، فخلق لنفسه مكانة خاصة جدًا، وجعل الجميع ينظرون إليه (دائمًا) كونه أكبر وأهم شيوخ قبائل بلاد عين الآبار سنًا ومقامًا وقدرًا..

أما الشريف بكري فأحواله باتت أفضل من ذي قبل بكثير، فلقد تحسنت علاقته مع والده مع مرور السنين، وقَبِل بالأمر الواقع، وبات صاحب تجارة كبيرة في بلاد عين الآبار، ومن أثرى أثرياء قبيلة زهير، كما يمتلك مزرعة نخيل

واسعة، ويعمل في تربية الخيل والنوق والأغنام ويتاجر فيها، ويمتلك عددًا كبيرًا من العبيد والإماء الذين يحبونه ويوقرونه وأهله، ويخافون على ماله مثله تمامًا، ويعملون معه برضا وقناعة شديدة، وما زال يتعامل معهم ومع غيرهم من العبيد بكل حب وتواضع، فكان عبيده يلبسون أفضل اللباس، ويأكلون مما يأكل هو وأهل بيته، يعمل معهم حيث يعملون، ويشاركهم في كل شيء، فكان حالهم أفضل حالًا من غيرهم من العبيد في بلاد عين الآبار، حتى إن عبيد بلاد عين الآبار يحسدونهم على ما هم فيه من نعيم... كما أصبح الشريف بكري عالم المدرسة الحنفية الأهم، وله حلقة علم يحضرها كل طالبي العلم في بلاد عين الآبار، فأصبح العالم والفقير الأول في كل بلاد عين الآبار، والمرجع لهم في أي مسألة تستجد لهم، كما أعطاه والده الحق في القضاء والبت في خلافات ومشاكل الأفراد في قبيلة زهير، فأصبح قاضي القبيلة الأول بتفويض من أبيه، بل بات المتخاصمون يُفضلون عرض مشاكلهم عليه دون أبيه، بسبب حكمته البالغة وإنصافه، وتواضعه الشديد مع الناس... كما أصبح يحل محل أبيه في كل أمور قبيلة زهير،

وما زالت قبيلة زهير متصدرة المشهد في بلاد عين الأبار متماسكة وقوية جداً من الداخل..

أما القبائل الثلاث الأخرى في بلاد عين الأبار (شداد ومالك وفهر)، فلقد تغير فيها نظام الحكم عن ذي قبل بشكل كبير، وذلك لاستحداث أمر جديد لم يكن للشريف بكرى أو الشريف علي بن زهير الحق في التدخل لتعديله أو تغييره، هذا الأمر خاص بتولي شؤون القبيلة من الداخل، أي تعيين شيخ القبيلة أو اختياره إن صح القول..

بدأ هذا الأمر منذ أن تولى الشيخ محمود بن جابر بن شداد - في السبعين من عمره- شؤون قبيلة شداد بعد موت أخيه الشيخ أحمد بن جابر بن شداد في عام ١٧٩٥م، ولم يكن الشيخ محمود بن شداد ذا حكمة ورأي كأخيه... فلقد نصَّبه أخوه الشيخ أحمد بن جابر كشيخ للقبيلة قبل موته بعام واحد، لمرضٍ شديد منعه عن مباشرة شؤون القبيلة، فآلت له شؤون قبيلة شداد ولم يكن كُفئاً لهذا الأمر (في الحقيقة) فهو غير مؤهل له، رجل ضعيف الشخصية مُتردداً في أحكامه، ولا يتمتع بالحكمة اللازمة في تدبير أمور القبيلة، وكان للشريف بكرى رأي - لم يبديه- في تنصيبه شيخاً

لقبيلة شداد حيث رفضه بشدة، ولقد تحدث مع أبيه في ذلك، وطلب منه أن يتدخل في هذا القرار الخاطيء.. ولكنَّ الشريف علي لم يكن من اختصاصاته في بلاد عين الآبار التدخل في اختيار شيوخ القبائل الثلاث، فأفراد القبيلة (هم فقط) من لهم الحق الكامل في اختيار من يحكمهم، وليس لشيخ بلاد عين الآبار الحق في ذلك.. وعلى الرغم من أن بكري كان يعرف كل بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار جيدًا، وتناقش فيها جميعًا، إلا أنه لم يهتم بهذا الأمر من قبل، ولم يُعِره أي اهتمام عند تجديد بنود حلف قبائل بلاد عين الآبار... فتناقش مع أبيه في ضرورة تعديله والنظر فيه من جديد، خاصَّة أنَّ هذا الأمر تكرر في قبيلة مالك وفهر على حدِّ سواء...!

فلقد نَصَّبَ الشيخ مازن المالكي أخاه الشيخ عبد العزيز المالكي - في الثالثة والسبعين من عمره- شيخًا لقبيلة مالك وقت مرضه، وكان تاجرًا كبيرًا في بلاد عين الآبار، وله حسابات في تسيير الأمور تختلف كثيرًا عن الحسابات التي يعتمدها شيخ القبيلة في تسيير شؤونها.. فهو رجل يعشق المال، ويُقدم مصلحته الخاصَّة على مصلحة القبيلة إن

تعارضاً معاً، ولم يكن ذا علم ورأي كالشيخ مازن المالكي، فقرب له التجار وأثرياء قبيلة مالك يستشيرهم في شؤون القبيلة، ومنع عنه الفقهاء والعلماء وأصحاب الرأي السديد - الذى كان يستشيرهم الشيخ مازن المالكي في حكم قبيلة مالك من قبل- وهذا ما أثر بشدة على سياسة الشيخ عبد العزيز المالكي منذ أن تولى شؤون قبيلة مالك بعد موت الشيخ مازن المالكي في أول عام ١٧٩٦م.

أما قبيلة فهر فلقد نَصَّبَ الشيخ عامر الفهري ابنه الشيخ عمر بن عامر الفهري -في الثالثة والستين من عمره- وكان عالماً من علماء قبيلة فهر الأجلاء، يهوى الأدب والشعر، فهو شاعر له باع في بلاد عين الأبار، ومع ذلك كانت تنقصه الحكمة التي كان يتحلي بها الشيخ عامر الفهري، فلقد وزع اختصاصات شيخ القبيلة على مجموعة من أتباعه الأقل منه علماً وحكمة، يرجعون له إن فشلوا في حل مشكلة معينة في قبيلة فهر، وتغيرت بطانة الشيخ عامر الفهري تماماً، الذي توفي مع نهاية عام ١٧٩٦م، وآلت شؤون قبيلة فهر إلى ابنه الشيخ عمر الفهري..

كان الشريف بكري يرى أنّ تولي أمثال هؤلاء شؤون قبائل بلاد عين الآبار أمر ليس في محله، خاصّة أنّ القبائل الثلاث علماء وشيوخ أفاضل أفضل من هؤلاء بكثير، كانوا أصحاب رأي سديد وحكمة بالغة، ويتحلون بالعدل والإنصاف، وكانوا شركاء لشيوخ القبائل في أمور الحكم، ولهم باع طويل في ذلك، كما كانوا من أهل الحل والعقد في بلاد عين الآبار، بل كانوا أعضاءً بمجلس شورى القبائل منذ تأسيسه، وشاركوا في أهم وأخطر الأحداث التي مرت بها بلاد عين الآبار، وفي إقصائهم بهذا الشكل خطر شديد على بلاد عين الآبار...!!

وصل حد استبعاد أولئك الشيوخ الأجلاء أنه تم إقصائهم واستبدالهم في مجلس شورى القبائل بأشخاص آخرين، ولم يتبقّ من أعضاء مجلس شورى القبائل القدامى -الذين خاضوا معركة استقلال قبائل بلاد عين الآبار عن الدولة السعودية عند إبرام عهد الولاء- إلا الشريف علي بن زهير كبير قبائل بلاد عين الآبار، والشريف جعفر بن أكبر بن زهير من قبيلة زهير، والشيخ أبا زهرة المالكي من قبيلة مالك لعلاقته الشديدة بالشيخ عبد العزيز المالكي، حيث كانا شركاء في تجارة كبيرة..

كان للشريف بكري مع الشريف علي مناقشات طويلة في هذا الشأن، طلب فيها الشريف بكري ضرورة التدخل في تلك المسألة الهامة والحساسة، إلا أن الشريف علي اعتبر أن مثل هذا الأمر يُعد تدخلاً سافراً في شؤون القبائل من الداخل، وقد يرفضه عامتهم قبل خاصتهم على حدٍ سواء، خاصةً أنهم جميعاً قبلوهم ولم يعترضوا عليهم... وذات يوم وفي جلسة خاصة جمعت بين الشريف علي والشريف بكري (فقط) ناقشوا فيها تلك المسألة؛ حيث أوضح الشريف بكري أن الناس بالقبائل الثلاثة لا تقبل شيوخها بالشكل الذي يراه الشريف علي، حيث رد قائلاً:

- هو ليس قبولاً ورضاً كما هو ظاهر لك يا أبتى، بل على العكس من ذلك تماماً، هناك من يرفض بشدة أن يتولى هؤلاء شؤون قبائلهم، ولكنهم رفضوا الإفصاح حتى لا يتعكر صفو القبيلة، وحتى لا يثيروا الفتن من الداخل، وحرّجاً أيضاً من شيوخهم الذين رشحوهم لهم...!

- طالما هم رفضوا الإفصاح خوفاً من الفتنة، أنت تريد منا أن نتقدم بدلاً عنهم فنثير نحن الفتنة داخل قبائلهم...؟! ونفرض أنفسنا عليهم، والله حتى وإن كانوا جميعاً

يرفضونهم، ما إن نعلن تدخلنا سيعلمون قبولهم لهم حتى لا يكون لنا عليهم الكلمة داخل قبائلهم.. هذا شأنهم ومنذ أن تأسست بلاد عين الآبار ونحن نحكمها، ولكننا لم نتدخل في شؤون القبائل من الداخل من قبلُ بتلك الطريقة التي تريد أن تدفعنا لها.. هذا أمر لا يهمننا من قريب أو من بعيد...!

- كيف لا يهمننا؟!... بل يهمننا من الأساس ويهم وحدة بلاد عين الآبار، فعندما يحكم بلاد عين الآبار أشخاص كهؤلاء قد يؤدي ذلك إلى زعزعة استقرار القبائل، فهم ليسوا أهل حَلِّ وعقد كمن سبقهم، وليسوا من أصحاب الرأي السديد وأهل الحكمة، ولا يجيدون أمور الحكم أبدًا..

- هذا شأن داخلي للقبائل الثلاث، ولا يجوز لنا أن نتدخل فيه، ولقد مر هذا البند أمامنا عند تجديد الحلف ولم يثره أحد من قبل ولم يناقشه أحد، وكل ما فعلناه وقتها هو اعتماده كما هو دون أن نضيف له شيئاً أو نحذف منه شيئاً، فكيف تريد منا اليوم أن نتدخل مرة أخرى لتعديله بحجة التجديد، هذا أمر غير مقبول...!؟

- أنا لم أكن أعلم أن الأمور ستتغير لهذا الحد...!

- يا بكري، افهم ما أقول... لا يجوز لنا الآن أن نتدخل ونطلب تغيير حُكام القبائل الثلاث، فهذا سيؤدي إلى عواقب وخيمة، وسيؤدي إلى ما أنت تخشاه فعلاً، حيث انفراط عقد بلاد عين الأبار..

- أنا معك أنه سيسبب بعض اللغط، وقد يسبب بعض الخلافات، ولكن لأن هناك من يؤيد ذلك في كل قبيلة من القبائل الثلاث، سيكون الأمر محل جدل ونقاش ليس إلا...!

- لا... لا يجوز أن نناقش أمراً كهذا الآن، فلا مجال لذلك من الأصل، ولا توجد حتى طريقة لذلك، فأعضاء مجلس شورى القبائل (جميعهم) قد تغيروا، ولم يبق منهم في مكانه إلا الشيخ أبا زهرة، وأنت تعرفه جيداً، كما تعرف علاقته القوية بالشيخ عبد العزيز المالكي، فجميعهم يهتمهم الآن بقاء هؤلاء في حكم القبائل، كما أنّ مجلس شورى القبائل ليس من اختصاصاته مناقشة أمر كهذا.. وإن حدث ذلك.. وأثرت تلك القضية، اعلم أنهم سيكونون سبباً في عدم توليك شؤون قبيلة زهير...!

- لا يهمني ذلك أبداً...! نؤصل هذا الأمر بداية، ونعمل على أن نعدل ما قد اعوجَّ، ولهم أن يختاروا من هو أفضل مني، إن وجد في قبيلة زهير من هو أكفأ مني لهذا الأمر...!

- كيف ذلك...؟! أتريد أن يخرج حكم قبيلة زهير عن آل فاضل، وحكم بلاد عين الأبار من قبيلة زهير، وأنا الذي أعددتك لذلك منذ أن ولدتك أمك.. تركتك حرّاً تتخذ مواقف وأموراً كنت أخالفها وأعترض عليها بشدة.. ومع ذلك كنت أتركك حتى تكون أهلاً لهذا المكان، وتحمل اسم آل فاضل من بعدي، ويأتي ابنك ليحل محلك من بعدك...!

- أنا لا أهتم بتلك الأمور يا أبتى.. فمصلحة بلاد عين الأبار أهم من ذلك كله...!

- لا.. قد لا يهملك أنت... ولكنه يهمني أنا وإخوتك وأعمامك وأبناء أعمامك.. مصلحة بلاد عين الأبار لا أراها إلا في وجود حاكم لها من قبيلة زهير، ومصلحة قبيلة زهير لا أراها إلا في أن يحكمها آل فاضل، هذا هو مذهبي وعليك أن تلتزم بما أقول...!

- أنا أفهم ما تقوله، ولكن لماذا تفترض أنهم سيرفضون زعامتي لبلاد عين الآبار ولزهير قبلها...؟!

- لأنك إن تدخلت في شؤون القبائل سيتدخلون بالطبع في شؤون قبيلتك أيضاً، وقد يُغرون أحد شيوخ قبيلة زهير خارج آل فاضل، فيخرج ويطلب حكم قبيلة زهير لنفسه.. وسيدعمونه في ذلك، وإن خرجت عن قبضتك قبيلة زهير ستخرج (بالطبع) من قبضتك بلاد عين الآبار.. وقد تؤول زعامة بلاد عين الآبار لشيخ من قبيلة مالك أو فهر أو شداد، لا... لن يحدث ذلك أبداً... اترك أمرهم... فنحن في غنى عن هذا كله، كل قبيلة من القبائل وشأنها الداخلي، تختار من تختار، واختيارهم السيئ هذا لشيوخهم يصب في مصلحتك أنت في المقام الأول...؟!

- كيف يصب في مصلحتي...؟!

- اختيارهم السيئ لشيوخهم فرضك (من الآن) فرضاً على زعامة بلاد عين الآبار، فمن ذا الذي يفكر منهم في أن ينافسك على زعامة بلاد عين الآبار، وهم يعلمون أنهم ليسوا أهلاً حتى لحكم قبائلهم...؟! هم مؤمنون بذلك تماماً، واعترفوا بزعامتك لبلاد عين الآبار دون أن يُطلب منهم

ذلك، كما أنهم سنُّوا لنا عرفاً يجعلني أفرضك على بلاد عين الآبار دون حتى أن أرجع لهم في شيء... أما بلاد عين الآبار فمصلحتها الأولى في وجودك على رأس قاداتها وشيوخها، ونحن لا يهمننا إلا الالتزام ببند الحلف، الذي يحكم كل القبائل، ولا يجرؤ أحدهم أن يتعدى على بند من بنود الحلف مهما فعلوا.

- أخشى أن يحدث أمرًا عارضًا في بلاد عين الآبار يحتاج إلى الحكمة وأهل الرأي والحل والعقد، فلا تجد بلاد عين الآبار من يؤدي تلك المهمة، وها أنت ذا ترى في قبيلة مالك كيف استبدل الشيخ عبد العزيز المالكي بطانة الشيخ مازن المالكي الذين كانوا جميعهم عُلماء وفقهاء وأصحاب رأي سديد وحكمة، بمجموعة من التجار، حتى إن ممثلي أعضاء مجلس شورى القبائل لقبيلتهم مجرد تجار منتفعون لا يهتمهم إلا تحقيق مكاسب كبيره لتجارتهم... والشيخ عمر الفهري ها أنت تراه لا يهتم إلا بالأدب وحلقات الشعر، وترك أمور القبيلة كلها يديرها أتباعه الأقل منه حكمة وخبرة ليظهر أمام الناس أنه أفضل من فيهم، أما حُكماء وُعُلماء قبيلة فهز فلقد همَّشهم تمامًا.. وقبيلة شداد ها هو حالها أسوأ بكثير، فهذا محمود بن

شداد.. ها أنت ذا تراه لا يعرف أي شيء في أمور قبيلة شداد، وإن أراد أن يفصل بين اثنين في أي أمر تافه يطلب المشورة، فَتَحَكَّمْ فيه أصحاب الأهواء من قبيلة شداد، وصار كالدُّمِية في أيديهم، أهذا يصلح لإدارة شؤون قبيلة كبيرة وقوية وهامة وبالغة الخطورة كقبيلة شداد...؟!!

- طالما أنَّ الناس تقبلهم ليس لنا أن نتدخل في شيء.. ولا يجوز لنا أن نتخذ موقفاً ضدهم..

- أخشى من العواقب... والله إنني أخشى العواقب.. وستثبت لك الأيام ما أقوله...!

انفض هذا النقاش دون أي جديد يذكر، فقناعة الشريف على وخوفه من ضياع زعامة بلاد عين الآبار جعله يتغاضي عن كل تلك الأخطاء الجسيمة في تولي أمور الحكم في القبائل الثلاث، أما الشريف بكري فكان صاحب بصيرة، وكان يري أنه لا بد من وقفة لتصحيح الخطأ حتى ولو فقد مكانته في بلاد عين الآبار، هو فقط يحلم بتأصيل هذا الرأي في حلف بلاد عين الآبار، وبالتالي سيتم اختيار زعماء للقبائل بناء على نصوص الحلف الذي سيحفظ بلاد عين الآبار لأمد طويل ولا شك..

أما زينب زوجة الشريف بكري فبعد انقطاع عن الحمل دام لمدة تجاوزت السنوات الثلاث، رزقهما الله بابنهما الأكبر أبي الفضل وهو الآن في العاشرة من عمره، ثم انقطعت مرةً أخرى عن الحمل لمدة تجاوزت الخمس سنوات حتي رزقت بخالد في الرابعة من عمره، وفي واقعة كانت حديث نساء بلاد عين الآبار، تؤكد حملها للمرة الثالثة مع نهاية النصف الأول من عام ١٨٠٤م بمولودٍ جديد، وقد شارفت علي عامها الخمسين.

ومع بداية النصف الثاني من عام ١٨٠٤م جف بئر (ماء عدن) الخاص بقبيلة زهير، وفشلت القبيلة في حفر بئر آخر ببلاد عين الآبار، وهذا ما دفعهم - طبقاً لعهد الآبار- إلى اللجوء لشراء الماء من القبائل الثلاث بمنطقة عين الآبار، ولكن طبقاً لعهد الآبار بأسعار أقل بكثير من أسعار الماء المعروفة عند باقي القبائل الأخرى خارج نطاق بلاد عين الآبار، حيث يحدد هذا السعر مجلس شورى القبائل ويلتزم به الجميع، ولا يُسمح مُطلقاً بزيادته لأي ظرف كان.

وكان من ضمن بنود عهد الآبار أيضاً، أنه لا يجوز أن تمتنع أحد القبائل الثلاث عن بيع ماء بئرها للقبيلة التي جف

بيئرها الماء، واستمر الأمر كذلك لشهور قليلة.. ولظروف انتشار الأوبئة بقبائل بلاد عين الآبار، وخسارتهم الكثير من أغنامهم ونوقهم وخيولهم - خاصة قبيلة مالك- طالبت قبيلة مالك في جلسة طارئة بمجلس شورى القبائل تعديل بنود عهد الآبار بدعوى التجديد...!

نعم دعوى التجديد...!

لقد اعتبرت قبيلة مالك أنّ بنود عهد الآبار لا تُلائم ظروف القبائل في تلك الفترة، وكان مما سيترتب على هذا التعديل أو التجديد (المزعوم) رفع سعر الماء بقبائل بلاد عين الآبار، ومن ثمّ رفع سعره على قبيلة زهير، ومساواته بسعر الماء خارج بلاد عين الآبار، وذلك ليتماشى مع الظروف الحالية لبلاد عين الآبار، وتعويض ما حلّ بقبيلة مالك من خسائر فادحة بلغت أوجها... وهنا خاض الشريف بكري، وكان من ضمن أعضاء مجلس شورى القبائل عن قبيلة زهير معركة خطيرة ضدّ التجديد (المزعوم) والذي اعتبره انحراف وتساهل في أمر التجديد، أو التحريف (كما أطلق هو عليه هذا الاسم نصّاً)... فبعد أن كان الشريف بكري ثاني من قاد معركة التجديد في بلاد عين الآبار، وله

الفضل الأكبر والأثر الأقوى في ذلك، بات الآن يرفض تلك الدعوة لأنه يرى أنّ هذا التجديد (المزعوم) خرج عن الطريق الصحيح، كونه -هذا التصرف- لا يُعد تجديدًا بالمعنى الذي يفهمه، فوقف في مجلس شورى القبائل وكان له شأنٌ ومكانة بين كل القبائل وقتها، وقال بحدة مخاطبًا شيوخ - تجار بالوصف الأدق لهم- قبيلة مالك:

- هذا ليس تجديدًا، فالتجديد من شروطه ألا يتعارض (الأمر المنوط تعديله أو تجديده) مع المصالح العامّة والمباديء العليا والمقاصد الأساسية التي وضع من أجلها العهد أو الحلف، وتلك الدعوة تُخالف بشدة مقاصد عهد الآبار الذي وضعه الأجداد في الأصل لموازرة القبيلة التي تأثرت وجف بئرها، والوقوف بجانبها، دعمًا لها وحفاظًا على أواصر الأخوة والمحبة بين قبائل بلاد عين الآبار، ولعدم استغلال قبيلة لأخرى، فههدف هذا العهد في الأصل هدف سامٍ يحترم قيمنا الإنسانية التي يجب علينا أن نحافظ عليها في إدارة شؤون بلادنا، كما أنّ التجديد يجب أن يُراعي مصلحة المجموع، ويقبله هذا المجموع ويوافق عليه، أما التجديد الذي يُقصد به (فقط) مصلحة خاصّة، وتحقيق

مكاسب خاصة، ومن ثم إيقاع الضرر بأخرين كون المصالح مُتعارضة بالطبع، فهذا ليس تجديدًا، التجديد أسمى من أن يوصف على مثل تلك التصرفات، هذا طلب تعديل بنود عهد الآبار لظروف خاصّة ليصبّ في مصلحة خاصّة أيضًا، وليس التجديد الذي نعرفه أو الذي كنا ندعو له من قبل، فالتجديد لا يكون لأمر خاص ولتحقيق مكاسب خاصة، فالتجديد خلاف ذلك تمامًا...

فقال الشيخ أبو زهرة المالكي مُتحديًا:

- أليس أنت يا سيادة الشريف من كنت سببًا رئيسًا في تجديد بنود الحلف من قبل...؟! أم لأنّ التجديد هذه المرة يتعارض مع مصلحة قبيلتكم ترفضونه وتقفون ضده...؟!!

أبدى الشريف بكري اندهاشه الشديد من كلام الشيخ أبي زهرة المالكي، كون الشيخ أبي زهرة من أنصار التقليد المعروفين ببلاد عين الآبار، وكان ضد التجديد على الدوام، بل وله سوابق معروفة في هذا الصدد، ولكنه تغاضى عن ذلك، فهو يعرف مكانته (الآن) في قبيلة مالك، ومدى تأثيره البالغ في قرارات القبيلة، خاصة بعد تقربه الشديد من

شيخهم الشيخ عبد العزيز المالكي، ومن ثم فلن يُعارضه في كلامه كما كان يحدث أيام الشيخ مازن المالكي، ورأى ألا يتطرق لأمر جانبي، وتحدث في صلب الموضوع فقال موضحاً:

- قبيلة زهير قدّمت الكثير لبلاد عين الآبار، وهذا أمر لا ينكره إلا جاحد.. فهي السند والعون، وهي القريبة لكل قبائل بلاد عين الآبار، وهي الشريكة بقوة وقت المغرم، وصاحبة الفضل الأكبر وقت المغنم، والآن ليس مطلوب منكم إلا مُساندتها في ظروفها الطارئة بعد جفاف بئرها... وهذا هو المغزى وما أصله أجدادنا في عهد الآبار.. وبعيداً عن هذا الحديث...! فهيئات هيئات يا شيخ أبا زهرة بين هذه الدعوة للتجديد وتلك التي تقصدها... فتجديد الحلف كان للمصلحة العامّة ولمصلحة المجموع، وكان ضرورة حتمية، وجميعنا اتفقنا على ضرورة التجديد وقتها، كما كان أيضاً برضى كل الأطراف، وتم بآليات تم الاتفاق عليها بداية، وها أنتم تجنون ثمار التجديد، وعاشت بلاد عين الآبار أزهى عصورها في عهده... أما أن يكون التعديل لمصلحة خاصّة ودون

رضى الأطراف وهكذا دون معايير واضحة، فهذا لا يكون تجديدًا أبدًا، فهذا (وإن تحيزت له) لن أصفه إلا كونه تعديلًا لمصلحة خاصّة، ومع ذلك خذوا عليه التصويت فهذا حقكم، ولكن بطريقتكم تلك تفتحون علينا بابًا قد يكون سببًا في كارثة، وقد تكون بداية الفرقة في بلاد عين الآبار، وهذا ما أخشاه...!

عاد الشيخ أبو زهرة الذي يبدو مُتحاملاً ومنحازًا يقول:

- نحن نطالب بالتجديد كما طالبتكم به من قبل، وهذا حقنا...!
وللحظة عابرة أراد الشريف بكري بذكاء أن يوبخ أعضاء مجلس شورى القبائل من قبيلة مالك، فذكر فضل من سبقهم وبالغ في ذلك، وتحدث معهم بحدة قائلاً:

- هذا ليس تجديدًا يا مشايخ...! رحم الله شيخ المُجددين الشيخ ربيع المالكي، إن كان بيننا الآن لكان استطاع أن يَصِفَ ما تريدون القيام به وصفًا دقيقًا، لأنه كان رجلًا مُنصفًا من أهل الحق والعدل.. ورحم الله شيخنا الجليل وعالمنا الفاضل الشيخ مازن المالكي، رجل الحق والإنصاف الذي لم يكن يخشى في الله لومة لائم.. يا سادة

هذا تساهلٌ في التجديد، بل هو هدمٌ للثوابت والأصول،
فالتجديد الذي يدعو له طرفٌ لمصلحةٍ خاصّةٍ له أو لغيره
لا يكون تجديدًا، بل هو على أقلِّ وصفٍ تحريفٌ ظاهر...
من قبل كنا جميعًا معًا، وكانت هناك ضرورةٌ لذلك، أما
الآن فهذا طلبكم ولمصلحتكم فقط، حتى ولو افترضنا جدلاً
أن في ذلك التجديد مصلحةٌ للعدد الأكبر من الجماعة، إلا
أنه يهدم قيم عهد الأبار ويوأدها، هذا فضلا عن أنه يضر
فئة من الجماعة، والضرر واضح وظاهر ومُعَيّن
للجميع، فطالما أن التجديد سيضرُّ فئة ولو (قليلة) فهذا هو
بداية الفرقة، وأنا اعتبره التحريف بعينه...!

فقال الشريف علي مخاطبًا الشيخ أبا زهرة بحدة:

- ومنذ متى وأنت تُطالب بالتجديد يا شيخ أبو زهرة...؟!
فموافقك المُتكررة من التجديد معروفة، وشهدناها
باجتماعات مجلس شورى القبائل ومناقشاته، أنت لدينا من
الذين حاربوا تجديد الحلف بكل قوة من قبل... تدري يا
شيخ أبا زهرة، طلبك هذا لهو دليل قاطع عندي على أن ما
تريدون القيام به ليس تجديدًا بل تخريب...!

فقال الشيخ أبو زهرة بعدما أخرجهُ الشريف علي:

- أنا لا أقصد ذلك يا شيخ علي أنا أقصد...

فقاطعه الشريف علي قائلاً بحدة وبغضب شديد:

- تقصد أو لا تقصد...! طالبوا بتعديل بنود عهد الآبار وهذا
حَقْم، ولكن لا تصفوه تجديداً، فالتجديد كما قال الشريف
بكري، وهو الأَعْلَم منا جميعاً بقواعد التجديد ومفهومه
ومدلوله، لا يكون من خلفه أبداً أي نوايا خبيثة...!

بعد كلام الشريف علي (الحاد) حدثت لأول مرة بمجلس
شورى القبائل مُشادات كلامية بين كبار قبيلتي مالك
وزهير، وانتهى الأمر برفض طلب قبيلة مالك للتجديد
المزعوم، ولكن النقاش استمر حاداً حتى هدد أحد شيوخ
قبيلة مالك بعدم بيع الماء لقبيلة زهير مرة أخرى، حتى وإن
خالفوا بذلك بنود عهد الآبار، وردَّ عليه الشريف علي
بفسوة، بل هدده إن فعل مثل هذا التصرف سيكون عقابه له
ولغيره شديداً...! وبعد نقاش وجدال وقول وردٍ استمر ليوم
كامل.. انتقل هذا النقاش والجدال - لأول مره في تاريخ بلاد
عين الآبار- خارج مجلس شورى القبائل، فلقد حدثت
منقاشات مُتفرقة ساخنة وحادة بين أفراد قبيلتي مالك وزهير
وهذا ما نبأ عن خطر عظيم...!

مر يومين كاملين علي تلك الحادثة ومازالت المناقشات في مجلس شورى القبائل لم تنته بعد، وبعد وساطة قبيلتي فهر وشداد استطاعوا في النهاية إنهاء تلك المشكلة، وصدر قرار مجلس شورى القبائل ببقاء الوضع كما هو عليه، وتم تثبيت سعر الماء كما كان من قبل دون أي زيادة وانتهت تلك المشكلة عند هذا الحد.. ولكن داخل مجلس شورى القبائل (فقط)!!!

على الرغم من إنهاء هذا الخلاف، إلا أنّ تلك الحادثة كان لها أثرها الشديد في تفكير بعض شيوخ قبيلة زهير في الاستيلاء على بئر قبيلة مالك المعروف ببئر (روضة الخير)... فنظرًا لمضايقات عبيد قبيلة مالك -المُبالغ فيه والظاهر للعيان- في تعاملهم مع عبيد قبيلة زهير عند شرائهم الماء، وتعهد إبقائهم منتظرين لساعات طويلة جدًا بحجج واهية، جعل بعض فرسان ورجال قبيلة زهير يستشيط غضبًا من تلك التصرفات الغير مبررة، ظنًا منهم أن عبيد قبيلة مالك مأمورن من سادتهم بفعل تلك التصرفات، حتي يمنعونهم من شراء الماء، فهم لا يفعلون تلك التصرفات إلا ليصرفوهم عن شراء الماء من بئر

روضة الخير، خاصّة أنّ بئر روضة الخير هو أكبر وأنقى الآبار الثلاثة في بلاد عين الآبار... ولهذا كان العدد الأكبر من قبيلة زهير يُفضل شراء الماء منه، فبدأت تظهر - في الخفاء- دعوة مُتهورة غير مسؤولة تتبنى أحقية تملك قبيلة زهير بئر روضة الخير، بحجة أنهم الأحق به من قبيلة مالك، فهم أعز قبائل بلاد عين الآبار وأشرفها، وهم أصحاب الفضل في استقلال بلاد عين الآبار وما وصلت إليه بفضل جهود الشريف علي، كما أنّ قائدهم الشريف بكري هو صاحب الفضل الأول والأعظم في الحفاظ على بلادهم عندما وقف لصد هجمة أولاد يعقوب التي لم يشارك فيها أبناء قبيلة مالك إلا بعبيدهم..! كما أنه صاحب دعوة التجديد التي غيرت حياتهم وجعلتهم الأفضل من ذي قبل.. فما تنعم فيه قبائل بلاد عين الآبار الآن، هو - في الحقيقة- ثمرة أفكار أبناء قبيلة زهير فقط، فإن لم تكن قبيلة زهير موجودة في بلاد عين الآبار ما كانت أحوالهم بهذا الشكل، وتلك حقيقة عليهم جميعًا الاعتراف بها.. كما أنّ تصرفات عبيد قبيلة مالك مع عبيدهم لعي في الأصل إهانة بالغة لهم وهم أصحاب فضل ومكانة عالية، ولا يمكن أن يتعاملوا

معهم بتلك الطريقة، فقبيلة مالك تريد (فقط) منعهم من شراء الماء مخالفة بذلك بنود عهد الآبار، وتساءل البعض ليقوي رأيه قائلاً:

- أليست قبيلة مالك هي من طالبت من قبل رفع سعر الماء عليهم؟!، أليس عبيد قبيلة مالك يتعاملون مع عبيدهم بتعالٍ غير مبرر، وهم أصحاب السيادة والفضل على كل قبائل بلاد عين الآبار...؟!!

لا شك أن تلك الظروف خلقت جوًّا غير مريح بين بعض شيوخ وشباب قبيلة زهير، خاصَّة المُتهورين والمندفعين منهم... وفي تصرُّف غير حكيم، قام البعض القليل من فرسان قبيلة زهير بالاستيلاء على بئر (روضة الخير) عنوةً، دون مشورة الشريف علي، أو موافقة ابنه الشريف بكري - الذي يُرجع له دائماً في متابعة كل أمور قبيلة زهير- أو حتى دون علم وموافقة شيوخ قبيلة زهير الحُكماء أولي الألباب والعقول، فقاموا بالتعدي على عبيد قبيلة مالك الذين يحرسون بئر (روضة الخير)، وأعلنوا تملُّكهم له، وما إن علم فرسان قبيلة مالك بالأمر حتى هرعوا جميعاً لمكان

البئر سريعًا وبأعداد غفيرة، فنشب شجارً عنيفً بين فرسان قبيلة زهير (المُعْتَدِين والمرابطين بجوار بئر روضة الخير) مع فرسان قبيلة مالك الذين جاؤوا لإنقاذ البئر، وسرعان ما اتسع الأمر وتطور، واسترد فرسان قبيلة مالك البئر بالقوة، ولكن بعدما سقط أحد فرسان قبيلة زهير -المُعْتَدِين على البئر- قتيلاً على يد جمعٍ من فرسان قبيلة مالك، فلم يُعرف القاتل الحقيقي الذي تسبب في موته بشكلٍ ظاهر، وذلك لكثرة عدد فرسان قبيلة مالك الذين جاؤوا لاسترداد البئر..

كان هذا الشاب من الجماعة التي تبنت تلك الدعوة منذ بدايتها، وهو أول من ساعد في انتشارها بين الرجال والشباب المُتَهَوِّرين من قبيلة زهير... كان شاباً معروفاً بتهوره، أخرج مُتَكَبِراً، في الخامسة والعشرين من عمره، يُدعى زهير وهو ابن العالم الجليل الشريف جعفر بن أكبر بن زهير..

بعد سقوط زهير قتيلاً على يد فرسان قبيلة مالك، فزع الجميع من الخبر، حتى شيوخ قبيلة مالك أنفسهم، وتوترت الأجواء كثيراً في بلاد عين الآبار، وتم دفن القتيل في قبور

ديار قبيلة زهير على الفور... ولقد ألهب مقتل الشاب حماس كل فرسان قبيلة زهير وشيوخها وأطفالها ونساءها وحكمائها على حدٍ سواء، فكيف يراق دمًا بهذا الشكل في بلاد عين الآبار...؟! فمهما حدث بينهم من خلاف فلا يمكن أن يتطور لهذا الحد.. فمنذ تأسيس بلاد عين الآبار من مئات السنين، لم تحدث جريمة قتل واحدة بين القبائل الأربع، ولهذا كان هذا الحدث جد خطيرٌ للغاية، أربك الجميع شيوخًا وعلماء وحكماء وفرسانًا ونساء.. وبدأ تدخل شيوخ قبيلتي فهر وشداد لإنهاء الخلاف الذي نشب بين قبيلتي زهير ومالك، ذلك الخلاف الذي قد يُسبب عواقب وخيمة في بلاد عين الآبار..

عُقدت عدة اجتماعات مُتتالية لعدة أيام في ديار قبيلة زهير بعيدًا عن مجلس شورى القبائل، بين رجال قبيلة زهير ووساطة شيوخ قبيلتي فهر وشداد، وتمسك شيوخ قبيلة زهير بالثأر، وطالبوا بتقديم أحد فرسان قبيلة مالك لقبيلة زهير ليكون رجلًا برجل.. وتمسك بذلك الشريف جعفر كونه ولي الدم، ووافق جمعٌ كبيرٌ من فرسان وشيوخ قبيلة زهير على ذلك الرأي لدرء الخلاف...

وفي ذات الوقت عُقدت عدة اجتماعات مُتتالية في ديار قبيلة مالك، بين شيوخ قبيلة مالك ووساطة قبيلتي شداد وفهر أيضًا، حيث رفض شيوخ قبيلة مالك طلب قبيلة زهير، كون زهير -القتيل- كان من أول المتعدين على العبيد ببئر روضة الخير، فزادت الأمور سوءًا، وذهب قتل زهير بعقول القوم.. فلا حكيم بينهم، ولا سبيل لدرء الخلاف، واتسعت فجوة الخلاف، واستمرت وساطة شيوخ قبيلتي شداد وفهر ولكن دون جدوى...!

وفي الدرعية كان الإمام سعود الثاني بن عبدالعزيز يترصد الخلاف الذي نشب في بلاد عين الآبار- تولى الحكم بالدولة السعودية عام ١٨٠٣م بعد قتل والده عبد العزيز بن سعود بمسجد الطريف بالدرعية وقت صلاة العصر بشهر رجب وهو ساجد- فرغبته الشديدة في ضم تلك البلاد تحت حكمه (دون عهود ومواثيق تقيده) جعلته يراقبهم عن كثب، فكان دائمًا يتلقف أخبارهم، ورغم نصيحة من حوله بصعوبة السيطرة على تلك البلاد لقوتها ووحدتها وتوغلها في الصحراء، إلا انه لم يكن يعبأ بذلك، حتى وصلت له الأخبار بأن خلافاً كبيراً حدث في بلاد عين الآبار فيما بينهم، ترتب

عليه مقتل أحد رجالهم، وهذا ما قد ينهي وحدثهم للأبد، وما زاد من سروره انه علم بأن قبيلة زهير طرفاً أصيلاً في هذا الخلاف الناشب، فاطمأن لذلك وتبسم فرحاً لبرهة إلا أن وجود رجل كالشريف بكري أزال عنه تلك الابتسامة، فهو يعرف الشريف بكري جيداً، يعرف راحة عقله وفطنته وقدرته على جمع الشتات وتوحيد الصفوف، وما كان منه إلا أن ظل مُنتظراً مُترقباً الفرصة السانحة، مُعتمداً في ذلك على غرور الشريف علي، وطمع الشيخ أبوزهرة المالكي وغيره من تجار قبيلة مالك، وعدم فطنة قادة بلاد عين الأبار الحاليين..

لعل كون قبيلة زهير (طرفاً أصيلاً في هذا الخلاف) هو السبب الرئيسي في خلق تلك الفجوة الكبيرة...! والقصد من ذلك.. أنه ما دامت قبيلة زهير طرفاً أصيلاً في النزاع الدائر، والقتيل منهم، ومن ثم فهم الطرف المهزوم مهما كان قد بدر من فرسانهم من تعدٍ، فالقتل لا يتساوى بأي تعدٍ آخر!.. وهذا يعني أنهم متحفزون جميعاً للأخذ بالتأثر، ومن ثم تكون الحكمة والرأي السديد المُقنع والقدرة على الحل والعقد قد غابت فعلياً في بلاد عين الأبار، خاصة أن قبيلتي

فهر وشداد لم يكونا على القدر المطلوب من الحكمة وسداد الرأي... فتصدّر المشهد جماعةً من الوسطاء بلا رأي وحكمة، وبلا قدرة على الإقناع، يفتقرون تمامًا للرأي السديد، فهم ليسوا مؤهلين لحل خلاف خطير كالذي وقع في بلاد عين الآبار... وقد حدث ما كان يخشاه الشريف بكرى تمامًا... في أن يكون مثل هؤلاء هم من يتصدرون المشهد في بلاد عين الآبار...!

بات هذا الأمر واضحًا لكل أصحاب العقول في بلاد عين الآبار، فعدم الوصول لرأي سديد، والعجز التام عن حل المشكلة، أصبح مُفسرًا لضعف الوسطاء (الشديد) وعدم اتفاقهم على رأي واحد يجبرون عليه الطرفين المُتنازعين.. وهذا ما أفصح عنه الشيخ (الهزم) فارس بلاد عين الآبار (العتيق) الذئب بن شداد في جلسة جمعته مع فارس قبيلة فهر خالد الفهري.. وذلك عند زيارة خالد الفهري لصديقه عاقر بن الذئب بن شداد في منزله بديار قبيلة شداد، فلقد اعتاد خالد الفهري على زيارة عاقر والجلوس مع (الفارس العجوز) الذئب بن شداد لتبادل أطراف الحديث، فقد قال الذئب بن شداد موضحًا وجهة النظر تلك:

- تدري يا بُني، لو أنّ تلك المشكلة كانت قد وقعت بين أي قبيلتين من قبائل بلاد عين الآبار شريطة ألا تكون قبيلة زهير طرفاً فيها، أقسم لك بالله وبأغظ الأيمان لكانت انتهت في أقل من يومين اثنين...!

- أعلم ذلك يا عمي الذئب، وكنت قد تحدثت مع عاقر منذ أيام أنّ تلك المشكلة لو كان الشريف علي أو الشريف بكري أو حتى الشريف جعفر ليسوا طرفاً فيها لكانت انتهت منذ أن وقعت، فهم أهل الحل والعقد الحقيقيون في بلاد عين الآبار..

- رحم الله الشيخ عامراً الفهري و علماء فهر الأجلء، ورحم الله الشيخ أحمد بن جابر بن شداد و علماء شداد الأجلء، لو أنهم بين أظهرنا الآن لكان الأمر اختلف كثيراً، ولكن الجيدين - يقصد الوسطاء- الآن لا يصلحون لشيء يا رجل...!

- كل من جاؤوا لحكم قبائل بلاد عين الآبار الأربع السابقون كانوا أصحاب رأي سديد وأهل حكمةٍ وعلم، هم من ناقشوا الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأنصار دعوته،

واستطاعوا أن يناظروه وأظهروا قصور دعوته
وعيوبها... كانوا أهل علم وفقه... الشيخ عامر الفهري،
والشيخ مازن المالكي، والشيخ أحمد بن جابر، وبوجود
سيادة الشريف فاضل بن زهير -رحمهم الله جميعًا- .. ولا
ننسي أن الفضل الأكبر في الاستقلال عن إمارة الدرعية
يرجع لرأي الشريف علي بن زهير..

- لذلك هم من تولوا إدارة شؤون القبائل الأربع بعد وفاة من
قبلهم، أما الشريف جعفر بن أكبر بن زهير، فلقد كان له
قدرًا ومكانه كبيرة في قبيلة زهير، وكان الشريف علي
يعتمد عليه في أمور كثيرة في قبيلة زهير وكأنه نائبه..
حتى اعتكف في النهاية وترك الأمر للشريف بكري..

- هو لم يترك الأمر للشريف بكري هكذا.. الناس هي من
ذهبت للشريف بكري وقصدته في كل أمورهم، حتى
أمور القضاء في قبيلة زهير باتت الناس تذهب له وتترك
الشريف علي يا رجل.. الشريف بكري لا منافس له في
بلاد عين الآبار...!

- أنت هكذا دائمًا تتحاز له يا عاقر..

- لأنني أعرفه جيدًا، وأعرف فضله على بلاد عين الآبار،
ووالله لو أنّ الشريف بكري ترك أمر قبيلة زهير وفكر
قليلاً لحل هذا الخلاف، ما أخذ منه أكثر من يوم واحد..
عقله بألف عقل يا رجل..

- لا يا بُني.. هذا قتل.. ولا يستطيع الشريف بكري أن يترك
قبيلته ويجنح للوساطة.. فلو أنه فعل ذلك لتعنّت أبناء
عمومته ورفضوا وساطته من الأصل... فمع القتل لا
عقول ولا بديل له إلا الثأر.. هذا ما نعرفه في بلادنا..

- الخوف من أن يطول الأمد يا عم ... وتظل بلاد عين
الآبار هكذا.. والأكثر رُعبًا من ذلك أن نضطر للدخول
في هذا الخلاف..

- ما لنا نحن وهذا الخلاف، شيوخنا من البداية انحازوا
للساطة.. ومن ثم فنحن مجرد وسطاء لا أكثر.. أما إن
اتخذ شيوخنا موقفًا آخر فنحن لا نستطيع أن نحيد عن
قراراتهم يا رجل..

- تلك هي المشكلة يا بُني.. لو انحاز شيوخنا لأحد الفريقين
علينا أن ننحاز لقرارهم... حتى ولو جانب قرارهم
الصواب، وتلك هي المعضلة..

- تلك هي عاداتنا وتقاليدنا التي تربينا عليها.. لا نفارق أمر
شيوخنا وأصحاب الرأي فينا يا عم...!
- ادعوا الله يا أبنائي أن يسلم بلادنا من الفتنة.. وأن يدبر لها
أمرها من عنده.. اللهم ارفع عنا الشقاء.. اللهم ارفع عنا
البلاء.. اللهم أسكتِ الفتن... اللهم أسكتِ الفتن...!
- اللهم آمين.. اللهم تقبل يا عم.

وفي تطورٍ سريعٍ وغير عادي للأحداث، وقرارٍ وُصِفَ بأنه
قرار غير حكيم، أعلن الشريف علي لجلسة طارئة دعا لها
جميع القبائل بمجلس شورى القبائل، حضرها جميع أعضاء
مجلس شورى القبائل حتى أعضاء قبيلة مالك أنفسهم -
تغيَّب عنها الشريف بكرى لسبب غير معروف- بغرض
إنهاء الخلاف القائم في بلاد عين الأبار..

وفي جلسة خاصَّة، وفي ظل أجواء ملتهبة مع تحفُّظ شديد
من أعضاء مجلس شورى القبائل أعلن الشريف علي من
بداية الجلسة ودون تبادل النقاش بين الحاضرين، حق قبيلة
زهير في تملك بئر (روضة الخير)...! وطالب بتنازل قبيلة
مالك عنه وتسليمه في غضون ثلاثة أيام فقط، وذلك لقتل

قبيلة مالك أحد فرسان قبيلة زهير، وخرقهم الصريح لجلف قبائل بلاد عين الآبار، الذي يُدين بشدة، ويمنع منعًا باتًا بعض الجرائم بشكل خاص: كالقتل والسحر وهناك الأعراض والسرقة بين أبناء القبائل الأربع، حيث يُعاقب مُرتكب تلك الجرائم المذكورة بأشد ألوان العقاب دون أي تعزير، هذا بالإضافة لمحاولتهم السابقة خرق بنود عهد الآبار، وطلبهم زيادة سعر الماء الذي كان سببًا رئيسًا لكل تلك الأحداث، أما بخصوص زهير بن جعفر -القتيل- فستقوم قبيلة زهير بتقديم ديته لوالده الشريف جعفر بالقدر الذي يحده...! وطلب الشريف علي بعد قراءته لهذا القرار أخذ التصويت عليه دون مناقشة، كما رفض أخذ الرأي عليه دون تبادل للآراء...!

انحاز لهذا القرار شيوخ قبيلتي زهير وفهر - بعد التنسيق المُسبق معهم- كما وافق عليه الشريف جعفر، ومن ثم يكون على قبيلة مالك طبقًا لنظام العمل بمجلس شورى القبائل - الذي يفصل في قرارات القبائل الأربع بما ينحاز له رأي الشريف علي- تنفيذ القرار فورًا، إلا أنّ شيوخ قبيلة مالك رفضوا تنفيذ هذا القرار المُجحف في حقهم، بحجة أنّ

انحياز الشريف علي ليس ذا اعتبار في تلك الحالة، لأنه طرفٌ أصيلٌ في النزاع، فامتنعت قبيلة مالك عن تنفيذ قرار مجلس شورى القبائل، وأيدها في ذلك شيوخ قبيلة شداد؛ باعتبار أنّ هذا الرأي خرج عن العدل وحاد عن الحق، كما أنه خالف نظام العمل المُتبع بمجلس شورى القبائل من ضرورة النقاش وتبادل الآراء والحوار المستفيض في أي قرار هام وخطير في بلاد عين الأبار، حتى يتم التوصل إلى قرار عادل ومُناسب.. وهذا ما زاد من حدة التوتر، ففي امتناع قبيلة مالك عن تنفيذ القرار الصادر من مجلس شورى القبائل انتهاك صريح (أيضًا) لبنود حلف قبائل بلاد عين الأبار، وهذا ما دفع شيوخ قبيلتي زهير وفهر إلى الإصرار على موقفهم وتمسكهم الشديد بهذا القرار المجحف...!

كان موقف الشريف بكري واضحًا منذ البداية، ولهذا رفض حضور جلسة مجلس شورى القبائل، حيث أثار عدم حضوره الكثير من التساؤلات منذ البداية.. خاصّة أنه الأكثر حرصًا على مصلحة قبائل بلاد عين الأبار، ولكنه كان يعرف بقرار أبيه وناقشه فيه كثيرًا، كما أبدى

اعتراضه الشديد عليه قبل إعلانه بمجلس شورى القبائل، إلا أن الشريف علي كان مُصِرًّا على موقفه بشدة، وتناقش في هذا القرار مع شيوخ قبيلة زهير وأيدوه جميعًا، كما وافق عليه الشريف جعفر بن زهير مرغماً وطاعة للشريف علي...!

بعد إصدار الشريف علي هذا القرار بمجلس شورى القبائل كان على الشريف بكرى أن يُعلن موقفه على الملأ، وفي جراءة بالغة وإعلاء صريح وواضح لقيمة العدل، والوقوف مع الحق والإنصاف رفض الشريف بكرى اقتراح الشريف علي بقوة، فلقد اعتبره حلاً مُجحفاً في حق قبيلة مالك، وفيه هتك صريح للحق والعدل والإنصاف.. كما حذر من تنفيذ هذا القرار، واعتبر أن الموافقة عليه ستكون بداية تفكك قبائل بلاد عين الأبار...

كان الشريف بكرى يرى أن قبيلة زهير (وإن كان قد قُتِلَ منها أحد فرسانها) فهو قتلٌ خطأ غير مقصود، حتى وإن اعتبر قتلاً مقصوداً - وهذا من بال الجدل فقط- فهم من تعدواً أولاً على أملاك قبيلة مالك في عقر دارهم، وإن كان شيوخ قبيلة مالك قد طالبوا (من قبل) برفع سعر الماء على

قبيلة زهير، إلا أنّ هذا الأمر كان قد انتهى تمامًا بمجلس شورى القبائل، أما تعامل عبيد قبيلة مالك مع عبيد قبيلة زهير عند شراء الماء بشكلٍ مُهين -كما يدّعون- فهذا أمرٌ كان من الممكن تداركه بسهولة، ولو كان نقل له هذا الخبر لكان حله في أقل من برهةٍ واحدة... وبالتالي لا يكون القرار فيه لدرءه التعدي عليهم والإستيلاء وفرض السيطرة على بئر روضة الخير، الذي لم يكن يومًا من حق قبيلة زهير، ومن ثمّ فلا وجود لمبررٍ مقبولٍ لما حدث من أبناء قبيلة زهير في تعديهم، ومن ثمّ فلا مبرر لهذا القرار في حق قبيلة مالك...!

كان الشريف بكري في تلك الحادثة يقف مع الحق -حسب قناعته- وكان يرى ضرورة إنهاء تلك الأزمة فورًا، وسعى جاهدًا لدرء الخلاف الناشب بين القبيلتين، وانحاز لقبيلة شداد وفهر في أمر الوساطة..

كان انحياز الشريف بكري لقبيلتي شداد وفهر في أمر الوساطة كبارقة النور التي لاحت في بلاد عين الآبار، هذا الانحياز الذي قد يُنهي المشكلة من جذورها وفقًا لما رأى حُكماء وعقلاء قبائل بلاد عين الآبار، فلقد فرحوا بتلك

الخطوة فرحاً شديداً، ولكنَّ انحياز الشريف بكري في تلك المسألة كان ضد رغبة الشريف علي وقبيلة زهير قاطبة، لذلك رفضوا وساطته تمامًا، ورفضوا حتى مقابلته أو الجلوس معه كوسيط، وأخذوا منه - منذ الوهلة الأولى- موقفًا عدائيًا للغاية، واعتبروا موقفه موقفًا مُتخاذلاً بشدة يخالف به عادات وتقاليد وأعراف القبيلة، فكانت وساطته غير مُجدية، ولقد فهم الشريف بكري ذلك تمامًا، ولهذا عمل على أن تكون وساطته كمن يدير الوسطاء من بعيد دون التدخل بشكلٍ مباشر بين أطراف النزاع، فكان يوجه شيوخ قبيلتي شداد وفهر ويخطط لهم ويضع لهم الحلول المناسبة لإنهاء هذا الخلاف، وأول شيء طالبهم به عدم الانحياز لأي من الفريقين المُتخاصمين، فيجبروهما على الصلح حتى يتم درء الخلاف..

عمل الشريف بكري على السير جاهداً للصلح بين الخصوم، وتجرد تمامًا من كونه أحد أبناء قبيلة زهير، وزار قبيلة مالك في ديارهم وأعلن رفضه الشديد لقرار مجلس شورى القبائل، وطلب منهم تقديم دية زهير بن جعفر بالقدر الذي يحدده الشريف جعفر بنفسه، فوافقوا على

اقتراحه، وشكروه على مسعاه الطيب وامتدحوه على وقوفه بجانب الحق والعدل، كما طلب من شيوخ قبيلتي فهر وشداد عرض هذا الأمر لقبيلة زهير، ومحاولة إقناعهم به كون ما حدث قتلاً خطأ لأنَّ القتل كان أول من تعدَّى على بئر روضة الخير... ولكنَّ هذا الرأي لم يجد قبولاً بين شيوخ قبيلة زهير، كما رفضه الشريف جعفر بشدة، وما زاد من حدة التوتر انحياز قبيلة فهر لموقف قبيلة زهير... فلقد استغل الشريف علي سذاجة شيوخ قبيلة فهر، وتحدث معهم على انفراد، وذكر لهم موقعة ملحمة العبيد، وكيف أنَّ قبيلة زهير وقفت بجوارهم، في حين تخالفت قبيلة مالك، وأنه وجب عليهم رد الجميل لقبيلة زهير، ولقد حان الوقت لرد الجميل.. فانحاز شيوخ قبيلة فهر لرأي قبيلة زهير دون دراسة وفهم لما قد يترتب على انحيازهم من آثار...!

وفي تطورٍ سريعٍ وغريبٍ للأحداث، أرسل الشريف علي رسالة تهديد شديدة اللهجة لشيوخ قبيلة مالك ينذرهم فيها بشن هجوم واسع على قبيلة مالك، إن لم يسلموا لهم أحد فرسانهم.. أو تسليم بئر روضة الخير في غضون سبعة أيام فقط من الآن...! فرفض شيوخ قبيلة مالك تسليم أحد

فرسانها لقبيلة زهير، كما رفضوا تسليم بئر روضة الخير... بل تمادوا في ذلك وأعلنوا قبولهم واستعدادهم التام للدخول في حرب فاصلة مع قبيلة زهير بعد تهديد الشريف علي الصريح لهم، وسرعان ما دقت طبول الحرب بين الإخوة...!

حاول شيوخ قبيلتي شداد وفهر درء الخلاف وإيقاف الحرب التي باتت تدق طبولها، وغضب الشريف بكري من تصرف أبيه المُتسرع، ودخل معه في مناقشة طويلة ولكن دون جدوى..

حاول الشريف بكري أن يوقف الحرب، واشترك مع قبيلتي شداد وفهر في مسعاهم ولكنهم فشلوا جميعاً في درئها، نظراً لتمسك كل طرف برأيه وموقفه وتعمدت الأمور بشدة...!

وفي تصرف غير متوقع وغير حكيم خالف كل قواعد المعقول، بل وانعدمت فيه الحيادية والحكمة على حدٍ سواء انحازت قبيلة فهر لقبيلة زهير في حربها ضد قبيلة مالك، ظناً من شيوخها بأنّ وقوفهم بجانب قبيلة زهير سيجعل قبيلة مالك تخشى الدخول في حرب مع قبيلتي زهير وفهر،

فتراجع عن موقفها وتسلم أحد فرسانها أو يئر روضة الخير لقبيلة زهير دون حرب، ولكن جاء ما زاد الأمور سوءاً، وتطور الأمر تمامًا، وارتبكت الجموع، وزادت حدة التوتر القائم عندما أعلن شيوخ قبيلة شداد - في تصرفٍ لم يكن في الحسبان وافئد للمعقول والحكمة والرأي السديد- انحيازهم لقبيلة مالك في حربها ضد قبيلتي زهير وفهر، خاصةً أنّ قبيلة شداد هي أكثر القبائل قُربًا وصِهْرًا وعلاقات في التجارة مع قبيلة فهر، وانحيازها لقبيلة مالك أمرًا لا يمكن افتراضه من الأصل، بل ومجرد الافتراض، وبتدخل قبيلة شداد في الصراع اتسعت هُوة الخلاف كثيرًا، وباتت قبائل بلاد عين الأبار على جمرٍ مُلتهب، فانحياز قبيلة شداد لقبيلة مالك أمر يحسم الحرب لصالح قبيلة مالك ولا شك في ذلك، وباتت قبيلتا زهير وفهر في صدمةٍ شديدةٍ أفسدت تخطيطهم بل وشلت تفكيرهم، وعلى الرغم من معرفتهم أنّ دخولهم في حرب يُشارك فيها فرسان قبيلتي شداد ومالك ضدهم، بالتأكيد ستكون حرب خاسرة، فقوتهم وعددهم لا يكافئ (أبدًا) قوة وأعداد قبيلتي مالك وشداد مُجتمعين، إلا أنهم دُفعوا لذلك دَفْعًا، فعدولهم عن قرار الحرب سيفسره الطرف الآخر بأنه جبنٌ وخوفٌ وهروب

من المواجهة، وتلك صفات يرفضون (بشدة) أن تلتصق بهم حتى وإن دفعوا حياتهم ثمناً لها، وعليه .. فلا سبيل إلا الحرب حتى وإن كانت خاسرة...!

لعل تأييد قبيلة فهر لكل قرارات وتصرفات قبيلة زهير وانحيازهم الشديد لها بهذا الشكل له مبرره الواضح، فانحيازهم لهم كان نوع من رد الجميل عندما وقفوا بجانبهم لصد هجوم أولاد يعقوب العريبي وأحداث موقعة وادي جردان الشهيرة، وهذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى تلك العلاقات القوية التي نشأت بين القبيلتين في الأونة الأخيرة، والتي عمل عليها الشريف علي بنفسه حتي أنه تزوج منهم، فسار على دربه في ذلك شيوخ قبيلتي زهير وفهر!..

أما انحياز قبيلة شداد لقبيلة مالك - غير المتوقع- فهو انحياز للحق والعدل طبعاً لرأي شيوخها، وحتى لا يضيع الحق بين القبائل الأربع، كما أنّ انحيازهم لقبيلة مالك جاء رداً قوياً على تصرف قبيلة فهر (غير المسؤول أو المحسوب) حسب وجهة نظر شيوخ قبيلة شداد، كما كان يمثل وسيلة ضغط على قبيلتي زهير وفهر للرجوع عن قرارهما بخوض الحرب..

بعد انحياز قبيلة شداد وفهر للحرب، ودخولهم كطرف أصيل في الخِلاف، لم يبق من الوسطاء إلا الشريف بكرى منفرداً، فحاول الشريف بكرى إيقاف نشوب تلك الحرب التي ستقضي على بلاد عين الأبار وتشتت جمعهم، فعمل بدايةً على تفكيك تلك التحالفات، وبدأ بزيارة قبيلة شداد، وتقابل مع شيوخها وفرسانها ليدفعهم للرجوع عن موقفهم، وكانوا عُقلاء وحُكماء (في الحقيقة) في مناقشتهم لتلك المسألة، وهذا على عكس طبيعتهم وما توقعه قبل زيارته لهم، فوافقوا على خروجهم من هذا التحالف، ورجوعهم إلى حظيرة الوسطاء كما كانوا من قبل، ولكن بشرط رجوع قبيلة فهر عن موقفها، وظن الشريف بكرى أنه بهذا التصرف وهذا الوعد الذي استطاع أن يأخذه من شيوخ قبيلة شداد وفرسانها، قد يعود بالخلاف للمربع صفر من جديد (أي اقتصار الخلاف على قبيلتي مالك وزهير دون تحالفات فهر وشداد) وهذا أفضل بكثير مما وصلت إليه بلاد عين الأبار..

وعلى الفور.. وقبل أن يعود إلى داره بقبيلة زهير، زار

الشريف بكرى قبيلة فهر في وقتٍ مُتأخِّرٍ من الليل، وجلس أولاً مع خالد الفهري فارس قبيلة فهر، وأقرب الناس له وأعقلهم، إلا أنَّ خالدًا الفهري لم يكن من أصحاب الرأي بقبيلة فهر رغم أنه فارسهم، ولم يكن من أصحاب المواقف الحازمة، فواجه الشريف بكرى تعنتًا شديدًا من شيوخ قبيلة فهر، وأصروا على تحالفهم مع قبيلة زهير إصرارًا شديدًا، وذلك لأنهم رأوا أنَّ في انحياز قبيلة شداد لقبيلة مالك ليس في محله (بداية).. فقبيلة شداد أقرب القبائل لقبيلة فهر، ومعنى انحيازهم لقبيلة مالك ضد (تحالف) تُشارك فيه قبيلة فهر هو قطع لكل الصلات بينهما، فهذه الحرب لا تهم قبيلة شداد من الأصل، وهو أمرٌ ليس لهم فيه ناقة ولا جمل...! وفي المقابل لا تستطيع قبيلة فهر أن تخرج من تحالفها مع قبيلة زهير بسبب قبيلة شداد، وهم أصحاب فضل سابق عليهم عند وقوفهم ضد أولاد يعقوب معًا.. وعلى الرغم من محاولات الشريف بكرى المُستمرة إلا أنه فشل في إقناعهم تلك المرة، وفي النهاية بات وقوع الحرب أمرًا مُرتقبًا، حرب وصفها الشريف بكرى - قبل أن ينصرف من اجتماع قبيلة فهر - قائلاً:

- تلك حربُ الفائز فيها خاسر ولا محالة... فحروب الإخوة تُفسد ولا تُصلح، تقطع الأرحام، ولا ترد حق إلا بعار وخيبة، كما أنها تشمت في الطرفين الأعداء، ويمتد عارها حتي تلطخ سيرة الأباء والأجداد، فتصفهم بأنهم كانوا أهل شر وعدوان وإلا ما اختلف أبناؤهم... فعودوا إلي رشدكم يرحمكم الله.

كانت القوتان غير متكافئتين على الإطلاق، فكان قوام جيش قبيلة زهير وفهر ثلاثمائة فارس، وكان قوام جيش قبيلة شداد ومالك خمسمائة فارس من أشجع وأقوى فرسان قبائل بلاد عين الآبار قاطبة...

خرج في تلك الحرب أعز فرسان بلاد عين الآبار وأقواها قاطبة، كانوا مُتفرقين غير مُتحددين، مُتناحرين غير مُتحابين.. خرج فيها على جواده من بعيد فارس قبيلة شداد عاقر بن الذئب بن شداد وخلفه فرسان قبيلة شداد مُتناقلين ومُترددين ... وبجواره ظهر مُتأهباً ومُستعداً للقتال فارس قبيلة مالك، مالك بين ربيع المالكي وخلفه فرسان قبيلة مالك كانوا على أهبة الإستعداد للحرب... وفي سكون وترقب شديد لاح من بعيد جواده (الأظهر) فارس قبيلة فهر خالد

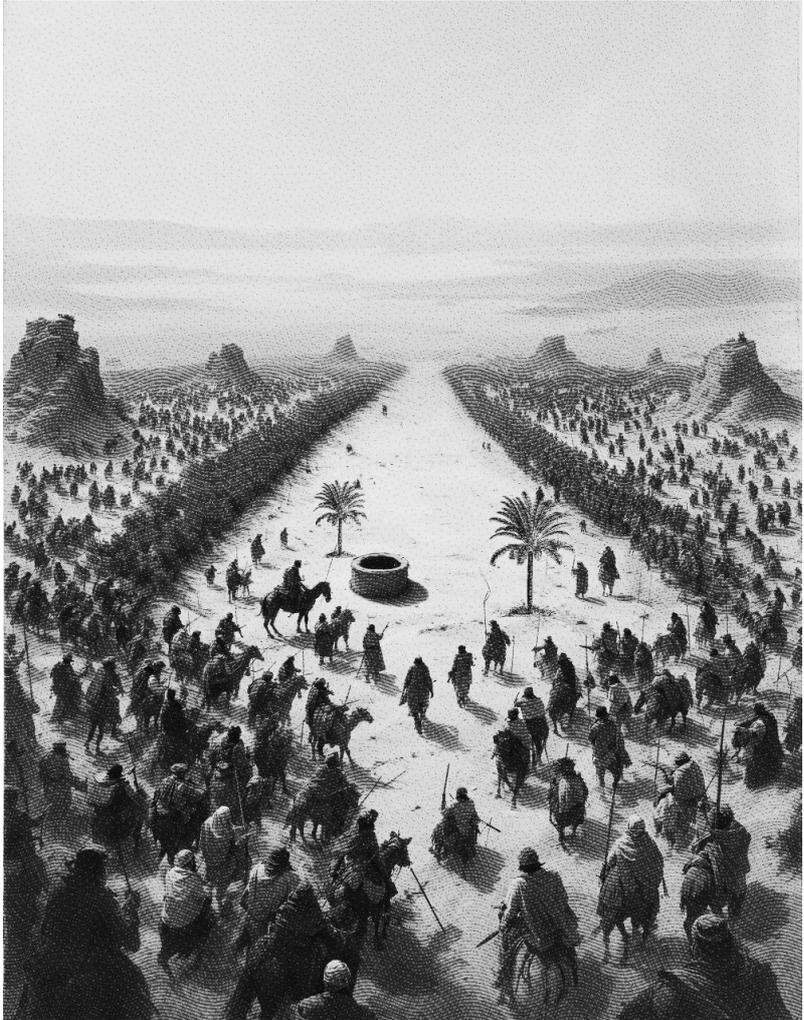
الفهري ومن خلفه فرسان قبيلة فهر وكأنهم يجرون أنفسهم جراً... أما الشريف بكرى فلقد خرج بين فرسان قبيلة زهير المتحمسين للقتال، وكان قد أقسم ألا يُشهر سيفه في وجه أي فارس من فرسان بلاد عين الآبار..!، فمزال الأمل يلوح أمامه ويدفعه لإيقاف تلك الحرب!..

أما فرسان العبيد بقبائل بلاد عين الآبار فلقد انصاعوا جميعاً لرأي الشريف بكرى، ورفضوا الخروج في تلك الحرب أو المشاركة فيها، وانصرفوا جميعاً لأعمالهم في بلاد عين الآبار وانتظروا ما ستسفر عنه الحرب في النهاية، وما سهل عليهم الأمر أن ساداتهم لم يطلبوا منهم المشاركة في تلك الحرب..

خرج فرسان القبائل الأربع ينظر كل منهم للآخر، يتملكهم الألم والحزن وعدم الرضا، وخرجت النساء من خلفهم توصي كلاً منهم بعدم قتل أخيها أو أبيها الذي يقف في الجهة المُقابلة، وكان الجميع في حالة من الحزن والتردد، يتهامس كل منهم للآخر، حتى وصل الجميع إلى منطقة الآبار، عند بئر روضة الخير، وأخذ الشريف علي يُردد - وكان ممتطياً جواده الأبيض شاهق - وأخذ يقول:

- من ينتصر له حق التملك... من ينتصر له حق التملك...!
نظر فرسان القبائل الأربع للشريف علي بنظرات الغيظ والغضب الشديد، وكأنه هو من كان سبباً لوصول بلاد عين الأبار لتلك الحالة، فعدم إنصافه وتحيزه لمصلحة قبيلة زهير كان واضحاً جداً خلال المفاوضات التي أجراها شيوخ قبيلتي فهر وشداد، والتي شارك فيها الشريف بكرى في نهايتها.

دارت الحرب واشتبك الفريقان على مهل، فكانت حرباً باردة بين الإخوة وأبناء العمومة والأصهار، كانت عبارة عن استعراض قوة لا أكثر، ظل فرسان القبائل الأربع يتبارزون حتى غروب الشمس، وبدأ العرض بخروج عاقر بن الذئب بن شداد، وقابله فارس قبيلة فهر خالد الفهري، وقدم استعراضاً طويلاً وقويًا، ولم يصب أحدهما الآخر، كما خرج مالك بن ربيع المالكي وطلب المبارزة فرفض الشريف بكرى المشاركة في تلك العروض، فتقدم أخوه بكير - وكان فارساً قوياً ذا بأس- وقدم أيضاً عرضاً رائعاً، ولم يتعمد إحداهما إصابة الآخر..



كما خرج عدد من فرسان القبائل الأربع الواحد تلو الآخر،
وقدموا عروضاً على نفس الطريقة، وفي نهاية اليوم
انصرف الجمع دون أن يُصاب أحداً منهم بخدشٍ واحد،
وكان في انتظارهم النساء والأطفال والشيوخ الكبار الذين
لا يقدرّون على حمل السلاح مُنتظرين عودتهم من حرب
(الإخوة)..!

فرح الجميع بعودتهم سالمين، كما فرح الشريف بكري
وحاول أن يعمل على درء الخلاف من جديد، وسيبدأ بالفعل
من يومه، ولكنَّ الشريف علي وبعض مؤيديه من أنصار
فكرة الحرب رفضوا بشدة مساعي الشريف بكري في
الصلح ذلك اليوم، كما نهزه الشريف علي بشدة بسبب موقفه
المُتخاذل.

كان الشريف علي غاضباً بسبب تصرفات الفرسان في تلك
المعركة (الباردة) في يومها الأول، وحث الفرسان على
الخروج في اليوم الثاني والالتحام بقوة لإنهاء الحرب..

خرج الفرسان في اليوم الثاني وكانوا قد بيتوا النية على
الاستمرار على تلك الحالة، بعدما نجح الشريف بكري في
إقناعهم، وكان الإتفاق قد رُتب ليلاً فيما بينهم دون إفصاح،

حتى يأخذ الشريف بكري فرصته كاملة لدرء الخلاف، ويجبر شيوخ القبائل على الصلح بعدما يعاينون بأعينهم موقف فرسان بلاد عين الأبار، الذين يرغبون جميعًا في عودة المُفاوضات من جديد لينتهي هذا الأمر دون خسائر في الأرواح..

ظل الفرسان يحاربون على استحياء شديد، واستمرت الاستعراضات كما حدث في اليوم الأول، ولكن الشريف علي لم يعجبه تصرف الفرسان وغضب غضبًا شديدًا، وقرر ان يُنهي تلك المسألة بنفسه، وفي غفلةٍ من الجميع تقدم على مهلٍ شديدٍ ناحية فرسان قبيلة شداد، وظن الجميع أنه أمرًا عاديًا، فلم يهتم أحدٌ من الفرسان بإيقافه، وعلى حين غرة أشهر سيفه بسرعة خاطفة وقطع رأس شيخ قبيلة شداد الشيخ محمود ابن جابر بن شداد، وكان واقفًا بين صفوف فرسان قبيلة شداد الأولي، ولم يكن قد أخذ حذره عندما رأى الشريف علي مُقبلاً عليه، خاصةً أنَّ الفرسان كانوا قد غرَقوا جميعًا في استعراضهم كالعادة... ولكن الأمر الأغرب من ذلك أنَّ الشريف جعفر ابن أكبر بن زهير - وقبل أن يفيق فرسان قبائل بلاد عين الأبار من هول صدمة

قتل الشيخ محمود بن جابر بن شداد- باغتهم وقد توجه مُسرِعًا بحصانه وأشهر سيفه وقطع رأس شيخ قبيلة مالك الشيخ عبد العزيز المالكي، الذي عجز عن صد ضرباته القوية، وسقط قتيلاً بين فرسان قبيلة مالك، فدقت طبول الحرب وتغيرت مجرياتها تمامًا!...

دارت حرب شرسة بين القبائل الأربع، اندفع فرسان شداد ومالك بعد قتل شيوخهم، ومالوا على فرسان فهر وزهير الذين صمدوا بقوة أمامهم، وصدوا من استطاعوا أن يصدوه منهم..

انهال فرسان قبيلتي مالك وشداد على فرسان قبيلتي فهر وزهير فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، كما هجم فرسان فهر وزهير على فرسان مالك وشداد وقتلوا منهم الكثير... أما الشريف بكرى فكان يقف بين الفريقين في حيرة شديدة، يحاول أن يمنع هذا، ويقف بوجه هذا ليمنعه من القتال، ويعمل على تهدئتهم ومنعهم من الاستمرار في القتل وسفك دماء الإخوة.. يقف بوجه أهله وأبناء عمومته، فيمنع البعض من الفتك ببعض... ولهذا لم يتقدم أي فارس من فرسان مالك أو شداد لقتاله، وامتنعوا عنه، ووقعت بقبيلتي فهر

وزهير هزيمة نكراء، قُتِلَ منهم الكثير، وكان أول من قتل في تلك الحرب من قبيلتي زهير هما الشريف علي والشريف جعفر الذين أشعلوا نار الحرب بفعلتهم...

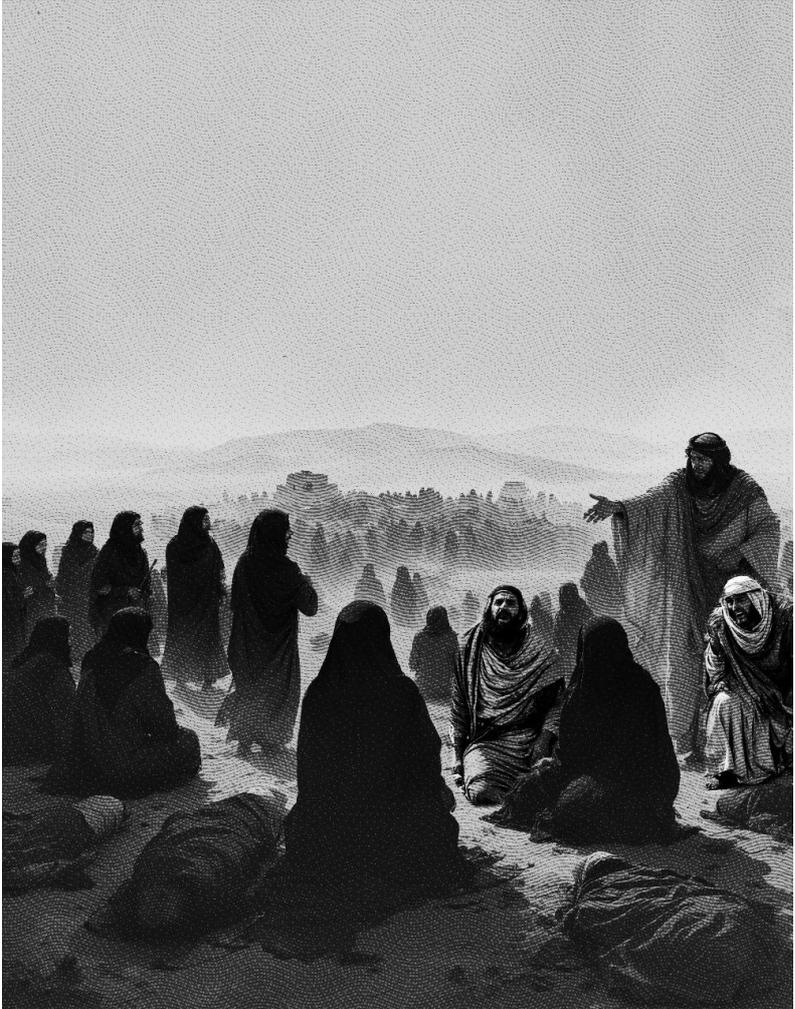
اندفع أبناء الشريف علي (بكير ومحمد) وسط فرسان قبيلتي مالك وشداد ثأراً لمقتل والدهم، فقتلوا منهم بضع فرسان من أعظم وأقوى فرسانهم.. حتى خرج لهما مالك بن ربيع المالكي ومعه عاقر بن شداد فواجهها الشريفين بكير ومحمد فقتلوهما معاً... كما توجه مالك قاصداً خالد الفهري وحاول قتله، ولكنَّ خالدًا الفهري أخرج سيفه من غمده وقضى عليه بضربة واحدة، فتغير موقف خالد الفهري - المُسالَم من بداية الحرب- تغيرًا تامًا، فانهال على فرسان قبيلتي شداد ومالك ضربًا بالسيف، فقتل منهم العدد الكثير... ولم يوقفه إلا عاقر بن شداد، وما زالا منمكين في المبارزة حتى سمعا صوت الشريف بكري يصرُخ بقوة، وينادي بصوت عالٍ مُخاطبًا فرسان قبائل بلاد عين الأبار، يطلب منهم إيقاف القتال وظل يقول:

- أقسم عليكم بالمودة التي كانت بيننا أن تتوقفوا عن سفك دمائكم... أقسم عليكم بصلة الدم والأرحام التي قطعتموها

أن تكفوا عن قتال أنفسكم لأنفسكم... يا فرسان مالك وشداد
 وفهر وزهير، إن كان قد نسي الشيطان أن يمحو من
 قلوبكم مثقال ذرة من حب فتوقفوا... وإن كان في قلوبكم
 مثقال ذرة من تقدير لبكري بن زهير فبالله عليكم انتهوا
 وأعيدوا سيوفكم في أغمادها... والله لقد سقط من بينكم
 أعز الناس وأشرف الرجال... ويكفينا ما حل بنا من كرب
 ومصيبة... أفيقوا يرحمكم الله... أفيقوا يرحمكم الله...
 أفيقوا يرحمكم الله..!

ما إن سمع الفرسان نداء الشريف بكري حتى انصاع له
 الجميع دون تردد، فانصرف عاقر بن شداد عن قتال خالد
 الفهري الذي ذهب ليطمئن على قتلى قبيلته، وانصرفوا
 جميعاً من موقعة الأبار، وقد قُتل من قبيلتي مالك وشداد
 عددٌ كبير لم يكن يتوقعونه قبل بدء الحرب..

عاد الشريف بكري ومن بقي معه بعد المعركة من فرسان
 قبيلة زهير إلى ديارهم حاملين قتلاهم، كما عاد خالد
 الفهري، وعاقر بن شداد، وفرسان قبيلة مالك إلى ديارهم
 حاملين قتلاهم معهم، وخيم الحزن والألم على بلاد عين
 الأبار قاطبة.



وفي ديار قبيلة زهير وبعد الانتهاء من مراسم دفن القتلى،
قرر بعض أفراد القبيلة ترك ديارهم وبلاد عين الآبار كلها،
فغضب الشريف بكري من تصرفهم غضبًا شديدًا وقال:

- إنها بلادكم ودياركم أنتركون دياركم لهزيمة في حرب كنا
نعرف نتيجتها منذ البداية...؟!!

فرد عليه أحدهم قائلاً:

- كيف لي أن أعيش في بلاد عين الآبار بعدما كان وما
حدث...؟! أنا سأذهب لأعيش بين أهلي...!

فقال الشريف بكري بعدما هدأ غضبه وبصوتٍ حنون
عطوف:

- إلى أين ستذهب، فهنا أهلك...؟!!

- يا سيادة الشريف أنا لي أهل في الحجاز، ولي أهل في
مصر، سأدبر أمري، فلا تحمل همي...!

- لك ما تشاء...!

ومع ذلك ورغم عدد القتلى الكبير في قبيلتي زهير وفهر،
قرر الشريف بكري السير من جديد لدرء الخلاف وإيقاف

تلك الحرب الشنعاء، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، وإعادة بلاد عين الآبار إلى ما كانت عليه من قبل، واستطاع - بعد جدال طويل ونقاش حاد- أن يُقنع شيوخ وفرسان قبيلتي زهير وفهر بذلك القرار الحكيم لدرء الخلاف وإيقاف الحرب ولكن -جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن- حدث أمرًا لم يكن في حسابهم جميعًا، ففي أثناء اجتماعهم الأخير بديار قبيلة زهير، أرسل الإمام سعود الثاني رسولًا قاصدًا شيوخ وزعماء قبائل بلاد عين الآبار، يطلب منهم الاستسلام له ولحكمه، تابعين وخاضعين له كغيرهم من قبائل نجد، دون عهود أو موثيق كسابق عهدهم، وضمهم تحت حكمه وقبولهم له أميرًا عليهم، واعتناق مذهب الدولة المُعتمَد...!

تسلّم الشريف بكري الرسالة من مبعوث الإمام سعود الثاني بن عبد العزيز، وطلب منه مُهلة بسيطة لعرض الأمر وبحثه مع شيوخ قبائل بلاد عين الآبار، فانصرف مبعوث الإمام سعود الثاني من فوره.. وعلى الفور أرسل الشريف بكري تلك الرسالة إلى شيوخ قبيلتي شداد ومالك، فأصيبوا جميعًا بالذعر والفرع والخوف الشديد، وبلغ منهم الحزن مبلغه، فلقد تفرق جمعهم وخارت قُوَاهم بموت العديد من

فرسانهم وشيوخهم (الأكثر) عقلاً وفهماً وحكمة لتدبير الأمور، فقرر مُعظم الرجال والفرسان الهجرة والرحيل من بلاد عين الآبار...!

بعد مناقشات لم تدم طويلاً اختار المُهاجرون من قبيلة شداد بلاد العراق ملجأ لهم... أما المُهاجرون من قبيلة مالك فقصدوا بلاد الشام... واختار المهاجرون من قبيلة فهر عاصمة الدولة العثمانية الأستانة.. ومن رفض الهجرة من بلاد عين الآبار – وكانوا قلة- قبلوا البقاء في بلاد عين الآبار مع خضوعهم لحكم دولة آل سعود واعتناق مذهب الدولة المُعتمَد.

أما الشريف بكري فلم يكن يقبل الخضوع لحكم دولة آل سعود، كما أنه لا مجال لتفاهات بعد هذا الانقسام الشديد الذي دب بين صفوف قبائل بلاد عين الآبار، فقرر الشريف بكري ترك بلاد عين الآبار (خلسة) وحمل أفراد عائلته وقرر الهجرة، كما صاحبه في هجرته عددًا كبيرًا من أبناء قبيلة زهير، وفي طريقه للهجرة ناحية الجنوب، طلب من شيخ قبيلة ليث الشيخ زيد بن عبد الله الليثي استضافته وأهله وأفراد قبيلته حتي يرتب أمره، فاستضافوهم وأكرموهم،

وبات الشريف بكري يفكر..

إلي أي البلاد يهاجر؟!..

وإلي أي البلاد ستكون وجهته وينوى لها الرحيل؟!..

ترك الرجال بلادَ عين الأبار كلُّ منهم مهاجرًا إلى ناحيةٍ بعيدة عن الأخرى، أما مَنْ تَبَقَّى من قبائل بلاد عين الأبار ورفض الهجرة فلقد خضع لحكم الإمام سعود الثاني بن عبد العزيز دون أي تفاهُمت أو عهود أو موثيق، وفرض الإمام سعود الثاني سيطرته الكاملة على بلاد عين الأبار، وخضعت لحكمه كغيرها من قبائل نجد..

في الصباح قَدَّمَ العبد ياسر سعدون عرضه الذي جاء به من عند أشرف صعيد مصر إلى الشريف بكري، ولكنَّ الشريف بكري لم يزل مُترددًا، فاجتمع مع أفراد قبيلة زهير، كما اجتمع مع الشيخ زيد بن عبد الله الليثي وشيوخ قبيلة ليث، ولكنهم تركوا له جميعًا حرية التصرف وأمر الاختيار والمفاضلة بين البلدان العربية التي سيقرون الهجرة إليها.

تردد الشريف بكري كثيرًا، وظل يفكر حتى حل عليه المساء، وكان قد طلب من العبد ياسر سعدون الانتظار لحين الوصول إلى قراره النهائي.

كان العبد ياسر سعدون يعلم جيدًا أنّ أمر موافقة الشريف بكري الهجرة إلى مصر ليس أمرًا هينًا، وعلى يقين بأنه سيأخذ وقتًا طويلًا لإقناعه، ولكنه قرر ألا يناقش معه الأمر الآن، فلم يُبِد الشريف بكري بعدُ رفضه الصريح، وما زال في مرحلة التفكير، فتركه يعيد التفكير في الأمر بروية من جديد، ودون أن يعمد إلى التشويش على تفكيره.

ظل الشريف بكري يُفكر كثيرًا حتى جَنَّ عليه الليل وحيدًا في الصحراء، وفي المساء لاح أمامه من جديد ذلك الجدار الذي يمنعه بشدة من الهجرة إلى مصر، فظل ليلته يقظًا يفكر ويسترجع ذكرياته في مصر، وعاد يُدقق ويعيد النظر ويُقيّم أمر الهجرة إلى مصر من جديد.. فجالت بخاطره كل الأحداث متتالية، ومرت عليه ببطءٍ شديد..

في الحقيقة لم تكن للشريف بكري مجرد ذكريات عادية بمصر، فلقد كانت مصر دائمًا الملجأ الأول له عندما يضيق

عليه الحال في نجد، فيأخذ زوجته وأبناءه قاطعين مسافات طويلة يقيمون هناك لأيام، وما يلبثون إلا أن يتغير مزاجهم للأفضل، ويعودون إلى نجد بروح جديدة وكأنهم قاموا بتنقية أرواحهم من الشوائب التي كانت قد علقت بها، وكأنهم غسلوا أرواحهم بمصر...! لكنَّ الشريف بكري لم يكن له مجرد ذكريات في مصر، بل كانت له تجربة قاسية بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، تجربة لا يمكن له أن ينساها.

بدأت تلك التجربة قبل ست سنوات مضت تقريباً، وذلك عندما طلب أبناء عمومته في صعيد مصر العون والمساعدة في محاربتهم للجنود الفرنسيين عند مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م.

على الرغم من أنَّ قبائل بلاد عين الأبار كانوا قد عرفوا بأخبار تواترت إليهم عن غزو صليبي جديد لبلاد العرب بدأ من مصر، وذلك بعدما نادى السلطان العثماني سليم الثالث لجهاد العدو الصليبي، حيث تحرك المُجاهدون من بلاد الحجاز وبعض بلاد الشام، إلا أنهم في قبيلة زهير اكتفوا (فقط) بالدعاء بالنصر لإخوانهم في مصر على العدو

الفرنسي الغاشم، فلم يكن يعلم شيوخ قبيلة زهير أنَّ خطرًا يُهدد أبناء عمومتهم في مصر من هذا العدوان، فهم بعيدون تمامًا عن هذا العدوان الصليبي وتلك الحروب...! ولقد ظهر للجميع أنَّ هناك فرقًا كبيرًا بين نداء الجهاد في البلاد الإسلاميَّة من قبل - وذلك عندما اجتمع المسلمون حول صلاح الدين الأيوبي- ونداء السلطان سليم الثالث الأخير للجهاد، فلم تكن الاستجابة ترقى لنفس مستوى الاستجابة التي كانت تحدث من قبل، وما تحركت قبيلة زهير إلا بعدما أرسل لهم أبناء عمومتهم رسالة طويلة عن طريق الحمام الزاجل (كعادتهم في المُراسلات) تطلب منهم المجيء على عجل جاء فيها:

- من الشريف يوسف بن خالد بن زهير زعيم قبيلة زهير في صعيد مصر... إلى الشريف علي بن فاضل بن زهير زعيم بلاد عين الأبار بنجد، أمْدُونَا بالرجال والسلاح، فلقد انهزم المماليك وهربوا من أمام الجنود الفرنسيَّة، ولا نتوقع مجيء جنود العثمانيين لنجدتنا في بلادنا بصعيد مصر، فلن يدافع عن بلادنا وشرفنا وأعراضنا إلا سواعِدُنَا، فنسألُكم بما بيننا من قُرْبَة وصلة رحم ودم أن تمدوننا

بالرجال والسلاح ولا تتباطؤوا علينا في نُصرتنا أثابكم الله..
وما أن وصلت تلك الرسالة للشريف علي حتى هب الجميع
في بلاد عين الأبار دفعة واحدة، ولم يتوان أبناء العمومة
عن نصره أبناء عمومته، وبالفعل تحرك الشريف بكري
على الفور، وطلب مساعدة فرسان قبائل بلاد عين الأبار
في حملته المُتجهة إلى صعيد مصر، فتحركت قبيلة شداد
من فورها وأرسلت عاقر بن الذئب بن شداد في خمسين
فارساً من أشجع فرسان قبيلة شداد، مُجهزين جميعهم
بالسلاح، كما تحركت قبيلة فهر وأرسلت فارسها خالدًا
الفهري في خمسين فارساً من أشجع فرسان قبيلة فهر
مجهزين بالسلاح أيضاً، وأخيراً تحركت قبيلة مالك
وأرسلت فارسها مالك بن ربيع المالكي في خمسين فارساً
من أشجع فرسان قبيلة مالك مجهزين جميعاً بالسلاح..

تحرك الشريف بكري من بلاد عين الأبار، وقد جهز
الرجال والكثير من السلاح لمقاتلة العدو الفرنسي الغاشم،
فكان عدد المُتطوعين من فرسان قبيلة زهير مع فرسان
قبائل بلاد عين الأبار يناهز مائتي مُقاتل من أمهر مقاتلي
قبائل بلاد عين الأبار وقتئذٍ، كانوا جميعهم من الشباب،



ذهبوا تحت قيادة الشريف بكري بن علي -وكان في الثالثة والخمسين من عمره- حيث أصرَّ على الذهاب بنفسه لمقاتلة العدو الصليبي -حسب وصفه- فوافق والدُه الشريف علي، وودَّعهم الرجال والنساء، ودعوا لهم بالنصر والعودة إلى ديارهم سالمين غانمين.

عَبَرَ الشريف بكري مع فرسان قبائل بلاد عين الأبار البحر الأحمر مُتجهين ناحية الفُصير، ومنها مباشرة إلى مديرية قنا بصعيد مصر حيث يقيم أبناء عمومته هناك.

وصل عدد مقاتلي الحجاز وشبه الجزيرة العربية الذين تطوعوا لمحاربة العدو الفرنسي في مصر إلى ما يزيد على أربعة آلاف مُقاتل بعتادهم وسلاحهم، إلا أنهم وصلوا دون تنسيق فيما بينهم، حالهم حالُ الجيش العثماني الذي جاء لمحاربة الفرنسيين بالقاهرة والإسكندرية، فترى الجيوش العثمانية التي تُنقل برًا تأتي في موعد آخر خلاف الجيوش التي تُنقل بحرًا، وكل قوة منهم تواجه الجيوش الفرنسية مُفردة دون حشد جميع القوى، كما أنها كانت تفتقد القيادة العسكرية الناجحة، وهذا ما جعلهم ينهزمون هزائم متكررة في كل لقاء وقع مع الجيوش الفرنسية.

أما من قصدوا صعيد مصر من أهل الحجاز وشبه الجزيرة العربية، فكانوا جميعًا تحت قيادة الشيخ الجيلاني والشريف حسن الينبعي، أبرز قادة المقاومة الشعبية الصعيدية في تلك الفترة، وقادة أغلب معارك الصعيد إبان الحملة الفرنسية.

والشيخ الجيلاني هو الشيخ محمد المغربي الجيلاني الهاشمي، يمتد نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي وتمتد أصوله إلى المغرب العربي، كان يقيم بمكة عند خبر هجوم الفرنسيين على الدولة المصرية، حيث كان لتلك الحادثة أثر عظيم في نفوس الناس ببلاد الحجاز والكثير من البلدان العربية، كون هذا العدوان هو العدوان الصليبي الأول على بلاد المسلمين منذ هزيمة لويس التاسع بالمنصورة، فأعلى راية الجهاد وخطب في الناس، وقام بدعوة الناس كافة للجهاد لنصرة الدولة المصرية، فتقدم الناس بكل غالٍ ونفيس، حتى كانت النساء يأتين إلى الحلقة -التي وقف فيها الشيخ الجيلاني يدعو الناس إلى الجهاد- يقدمن عقودهن ومصاعهن وما يملكه من أموال بين يديه لنصرة الدولة المصرية العربية الإسلامية، ويُقَلَّ له:

- "ذلك الذي علينا".

فتكونت لديه أموال طائلة، كما ورد إليه المتطوعون من كافة البلاد، فسار بهم إلى محاربة العدو الفرنسي الغاشم، وفي كل أرض كان يطؤها يدعو الناس للجهاد، فتقدم المتطوعون من كل مكان، وقدّم كل منهم ما أمكنهم أن يقدموه، فتقدّم محمد أبو صالح الحضرمي بخمسمائة بندقية، ومائتي حربة من جراب الشام، ومائتي سيف، وأربعمائة كيس من الأرز، وألفي نعل ينتعلها فقراء المجاهدين، وكذلك الشيخ عبد الرحمن العسري، والشيخ أحمد ناس، والشريف غالب بن مساعد -شريف مكة- والسيد محمد أبو العسل من ينبع، وغيرهم الكثير، وسار بالمتطوعين، وكان يمر ببلاد المسلمين يجمع منهم التبرعات والأموال التي سيحتاجها لمقاومة الجنود الفرنسيين، وسلك طريقه ناحية البحر الأحمر مُتجهاً ناحية القصير نُزولاً منها إلى مديرية قنا.

ما أن وصل الشريف بكري برجاله حتى قابله الشريف يوسف بترحابٍ شديد، وجمعه برجال المقاومة الصعيدية بقرية قاسم بمديرية قنا، كما عرفه برجال المقاومة في بعض القرى المجاورة، وفي أول لقاء جمع بينهم، وبعد

الترحيب بهم وبعدهما قدّموا لهم واجب الضيافة كعادة أهل الصعيد، اجتمع الشريف بكري مع الشريف يوسف وبعض رجال المقاومة الأفاضل في بيت الشريف يوسف الواسع بقرية قاسم، وحاول الشريف يوسف أن يوضح للشريف بكري أسباب استدعائه والفرسان، وأسباب إرسال تلك الرسالة لهم، فقال الشريف يوسف:

- لما نزل بونابرت إلى الإسكندرية وقتل منهم من قتل وحرق وسلب، وحدث هناك ما حدث من مقاومة حاكم الإسكندرية محمد كُرَيْم ثم إعدامه، ودخوله القاهرة كنا نظن أنّ المماليك سيصمدون أمام الفرنسيين، بل كنا نعتقد أنهم سيسحقونهم بخيولهم كما كانوا يقولون...! ولكن كانت الفاجعة.

ثم علق الشيخ تاج البرقوقي، الصديق المقرب للشريف يوسف، وأحد رجال المقاومة في الصعيد من قرية قاسم:

- كان المماليك يعيشون على أطلال النصر الذي حقّقه مماليك البحرية في زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، عندما هزموا لويس التاسع وأسروه بالمنصورة،

ولكن شتان بين هؤلاء والبكوات الآن، فممالكك البحرية زمن الملك الصالح أيوب تربوا على القرآن الكريم واللغة العربية وأصول الفروسية السليمة، وحققوا انتصارات لن ينساها التاريخ البشري كله، ولعل هزيمة التتار في عين جالوت خير دليل على ذلك، فكانوا فُرساً أشداء لا يُشقى لهم غبار، فالمملوك الواحد طالما على ظهر جواده يستطيع أن يهزم فرقة كاملة.

ثم شارك الحديث رجل يُقال له الشيخ أحمد عبيد، من أهل الحجاز، وكان من ضمن رجال المقاومة في الصعيد، وكان قد انضم للشريف يوسف ورجاله منذ اندلاع المقاومة الصعيدية حيث قال:

- الممالك البحرية كانوا يحكمون البلاد بحق النصر على العدو الخارجي بداية من لويس التاسع في المنصورة.. ثم تلتها الممالك البرجية، وهؤلاء سقطوا بسقوط طومان باي أمام الدولة العثمانيّة.. ثم تلاهم الممالك البكوات الذين يحكمون مصر الآن.. وهؤلاء يحكمون البلاد بحق انتزاع السلطة والانقلابات، وبسبب هؤلاء ساءت سمعة الممالك بشكلٍ عام.

فعاد الشريف يوسف مُعلقًا على كلام الشيخ تاج والشيخ
أحمد عبيد بألمٍ شديد قائلاً:

- للأسف الشديد ضعف دولة الخلافة، كان هو السبب في
تغيير نمط المماليك، فالمماليك باتوا لا يهتمون إلا بإرهاق
العامة بجمع الضرائب، والفسائس فيما بينهم، والقتل
وتصفية الحسابات الداخليّة، وأصبح أمر مصر بين ثلاثة
وعشرين مملوكًا، هم من يحكمون مصر في الحقيقة،
يختارون من بينهم شيخ البلد، ولا وجود حقيقي ولا كلمة
مسموعة للوالي العثماني، وبدلاً من أن تتدخل الدولة
العثمانيّة لإيقافهم والحد من بطشهم، تركت لهم الأمر تماماً،
فكانت سبباً رئيساً فيما وصلنا إليه...!

فسأل الشريف بكري مُستوضحاً:

-كيف...؟!

- الدولة العثمانيّة هي من أضعفت مكانة الوالي العثماني في
مصر، فإن تفاهم مع المماليك وحدث انسجام بينه وبين
أمرائهم، سعت الدولة العثمانيّة لعزله، وإن حاول أن يجعل

لنفسه مكانة وشخصية بين المماليك لم يسلم من شرورهم، بل إنهم يعزلونه بكلمة، ولا وجود للسلطان العثماني في تلك الحالة، ولا يتدخل إلا في أن يستبدله بآخر...!

هنا شارك الشيخ نور الطيب النقاش، وهو أحد رجال مقاومة الصعيد الشجعان، فنظر إلى الشريف بكري ورجاله فقال:

- لقد تأكد لنا عدم صمود المماليك أمام جند الفرنسية وذلك مما نُقِلَ إلينا عن موقعة الأهرام، وهو أول لقاء جمع الفرنسيين بالمماليك، وبالفعل تأكد لنا ذلك بعد حادثة: "هل من مبارز" الشهيرة...!

ضحك الحضور بسخرية شديدة عندما ذكر الشيخ نور الطيب تلك الحادثة، غير أنَّ الشريف بكري لم يكن يعرف عن تفاصيلها شيئاً، فحاول أن يفهم ما يعنيه الشيخ نور فسأله قائلاً:

- ما هي حادثة "هل من مبارز" تلك...!؟

- عندما وصل الجنود الفرنسيون إلى موقعة الأهرام، قابلهم



المماليك، وهم ينظرون إليهم بازدراء وسخرية شديدة، حتى ظهر أمير من أمراء المماليك بزيه الأنيق المُطرز بالحرير، وبألوانه الجميلة الزاهية، وقد ترصعت سترته بالجواهر والحلي، وكان قد لبس عدته كاملة، وتقدم ناحية الفرنسيين ظنًّا منه أنه ما زال يعيش في عصر الفروسية القديم، حتى صار على بضع خطوات منهم، فطلب مبارزة قائدهم، وما كان من الجنود إلا أن قتلوه بالرصاص دون أن يعبئوا به تاركين جثته على الأرض بعدما جردوه من جواهره وحُليهِ وسيفه النفيس وخنجره المرصع بالذهب والفضة...!

فقال الشيخ تاج:

- رأى الأهالي الجنود الفرنسيين وقد انقضُّوا على جيش المماليك، وكان مكونًا من عشرة آلاف مملوكي، وبضع آلاف من الجنود الإنكشارية وبعض المقاتلين من المصريين، فقتلوا منهم الكثير وأغرقوا الباقي، حتى إن الجنود الفرنسيين كانوا يخلعون سترات المماليك لَمَّا رأوها مرصَّعة بالذهب والفضة، فجرَّدوهم منها وأخذوها لأنفسهم، وألقوا بهم عُراءً في النيل.

فقال الشريف يوسف:

- تلك الواقعة كانت صدمة لكل أهل مصر، واتضح لنا الفرق الكبير بين القوتين، بين جيش عتيق بالغ القَدَم يعيش زمن الفروسية القديم، وجيش آخر مختلف تمامًا له تنظيم مُدهش في الحقيقة، لكنه لا يرحم ولا يعترف بقيم أو أخلاق، ولما قرر بونابرتة غزو الصعيد، كان علينا أن نعتد على أنفسنا، فجمعنا أنفسنا ووصل إلينا أنبل الرجال وأشجعهم.. أمثال الشيخ الجيلاني والشريف حسن الينبعي وغيرهم، وانضموا إلينا، بل قاد الشيخ الجيلاني بنفسه المُقاومة الشعبية من الأهالي من بداية خط الصعيد حتي نهايته، وأرسلنا لكل مَنْ نثق بهم من أهلنا خارج مصر، ولهذا أرسلنا في طلبكم.

قاد الشيخ الجيلاني والشريف حسن الينبعي المُقاومة الصعيدية، وتصدوا لجنود الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه، ووقع بينهم عدة معارك طاحنة، شارك فيها الشريف يوسف ورجال المُقاومة من قرية قاسم، وقدم الأهالي كل ما يستطيعون أن يقدموه وزيادة، فعندما انضم رجال المُقاومة

من مُقاتلي الحجاز وشبه الجزيرة العربية إلى رجال المقاومة الصعيدية قويت شوكت المقاومة بصعيد مصر، فلقد شاركوا بقوة في المقاومة الشعبية الباسلة، وقدموا لهم الكثير من العون والمُساعدة، ودعموا أهل الصعيد بالمال والرجال والسلاح والمؤن، ولقد شارك الشريف بكري وفرسان بلاد عين الآبار في عدد كبير من معارك أهل الصعيد..

بدأت تلك المقاومة عندما أوكل نابليون بوناپرت أمر السيطرة على الصعيد للجنرال ديزيه، وهو واحد من أهم قادة الحملة الفرنسية، تولى بنفسه قيادة الحملة التي ستسيطر على الصعيد وتعمل على إخضاعه، ولكن سرعان ما أصبحت المقاومة تعمُّ كل قرى الصعيد، حتى لا يمكن أن تذكر قرية واحدة على جانبي النهر لم تقاتل ولم تقدم شهداء من أبنائها، فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلَةً من الهياج والثورة، واندلعت الثورات المتكررة في أكثر من أربعين بلدًا، وقعت بها معارك أشبه بالمذابح، كان أشدها وطأة في سوهاج، عندما تجمع أربعة آلاف من الأهالي مسلحين بالبنادق القديمة والشوم والحراب والفؤوس، وسقط

منهم ٨٠٠ قتيل، مما جعل الأهالي يتجمعون مرة أخرى في أسيوط، وجاءت الأهالي من المديريات المجاورة كمديرية المنيا، وبني سويف، والفيوم، وتمركزوا في أسيوط، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسي، فأمر الجنرال "دافو" مساعد الجنرال "ديزيه" بإطلاق النار عليهم وسقط ٩٥٠ قتيلاً منهم.... وفي قرية الصوامعة -جنوب طهطا- هجم ديزيه على الثوار وكانوا قرابة ثلاثة آلاف من الفلاحين، وأعمل فيهم القتل وأطلق عليهم المدافع حتى سقط ١٠٠٠ قتيل منهم.

أما في مديرية قنا فلقد اضطر ديزيه أن يقف بأسطوله للزحف برجاله شمالاً، وكان أسطوله نحو ١٢ سفينة حربية تُقل ذخائر الجيش ومؤنثه، تتقدمها السفينة الحربية "إيتاليا"، فهاجمها الأهالي بمقربة من قرية "بارود" كان ذلك في الثاني عشر من رمضان الموافق الثالث من مارس سنة ١٧٩٩م، ووسط توجيهات الشيخ الجيلاني، وصيحات وهتاف الشريف حسن الينبعي (ذاك القائد الأغر)، وبلاء الشريف يوسف ورجال المقاومة، وتفاني الشريف بكري وفرسان بلاد عين الأبار أغرق الأسطول الفرنسي بالكامل،

وقُتِل جميع الجنود الفرنسيين بما فيهم قائدهم، وكانوا قرابة ٥٠٠ جندي فرنسي، كما وجدوا بإحدى السفن ثمانمائة ألف ريال من الضرائب التي جمعتها الحملة من أهل مصر، وأبلى أهل الحجاز وشبه الجزيرة العربية بلاءً حسنًا، حتى كتب الجنرال "ديزيه" إلى "نابليون بونابرت" مُنزعجًا من الوضع بالصعيد، والمقاومة العنيفة التي لقيها من الأهالي هناك، وطالبًا منه سرعة إرسال المدد حيث جاء في رسالته:

- "إنه أصبح علينا أن نحارب ثلاث قوى مجتمعة، وهم العرب القادمون من القصير، والمماليك، والأهالي".

أما في مدينة "أبنود" فلقد تسلح الأهالي (لأول مرة) بالمدافع، ولقد نصبوها على أحد المنازل بمدخل المدينة، وبدأ القتال مع أذان الظهر، وبعد ساعتين من القتال قُتِل من الفرنسيين ٦٠ قتيلًا، وجرح مثلهم، وتوقف القتال مع غروب الشمس.. ومع طلوع الفجر عاد الفرنسيون يُحاصرون المنزل، وتمكن الفرنسيون من تطويق المنزل والسيطرة عليه فأشعلوا فيه النار، ولكن رجال المقاومة

قفزوا منه عراة يدوسون على النار بأقدامهم يريدون إطفاءها، ممسكين بأيديهم السيوف والبنادق لا يخشون الموت، وقتل الفرنسيون منهم مقتلة عظيمة، وتفرق الرجال كلٌّ في ناحية... وفي المساء عاد الشيخ الجيلاني قاصداً "أبنود" مع أربعين مقاتلاً من أهل الحجاز مُدافعين عن المدينة وأهلها، وفي الصباح حاصر الفرنسيون المدينة، واستمر حصارها والقِتال العنيف بها بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام حتى نفذ الماء والزاد... وفي عتمة الليل وقت غفلة الجنود الفرنسيين، خرج الشيخ الجيلاني بالرجال مُتجهًا إلى بئر يُقال لها بئر عنبر، وتلاقى هناك مع جماعة من المقاومة، فسار بهم إلى حجازة -قرية بمدينة قوص- وأقام بها ثلاثة أيام، وأدركه الأجل هناك، وكان قد كَتَبَ وصيته قبل أن تُفارق روحه الطاهرة الحياة، فجاء رجال المقاومة يطلعونَ على ما جاء في وصيته فوجدوه قد أوصاهم بتقوى الله تعالى، والجهاد في سبيل الله، والصبر على مُلاقاة الأعداء. وبعد تلك المعارك الطاحنة التي قادها الشيخ الجيلاني ضد الجنود الفرنسيين أرسل الجنرال ديزيه إلى نابليون بونابرت يقول:

- "إننا نعيش هنا عيشة ضنكًا، فإنَّ جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها، ولا نجد فيها شيئًا من القوت ولا نرى فلاحًا واحدًا يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا، ولا أدري السبب في هذه الحالة، على أننا مع ذلك لا نعمل عملاً ضارًا في البلاد التي نجتازها"...!

ثم أقر "ديزيه" في نهاية رسالته إلى قائده نابليون بونابرت قائلاً:

- "ولا أكتمكم الحقيقة، وهي أننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد، لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت إلى حالتها القديمة....".

كان الشريف بكري وفرسان بلاد عين الآبار يُشاركون في كل تلك المعارك بحماس شديد، ولكن النهاية لم تكن مُرضية أبدًا له ولمن كان معه من الفرسان...!

فلقد عاد الشريف بكري بثمانين مقاتلاً فقط من فرسان بلاد عين الآبار، فقد استشهد منهم مائة وعشرون مقاتلاً من أمهر المُقاتلين في معاركهم ضد الجنود الفرنسيين بمعارك الصعيد، قُتل منهم مائة وعشرة فرسان غدرًا دفعةً واحدةً،

نتيجة واقعة مُخزية وحادث مؤلم، عانى منه كل المُقاتلين وأهالي الصعيد ومقاتلي الحجاز وشبه الجزيرة العربية المتطوعين للمقاومة ضد الحملة الفرنسية، وما زال هذا اليوم محفورًا بذاكرة الشريف بكري حتى الآن... إنها موقعة جبال القُصير...! تلك الموقعة المُخزية التي عاد بسببها الشريف بكري ومن تبقى معه من فرسان بلاد عين الأبار إلى نجد، عازمًا على عدم العودة مرة أخرى إلى مصر، طالما على قيد الحياة..

لقد قام الخائن الأغا عبدالعال -الذي كان يعمل مع الحملة الفرنسية في هجومها على الصعيد؛ لتوطيد حكم الفرنسيين بمصر- بإخبار قادة الحملة الفرنسية عن أماكن اختباء مقاتلي شبه الجزيرة العربية والحجاز بالجبال، فهاجموهم على غرة وقت راحتهم، بحملة كبيرة شرسة للغاية خرجت (مُسلحة بأحدث المدافع) خِصيصًا للقضاء عليهم، كان ذلك بعد معركة البارود بأيام قليلة، بسبب بلائهم في تلك المعركة، وما سببوه من خسائر فادحة للحملة في الصعيد، وصمودهم القوي في كل معارك الأهالي عند التصدي

لرحف الجنود الفرنسيين، وإرباك قادتها وقتل جنودها، ولقد أسفرت تلك الحملة الشرسة عن مقتل العديد من مقاتلي شبه الجزيرة العربية والحجاز، كان على رأسهم القائد الفذ الشهيد الشريف حسن الينبعي نفسه .

كان الأغا عبد العال في الخامسة والثلاثين من عمره، وهو مُسلم من أهل مصر، وهو أحد عملاء الحملة الفرنسية الذين جندتهم من أبناء مصر عند مجيئها من المسلمين والمسيحيين، وكان يعمل -من قبل- مع أحد أمراء المماليك، فاستخدمته الحملة الفرنسية في حروبها بالصعيد لنقل أخبار مقاومة الصعيد، كما استخدمته فيما بعد كجندي مقاتل، وكان ممن يجيدون الكر والفر ببراعة، وله دراية كبيرة بأقاليم الصعيد، وعلى دراية بطبائع أهل الصعيد وشمائلهم، كما استخدمته الحملة الفرنسية في جباية الأموال، وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر خرج معها ومع كل من ناصرها من أهل مصر (الخونة) الذين ماتوا خارجها، ولم يعودوا لها ثانية، لتاريخهم الذي يعرفه كل أهل مصر في تلك الفترة .

وكما رأى الشريف بكري خيانة القليل من أهل مصر، رأى تضحيات الآلاف منهم، فتذكر ما رآه في مصر من أهلها الأخير، فلقد رأى بعينه تضحياتهم بأنفسهم في مقاومتهم الاحتلال الفرنسي الغاشم.. رأى صمودًا لم يره من قبل، شاهد رجال مصر ونساءها وأطفالها يبذلون الغالي والنفيس لنصرتها، يُقَدِّمون أرواحهم رخيصة حماية لبلادهم وعرضهم ودينهم، كما رأى منهم حفاوة (الإخوة) وكرمًا بالغًا له ولفرسانه المقاتلين، ولكل مقاتلي الحجاز، كما شاهد ما ألمَّ بهم من ألمٍ وحزن شديد عند استشهاد فرسانه، ورأى بنفسه لأهلها مواقف بطولية ما زالت محفورة في ذاكرته حتى الآن، وما زال يرويها لأهله وفرسان قبيلته وأبنائه في كل وقت... فلم يستطع أن ينساها حتى الآن...!

ما هال الشريف بكري ليس صمود ووقوف المصريين ضد الفرنسيين فحسب، بل ما هاله بشدة هو ذلك التماسك الشديد بين أفراد الشعب الواحد، ما هاله حقيقة ما رآه من بعض أقباط مصر أثناء معاركهم مع الجنود الفرنسيين، الذين كانوا من ضمن رجال مقاومة الصعيد الأفاذا الذين تصدوا جميعًا لزحف الجنود الفرنسيين بقوة الأبطال...!

لقد رأى الشريف بكري بطولات الأقباط المسيحيين من أهل مصر يُحاربون بصفوفهم وبجوارهم بكل قوة، على غير ما كان يتوقعه...! فوقف عقله لبرهة مُتسائلاً:

- كيف لأقباط مصر (المسيحيين) يحاربون الفرنسيين وهم ينتمون إلى دينهم...؟!!

تعجب الشريف بكري وفرسان بلاد عين الآبار من الأمر بشدة ووقفوا جميعاً في ذهولٍ وصدمة، حتى تجرأ الشريف بكري وسأل أحدهم باستغرابٍ شديد قائلاً:

- أليس الفرنسيون من دينكم؟! كيف تحاربونهم معنا؟ فما كنا نعرفه أنكم تؤيدون غزوهم لأرض مصر وبلاد المسلمين...!

حتى جاء الرد الذي أدهشه وأسكته عن الكلام، وظل يفكر فيه لأيام وأيام.. فلقد قال له هذا المحارب المسيحي الشجاع وكان يُدعى "جريس يونان" كلماتٍ ظلّت تتردد على مسامعه، وتجول بذهنه بين الحين والآخر، ولم يقدر أن ينساها:

- أرض مصر لأهل مصر مسلمين ومسيحيين، أما الفرنسيون فهم غزاة ومعتدون، هدموا بيوتنا وقتلوا أهلنا، واستحلوا دماء أهل مصر، جاؤوا من وراء البحار لينهبوا ثرواتنا، وتلك بلادنا، جذورنا تمتد فيها لآلاف السنين، وُلدنا فيها، وتربينا على أرضها، ولا نعرف غيرها ولا نريد أن نعرف، عشنا فيها، وسندفن بها، وسيشيع جثمانى بعد موتى أهلى، وسيشاركه فى تشييعها جارى المسلم، ولو وقع أبناى من بعدى فى ضائقة، سيجدون ألف مصرى (مسلمًا كان أم مسيحيًا) لا فرق، يعاونونهم ويقفون بجوارهم...! فكيف لى أن أخون بلدى وأهلى وجيرانى...؟!!

كان "جريس يونان" فى الثامنة والعشرين من عمره، صعيديًا من مديرية قنا، متزوج ومعه ثلاثة أبناء من الذكور، شاب حاد الطباع، مُحاربٌ ذو عزيمة وبأسٍ شديد، أسمر اللون، ضخم الجثة، كان مشهورًا بين رجال المقاومة باسم جريس القبطى، وكان يدعو نفسه كذلك فخراً بقبطيته...!

كان لجريس يونان أخت تُحارب بجواره كالرجال، تُهاجم الجنود الفرنسيين كأشجع المُحاربين، وكثيرًا ما نظر إليها

الشريف بكري بنظرات إعجابٍ وذهول لقوتها وشجاعتها وتهورها الشديد، ومواقفها الحادة الجريئة تجاه الحملة الفرنسية والجنود الفرنسيين المعتدين، كان اسمها مريم يونان، في الثالثة والعشرين من عمرها، تعيش مع أخيها وزوجته وأبنائه الثلاثة في أحد بيوت جيرانهم من المسلمين اسمه الشيخ محمد بركات، كان بيتًا واسعًا مُناسبًا جدًا لهم، وكان الشيخ محمد بركات قد فكر -من قبل- أن يُزوج فيه أحد أبنائه... كان هذا البيت مكونًا من طابقين، وبكل طابق غرفتان كبيرتان للنوم، وغرفة أخرى للمعيشة، وبالذور الأول دورة مياه واسعة ومطبخ لإعداد الطعام، كما كان به مجلس واسع لاستقبال الضيوف، قام الشيخ محمد بركات بإعادة صيانته وعمل بعض الترميمات البسيطة في جدرانه خلال وقت قياسي استغرق يومًا واحدًا، ثم وهبه لأسرة جريس يونان بعدما هدم رجال الحملة الفرنسية عليهم بيتهم بمدافعهم، ومات أبواه قتيلين تحت الأنقاض.. وسرعان ما تبرع الجيران المسلمون والمسيحيون ببعض قطع الأثاث الضرورية لفرشه، وهذا عَيْنُهُ ما حدث مع كل الأهالي الذين تَهَدَّمَت بيوتهم بعد ضربها بالمدافع...!



كانت مريم سمراء اللون، حادة الملامح، خفيفة كالفراشة، سريعة الخُطى، كانت هيئتها تشبه الرجال في ملابسهم وطريقتهم، كما كانت تُجيد الكر والفر ببراعة الفرسان، وكان لها دور عظيم في توجيه نساء المقاومة، وذلك وقت التحام المقاومة بالجنود الفرنسيين، وبصوتها العالي الحاد - الذي يشبه الصراخ- كانت هي من تُوجه النساء حسب توجيه قادة المُقاومة.. كانت فداية وبطلة حقيقية لا تتكرر في كل الأزمان، ولم يكن يطرأ ببال الشريف بكري أنه سيُقابل ذات يوم فتاة كذلك الفتاة، حتى إنه بات يتمنى أن يرزقه الله بمولودة ليسمياها مريم تيمناً بمريم يونان القبطية المصرية...!

ما زال الشريف بكري يتذكرها دائماً، يتذكر بطولاتها وإقدامها وشجاعته حتى الآن، يقص روايتها كعنوان للتضحية والفداء في حب الأرض والوطن...!

نعم... ما زال الشريف بكري يتذكرها، يتذكر إحدى الحملات الفرنسية التي تقدم فيها الجنود الفرنسيون إلى مدينة قوص -أحد مدن الصعيد- ووقف رجال المقاومة

الصعيدية متأهبين كعادتهم، ووقفت مريم يونان بين الرجال
مُتأهبة كالفرسان... فاندفعت وسط الجنود الفرنسيين
كالبرق، انقضت عليهم في غفلة منهم فقتلت منهم من
استطاعت أن تقتل.. ولتهورها واندفاعها الشديد وقعت
أسيرة بيد الجنود الفرنسيين.. وعلى الفور حاول الشريف
بكري بكل جهد وقوة هو وفرسان بلاد عين الآبار الذين
شهدوا تلك الحادثة مع أخيها جريس تخليصها من يد الجنود
الفرنسيين، وتوغلوا بينهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، واندفع
الشريف بكري بكل قوة وتهور ليخلص مريم من الجنود
الفرنسيين، ولكنه فشل كغيره في ذلك...! فالقبض على
الفتيات المصريات المشاركات في المقاومة الصعيدية، لهو
في حقيقته هدف غال جدًا لكل جنود الحملة الفرنسية أثناء
توغلهم في صعيد مصر، وأبلغ ما يتمناه الجنود الفرنسيون
إطفاء رغباتهم الجنسية المكبوتة في تلك البلاد القاسية التي
تنفرهم بشدة..

ووسط هذا الجمع الغفير من الجنود، ووسط صيحات رجال
المقاومة والفرسان وتلاحم القتال، صرخ جريس مُخاطبًا
أخته مريم قائلاً:

- احمي عرضنا يا مريم... ولا تلتخي رؤوسنا بالوحل...!
كان هذا النداء كثيرًا ما يطلقه أهالي الصعيد عند القبض على إحدى فتياتهم أو نسائهم، يطالبونهن بالثبات وحماية أعراضهن وشرفهن، بل كانوا أحيانًا كثيرة يدعونهن لتشويه أجسادهن أو حتى قتل أنفسهن...! وذلك لما كانوا يسمعونه من تعدي الجنود الفرنسيين (الوحشي) على النساء الأسيرات لديهم، وبشاعة ما يحدث لهن في المخادع.. فلقد اشتهر عن الجنود والضباط الفرنسيين أنهم كانوا يغتصبون النساء والفتيات المقبوض عليهن ويتناوبون عليهن فعل الرذيلة لأيام، وبعدها يقومون بقتلهن وإلقاء جثثهن في النيل.. فكان النساء المصريات الحرائر لا يقبلن ذلك ويُفضّلن الموت، فكنّ يفتنن أنفسهنّ أو يُشوّهن أجسادهنّ حتى لا يتعدى عليهن الجنود..

ووسط تلك الأجواء المُلتهبة المرتبكة سمع رجال المقاومة الصعيدية والشريف بكري صوت مريم وهي تصرخ كعادتها، مُنشدّة كلماتٍ ألهمت صدور رجال المُقاومة ونسائها على حدٍ سواء... فلقد صرخت مريم بصوتٍ قوي

وعزيمة واستعداد حقيقي للموت وأخذت تقول :

روحي وجسدي فداءً لبلادي..
جريس وداعاً وفي الملكوت التلاقي..
محمد جاري وأهلي وأصحابي..
سلاماً يا مصرُ ويا أهل الحجاز..
وداعاً فإني حافظت لعهدكم..
وقطرات دمي أهديتها لأحبابي..

فَهَمَ الجميع من كلماتها أنها قررت قتل نفسها، حتى لا تُنطخ شرف أخيها بالوحد كما طلب منها.. وماتت مريم ووجدوا جثتها مشوهة بين جثث رجال المقاومة، فحزنَ عليها كل الرجال المحاربين من أهل الصعيد الذين كانوا يحاربون بجوارها، كما حزن عليها مقاتلو الحجاز وشبه الجزيرة العربية الذين كانوا يعرفونها.. وفي اليوم الثاني لتلك الحادثة، شنت المقاومة هُجوماً شرساً للغاية على ثلاثين جُندياً وضابطاً من الجنود الفرنسيين كانوا يُقلون سفينة حربية بالنيل في طريقهم إلى سوهاج لتعزيز قوتهم بها، ولإخماد ثورة شعبية اندلعت هناك، فهجم عليها رجال المقاومة في قوة قوامها مائة وخمسون رجلاً وفارساً من

رجال المُقاومة الأفذاذ، كان من ضمنها جريس يونان، كما أصر الشريف بكري على المُشاركة في تلك الحملة (ثأراً) لروح مريم الطاهرة.. فتشجّع عاقر بن شداد وأصرَّ أيضاً على المُشاركة، فتبّعهُ مالك بن ربيع المالكي ثم خالد الفهري، ولقد اتفقوا جميعاً على هبة حياتهم للموت، بل أقسموا وتعاهدوا على ذلك.. فخرجوا مُندفعين يطلبون الموت، واستطاعوا أن يقتلوا كلَّ مَنْ كان على السفينة الفرنسية من جنود وضباط، وذبحوا مَنْ فيها واحداً تلو الآخر.. وكانوا يرددون تلك الكلمات بصوتٍ مدوّ كالرعد:

لمريم القبطية نقدم الأضحية..

لمريم التقية نقدم الهدية..

لمريم العتيقة نقدم العتيقة..

عرفت تلك الموقعة بين رجال المُقاومة فيما بعد بموقعة (ثأر مريم)... كما باتت تلك الأبيات شعاراً يردده رجال ونساء وفرسان المُقاومة في الصعيد طيلة شهر كامل في كل مواقعهم مع الجنود الفرنسيين إكراماً لمريم يونان..

لم تكن تلك الأحداث تمر بسهولة على عقل الشريف بكري دون أن يسأل عنها، ويسأل عن هذا الشعب (العجيب) الذي

لا يكاد يميز فيه بين المسلمين والمسيحيين في تصديهم لهذا العدو الغاشم إلا عند الصلاة بالمسجد أو بالكنيسة... يقاومون عدوهم بكل بسالة وقوة، وبعد عناء أيام طويلة حضر الشريف بكرى لقرية قاسم، وكان بصحبته عاقر بن شداد ومالك بن ربيع المالكي وخالد الفهري.. وأقاموا جميعاً عند الشريف يوسف بن زهير وفي ضيافته، والتقوا ببعض رجال المقاومة هناك، الذين رحبوا بهم بشدة، وأثناء حديثهم الطويل تطرق الشريف بكرى للشيء الذي رآه في الأيام المنصرمة، وكان يشغله بشدة فقال:

- كيف يُحارب الأقباط معكم ضد الفرنسيين وهم من أبناء دين واحد...؟! ما كنا عرفناه قبل مجيئنا إلى مصر أن بونابرتة استمالهم لصفه، وأنهم يحاربون مع جنوده وفي جيشه...!

ضحك الشريف يوسف على كلام الشريف بكرى الذي بدا عليه الاندهاش الشديد، وكان يجلس بينهم ثلاثة شبان من رجال المقاومة بالصعيد، كان الشريف بكرى وفرسان بلاد عين الأبار يعرفونهم جيداً... فلقد شاركوا معهم في مواقع

مُتفرقة، ورأوا منهم شجاعة وبأسًا شديدًا، وهم الشاب فهمي رضوان، والشاب شاکر حسين العطار، وشاب آخر كان الشريف بكري وفرسان بلاد عين الأبار يعرفونه باسم أبو عيسى، ولكنهم كانوا يجهلون اسمه الحقيقي، فهو الشاب آرنست لطفي عبد المسيح، وهو مسيحي من أهل مصر، وكان الشريف بكري يجهل ذلك، وذلك لأنَّ رجال مُقاومة الصعيد كانوا جميعًا ينادونه بأبي عيسى.. وكانوا ثلاثتهم من أبطال مُقاومة الصعيد، وكانوا جميعًا في مرحلة عُمرية متقاربة، في الثلاثين من عمرهم تقريبًا، كما كانوا معًا يمثلون قادة جماعة أطلق عليها رجال المقاومة بمديرية قنا (جماعة الفؤوس والحجارة) لأنهم لم يكونوا يحاربون بالسيف أو البنادق الحديثة، بل كانوا يُحاربون إما بالحجارة أو بفؤوس صغيرة خفيفة حادة للغاية، يرميها الفلاحون من بعيد بقوة على الجنود الفرنسيين، وما إن تُصيب أحدهم حتى كانت تمزق جسده أو تُصيبه بجراح بالغة، وقد تُودي بحياته في الحال إن أصابته في رأسه.. صنعها لهم الحداد الماهر آرنست عبد المسيح خصيصًا لهذا

الغرض، خاصّة أنه كان يخشى استعمال البنادق الحديثة، فكان لتلك الجماعة دور كبير في التصدي لزحف الجنود الفرنسيين، وكانوا يعتلون أسقف المنازل ويلقون على الجنود الحجارة الثقيلة والفؤوس من فوقها..

ولقد أصاب جماعة الفؤوس والحجارة عددًا كبيرًا من الجنود الفرنسيين، وما إن يقع الجندي الفرنسي على الأرض حتى يتوجه إليه أحدهم فيجهز عليه، ويلتقط بندقيته ويرسلها في الحال لمن يُجيد استخدام البنادق الحديثة.. وتلك واحدة من الطرق التي كان رجال المقاومة الصعيدية يتحصلون بها على البنادق من الفرنسيين أنفسهم...!

لم يُجب الشريف يوسف على سؤال الشريف بكري ونظر إلى أرنت طالبًا منه الإجابة على هذا السؤال الذي حير فرسان بلاد عين الآبار، فقال أرنت يخاطبهم بهدوءٍ شديد:

- عندما يشفق قاتل الأب على الابن ويتودد إليه ويلاطفه ويداعبه، أتظن أنّ الابن سيتسامح في قتل أبيه...؟!!

- لا لن يسامحه... وبالتأكيد سيذكر الابن دائمًا قاتل أبيه بكل شر.

- ما قاله لي أبي عندما جاء الفرنسيين لبلادنا، انضم إلى الشريف يوسف وإخوانك من أهل الصعيد، فالفرنسيون غزاة قتلة، قتلوا أهلنا في الإسكندرية ولم يُفرقوا في قتلهم بين مسلم ومسيحي... فهؤلاء من أحفاد الرومان الطغاة، الذين نكلوا بأجدادنا، واضطهدوا كنيستنا، وأغرقوا تاريخها بدم الشهداء.

فقال مالك بن ربيع المالكي وقد ظهر عليه الاندهاش الشديد:

- أنت مسيحي...؟!!

- أنا أرنست صانع الفؤوس، ألم تسمعوا بي من قبل...؟!!

- على العكس تمامًا، فأنا أعرفك جيدًا يا رجل... ولكني

أعرفك بأبي عيسى صانع الفؤوس...!

- هذا لقب أطلقه أرنست على نفسه عندما رأى أحد الجنود

الفرنسيين ينادونه أرنست...! ومنذ ذلك الوقت لا نناديه إلا

بأبي عيسى...!

فقال خالد الفهري وقد ارتبك كثيرًا:

- وأنت مسيحي أيضًا...؟!!

- لا أنا مصطفى رضوان، وهذا شاكر حسين العطار،
ولكننا لم نعد نسأل هذا السؤال في تلك الظروف.

فقال مالك مُندفعًا:

- أنا أعرفكم جيدًا... أنتم جماعة الفؤوس... نرجو أن
تعذرونا فما رأيناه هنا لا نستطيع أن نستوعبه...!

ثم علق الشريف بكري قائلاً:

- نحن نعتذر لكم جميعًا...!

- لا تعتذروا، فنحن نفهم ذلك جيدًا، ولكنني أريد أن أوضح
لكم أمرًا، سيزيل تلك الأفكار من رؤوسكم، وتفهمون ما
نحن فيه.

فرد الشريف بكري قائلاً:

- تفضل يا شريف يوسف.

كما عاد خالد يقول :

- نرجو أن توضح لنا يا سيادة الشريف ما يحدث هنا، فنحن
نريد أن نفهم... فوالله لقد رأينا هنا العجب العُجاب...!

فقال أرنتست:

- ليس عجبًا أبدًا، تلك أمور عادية جدًا.

- لا لست عادية يا رجل... والله لقد حيرتمونا يا مصريين...!

فقال الشريف يوسف موضًا:

- عندما جاء الفرنسيون إلى مصر، وفكر بونا برته كيف يخترق أرض مصر، أول شيء فكر فيه أن يخترق نسيج ووحدة هذا البلد، فأرسل خطابًا طويلًا، نستطيع أن نقول عنه خطابًا إسلاميًا مُخادعًا وماكرًا، أراد أن يستميل به الناس، وأفلح في ذلك، فاستمال له بعض المشايخ والعلماء من الأزهر الشريف، ثم ما لبث أن زرع الإسلام في قلوبهم، وأجبرهم أن يتحاكموا لأول مرة في تاريخهم إلى أحكام جديدة من صنع البشر، قال عنها إنها "قانون جديد"...! والعجيب أنه استمال بعض الغوغاء من المسلمين يحاربون في صفوفه، وسوف ترى منهم أصنافًا ذات يوم، فهل تستطيع هنا أن تصف المسلمين في مصر أنهم وافقوا على دخول الفرنسيين أرض مصر...؟!!

- بالطبع لا... لأننا رأيناكم وشاهدنا ما تقومون به، وشاهدنا الكثير من المشايخ والعلماء الذين يرفضون وجود الفرنسيين في مصر.

- الناس في مصر تعبت من ظلم المماليك، أرهقوهم وأذلّوهم، والدولة (العثمانيّة) لا تُحرك ساكنًا للوقوف بجانب رعاياها، وبات التخلص من المماليك أمرًا يطلبه الكثير من العامّة قبل الخواص، وبعض من انحاز إلى بونابرته كان على استعداد أن ينحاز إلى الشيطان ليتخلص من هذا الظلم الواقع عليه وعلى أهله وجيرانه، ولكن أصحاب العقول يعرفون أنه لا يمكن لنا أن نقف مع ظالم وسارق آخر، فأمرُّكُنّه مني بحُجة أنني أستعين به لطرد ظالم وسارق آخر أرهقني...!

فقال الشاب شاكر العطار وقد غلبه حماس الشباب مُنفعلًا:

- ولكن مهما حدث يا سعادة الشريف لن يتساووا مع الفرنجة، الفرنسيون قتلة وسفاحون، جاؤوا فقط لنهب خيرات بلادنا، فكيف نقبلهم...؟ أقسم بالله إن تملكوا من بلادنا سيفعلون فيها أكثر مما فعله أبناء عثمان والمماليك ألف مرة...!

- أتعجب أن يكون فلاح بسيط مثلك يرى الأمور بهذا الشكل...!

- إنها الفطرة السليمة يا شريف بكري، شاكر لم يتعلم إلا في تلك الكتاتيب البسيطة... ومع ذلك ما إن وصل الفرنسيون بلادنا، حتى قرر الانضمام للمقاومة على الفور مُدافعاً عن بلده وأرضه ضد الجنود الفرنسيين، وإن شاهدته بالمعارك سترى بعينك شجاعته وإقدامه.

فقال خالد الفهري:

- أنا رأيته، ورأيت حُسن صنعه، ورأيت أنه لا يهاب الموت.

- ليس وحده يا خالد، فأنا والله رأيت رجالاً ونساءً وأطفالاً يركضون للموت ركضاً يا رجل...!

فقال الشريف يوسف:

- وأنتم كذلك يا عاقر، رجال الحجاز وشبه الجزيرة العربية أضافوا لنا الكثير.

فقال مالك:

- نحن نرى مصر بلادنا وأرضنا، ونراكم أهلنا، فمصر هي
السند والظهر الشديد، الذي لو كُسِر ما قام للعرب قائمة...

فقال مصطفى رضوان:

- بارك الله فيكم... مصر فعلاً بلادكم... تلك ليست مجرد
كلمة... وأنتم أهل خير وفضل... اللهم اجمعنا جميعاً ولا
تفرقنا يا رب العالمين.

فقالوا جميعاً:

- اللهم آمين...

فعاد الشريف يوسف يقول:

- الأغرب من ذلك أنكم سترون من بين رجال الفرنسيين
جنوداً من المماليك، انحازوا للفرنسيين بعد هزيمتهم
الأولى، هم قلائل ونحن نعرفهم، كما أنّ فرسان المماليك
الذي يُحاربون معنا يعرفونهم أيضاً، ولن يكون لمثل هؤلاء
وجود في بلادنا بعدما ننجح في طرد الفرنسيين بإذن الله
تعالى... فمثل هؤلاء يميلون لمن يظنون أنه الكفة الراجحة،
وتلك من صفاتهم الخبيثة.

- ألهذا الحد يا شريف يوسف!؟

فقال آرنست عبد المسيح:

- وأكثر من ذلك يا سيادة الشريف، فأمثال هؤلاء هم أصل الخبث في بلادنا، ومهما قلنا لك فلن تصل لك الصورة الكاملة عنهم.

فعاد الشريف يوسف يشرح ما كان قد بدأه:

- بونابرته حاول أن يستميل له المسيحيين من الأقباط أيضاً، ويأخذهم في صفه بحجة أنهم أقلية جاء لحمايتها، وهذا ما جعل البعض منهم ينازرون إليه أيضاً، ويحاربون في صفه، ولكن في الوقت نفسه كان هناك الأنبا مرقس الثامن بطريرك الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية -أطال الله عمره- رفض الدخول في حلف الفرنسيين، واتخذ موقفاً سيحفظه له التاريخ، ورفض بشدة انضمام المسيحيين للفرنسيين، فلم يُشجّع ذلك، بل استنكره، كما أنكم الآن تحاربون العدو الفرنسي مع رجال مسيحيين جنباً إلى جنب، فماذا عساكم أن تقولوا عنهم...!؟

فقال عاقر بحماسٍ شديد:

- هم أبطال ولا شك من أبطال مقاومة الصعيد للعدو

الفرنسي، لا يمكن أن ننكر حقهم وفضلهم، ولا يمكن لنا أن ننساهم يا رجل...

كما علق الشريف بكري قائلاً:

- الآن فهمنا ما يحدث على أرض مصر... فهكذا هي مصر... تخطف العقول والقلوب، تجعلك تنظر إليها في حيرة حتى تأخذك... فتراها اللئيمة مع ضيوفها... الصلابة كالحديد مع أعدائها... فاللهم احفظ مصر وأهلها...

وفي النهاية أخبر الشريف بكري العبد ياسر سعدون بقراره النهائي في قبول عرض أبناء عمومته في صعيد مصر، وقرر الهجرة إلي مصر ليستقر بها.

تمت ،،،

مصادر الكتاب:

- ١- كتاب الانحرافات العقديّة والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وأثارها في حياة الأمة، تأليف: علي بخيت الزهراني.
- ٢- كتاب الدولة العثمانيّة، عوامل النهوض وأسباب السقوط تأليف: على محمد الصلابي.
- ٣- كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، تأليف: محمد حسنين هيكل.
- ٤- كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد، تأليف: عثمان بن عبد الله بن بشر (الجزء الأول).
- ٥- كتاب داعية وليس نبياً، تأليف: حسن بن فرحان المالكي.
- ٦- كتاب تاريخ ابن غنام (الجزء الأول)، تأليف: حسين بن غنام.
- ٧- كتاب المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر، تأليف: عبد المتعال الصعيدي .

- ٨- كتاب الوهابية تحت المجهر، تأليف: ياسر بن إبراهيم
السلامة.
- ٩- محاضرة عن الإمام محمد بن عبد الوهاب، دعوته وسيرته،
تأليف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
- ١٠- كتاب محمد بن عبد الوهاب، حياته وفكره، تأليف: عبد الله
الصالح العثيمين.
- ١١- كتاب السلف والسلفية، تأليف: محمد عمارة.
- ١٢- كتاب الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية تأليف: سليمان
بن عبد الوهاب النجدي.
- ١٣- كتاب الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد
الأمريكي، تأليف: محمد عمارة .
- ١٤- كتاب تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف،
تأليف: محمد بن شاکر الشریف.

١٥- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عدد فبراير
١٩٩١م، القصيدة اللامية في رثاء الشيخ محمد بن
عبد الوهاب للقاضي محمد بن علي الشوكاني تحقيق وتقديم
الدكتور: عبدالله بن محمد أبوداهش.

١٦- كتاب الحملة الفرنسية في الميزان، تأليف: محمد عمارة.

١٧- كتاب تأملات عصرية في الحملة الفرنسية، تأليف: محمد
عرموش.

١٨- كتاب نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر
الجزء الأول، تأليف: توفيق إسكاروس.

١٩- كتاب ودخلت الخيل الأزهر، تأليف: محمد جلال كشك.

٢٠- كتاب درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور على
وأعلام دولته الميامين، تأليف: لطف الله بن أحمد حجاف،
تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي.

- لم تكن ورقة نابليون بونابرت الإسلامية إلا محاولةً خبيثةً لدخول مصر، خاطب بها كتلة بشرية كبيرة تزيد على ٢ مليون مسلم مصري في تلك الفترة، يستطيع من خالهم - إن انطلت على جموعهم الخديعة- أن يجعلوا من مصر لقمةً سائغةً ومصيدةً لجيشه، ذلك الخطاب وصفه هو بنفسه في نهاية حياته بأنه كان خُدعةً كان لها مبرراتها، فلقد ادعى فيه أنه يحترم الإسلام والقرآن العظيم، بل إنه جاء كمخلص لمصر من المماليك الطغاة، كما داعب فيه الباب العالي بكلمات بات الفرنسيون أنفسهم يستهزئون بها في وقتٍ لاحق، بل وفي وقت الحملة نفسه، فالخديعة كانت واضحة للجميع إلا لبعض أهل مصر، ولكنَّ ألباب العقول فهموها، وتصدوا له ولجيشه ومنعوه من تحقيق أهدافه

الأساسية التي كان أولها "احتلال مصر كبدائية لعملية إرث
الدولة العثمانية، والزحف منها إلى فلسطين والشام. والهدف
الثاني هو قطع طريق المواصلات البريطانية لمستعمراتها
في الهند" ولكن....

أشار الأستاذ كارم محمود طالبًا توضيح أمر معين، وهو
شاب في الثلاثين من عمره، ويعمل أستاذًا لمادة التاريخ
بمدرسة التراث بقنا، فسمح له أحمد مالك، بعدما توقف عن
سرد الأحداث، ثم أوماً له برأسه أي تفضل :

- لكن يا أستاذ أحمد عندما حضر الأسطول الفرنسي
للإسكندرية، كان هناك أسطول إنجليزي يبحث عنه،
والإنجليز متفوقون في البحر أضعاف الأضعاف، لماذا لم
يُسمح لهم بالبقاء لطرد الفرنسيين...؟! وعدوي عدو صديقي

كما يقولون.. وكنا تقادينا ما حدث في مصر من قتل ما يزيد على ٣٠٠ ألف مصري على يد الفرنسيين من شعب تعداده أقل من ٢ مليون ونصف في تلك الفترة، أي ما يقرب من سُبُع الشعب تقريبًا...!

فقال الشيخ دردير بعدما أفرغه الرقم:

- وه.. سُبُع الشعب، هما الفرنسيين قتلوا العدد ده كله في ثلاث سنين بس، أمّال لو كان طولوا كانوا عملوا إيه...!؟

فرد كارم محمود بثقة قائلا:

- كانوا عملوا إبادة يا عم الشيخ دردير، زي اللي عملوها في الجزائر وغيرها من بلاد العرب، وطبعا الرقم ده طبعا لإحصاءاتهم وأعدادهم من مراسلات قادة الحملة أنفسهم.

فعاد أحمد مالك ليرد على سؤال كارم محمود الذي كان قد
توقف بسببه عن سرد الأحداث:

- موضوع لماذا لم يستقد المصريون من الإنجليز وقتها،
أمر مفهوم تمامًا، وذلك إذا وضعته بين الأحداث والظروف
المحيطة في وقتها، فأولاً، يجب أن نعلم أنه كان هناك
فصل شديد بين الدولة العثمانية وولاتها، وبين ما يجري
على الساحة العالمية في تلك الفترة، فهذا الصراع الدائر بين
أعظم قوتين وقتها كان يغفل عنه الكثير، خاصة أن الدولة
العثمانية بلغت من الضعف بحيث لم يكن في اهتماماتها أو
حساباتها إلا المؤامرات الداخلية، والتحالفات والدسائس،
وأمر أخرى جعلتها مجرد لعبة في أيدي تلك القوى الكبرى
المتصارعة... وثانياً، أنه لم تكن هناك الوسائل التي تتيح
للناس معرفة كل التفاصيل والتحالفات والصراعات العالمية
كما الآن.

- لكنهم في النهاية خرجوا من مصر بعد تحالف الإنجليز مع الدولة العثمانية.

- حقيقي يا أستاذ كارم، طبعًا الإنجليز كان لهم الدور الأكبر، وهذا حمايةً لمصالحهم في المقام الأول، هذا بالإضافة إلى أن الفرنسيين وجدوا أنفسهم تورطوا في بلاد لا تقبلهم، وشعب يرفض وجودهم بهذا القدر، خاصة أن نابليون بونابرت ترك مصر لظروف بالإمبراطورية الفرنسية، وجاء كليبر من بعده، وقُتل كما نعرف على يد سليمان الحلبي، أما من جاء بعدهم فكان مينو، وكان ضعيفًا ومترددًا، وقراراته متضاربة للغاية، فلم يكن يتحلى بحنكة نابليون أو كليبر...

توقف أحمد مالك وعاد يُقلب في كتابه باهتمامٍ شديد، ثم وقف من على كرسيه، ليلفت له الأنظار، وكأنه تذكر أمرًا هامًا واسترسل يقول:

- الأخطر من ورقة نابليون الأولى التي داعب بها مشاعر المسلمين والسلطان العثماني، ورقة أخرى ونداء آخر كان على أسوار عكا ويافا، عندما توجه بجيوشه من مصر زاحفًا على الشام من فلسطين، ولكنَّ جيوشه توقفت أمام مقاومة والي عكا أحمد باشا الجزائر، وأعادته مرة أخرى لمصر خائبًا، كان هذا النداء نداءً مختلفًا تمامًا، كان موضوعًا بإحكام شديد ومنسقًا ومرتبًا له للغاية، ولم يكن وليدَ الموقف، ففي الوقت الذي تم توزيع تلك الورقة في فلسطين، جرى توزيعها في نفس الوقت في فرنسا وإيطاليا والإمارات الألمانية، بل وفي إسبانيا، الأمر الذي يؤكد أنَّ

الأمر أكبر من كونه مجرد قضية أثارها وفرضتها عليه الظروف عندما استعصت عليه أسوار القدس، بل هو أمر مخطط له بعناية ومحسوب له تمامًا، كان هذا النداء هو نداء نابليون بونابرت لليهود، الذي دعاهم فيه لدخول فلسطين ووصفهم في خطابه بـ"ورثة فلسطين الشرعيين"، والحقيقة أنّ ورقة نابليون للمسلمين توقفت عند هذا الحد، ولم يتبقَّ منها إلا أوراق وذكريات تحمل كل معاني السخرية، أما ورقته لليهود فهي الوثيقة التي تستحق الاهتمام والدراسة، لما لها من أثر إستراتيجي خطير باقٍ في المنطقة منذ تلك الأيام وحتى الآن..

ثم عاد أحمد مالك إلى مكانه ثانية، وأغلق الكتاب وقد وصل إلى آخر صفحاته، ونظر إلى الحضور وهو يقول:

- ومع كل تلك الأحداث كان على الشريف بكري أن يختار أي البلاد التي سيهاجر إليها... وبهذا تكون قد انتهت حياة أجدادي في بلاد عين الآبار، دولتهم التي أسسوها بمحض إرادتهم وشاركوا في وضع قواعدها وقوانينها لتسيير شؤونها، وعملوا على تجديد وتحديث تلك القواعد حتى وصلوا إلى مرحلة (كانت متقدمة للغاية) بمقاييس ذلك العصر، احترموا في دولتهم الإنسان والقيم الروحية والعادات والأعراف وجددوا ما يمكن تجديده، حتى دب بينهم الخلاف للتساهل في التجديد، حيث اعتبرت قبيلة مالك التجديد أمراً يمكن اللجوء إليه لمعالجة أمر عارض أصاب بلاد عين الآبار، فأرادوا هدم الثوابت التي قامت عليها دولتهم، فحل بهم ما شاهدتم.. كما قرروا الهروب من دولة ابن عبد الوهاب تلك الدولة التي تشددت في التجديد، وقامت على التكفير والقتل

والحروب والغزوات، وقرروا أخيراً الهجرة إلى دولة أخرى
تقبلهم بعباداتهم وأعرافهم وقيمهم الروحية وسماحة مذهبهم،
ولم يكن أمامهم إلا الرحيل..

ثم استطرد قائلاً وفي كلامه تفاخراً مُستترًا بما أنجزه :

- أما عن مصادر الكتاب ومراجعته فلقد أشرت لها
تفصيلاً في آخر صفحاته، هذا بخلاف مئات
المقالات، وعشرات مقاطع الفيديو والمحاضرات
المسجلة لعددًا كبيرًا من الكتاب والنقاد الذين ناقشوا
تلك الفترة، وللتوضيح منهم من ناقشها بحيادية
تامة، ومنهم من لم يكن كذلك، ومع ذلك أخذت من
الجميع، ولكن فقط ما أقتنع به وما يدعمه من أدلة
قاطعة وجدها مقبولة عندي، وذلك دون النظر إلى

شخص الكتاب وتوجهاتهم الفكرية والأيدولوجية،
فنحن نعرف جيدًا أن للأحداث التاريخية قراءات
متعددة ومختلفة، بل ومتناقضة أحيانًا كثيرة وبشكل
صارخ، ولكنني اخترت في النهاية وعن قناعة تامة
القراءة التي رأيت أنها أكثر صدقًا ومصداقية
وانصافًا من غيرها دون تحيز أو محاباة .. والله
الموفق.

تمت بحمد الله،،،